

لأطلس دين في بلاد المشردين

د. غفار محمد

أطلس دفين في بلاد المشرقيين



رواية من أدب التشويق و الخيال

د. غفار محمد

لأطلس دين في بلاد المشردين ..

الإهداء :

إلى أُمِّي ..

مذهلة كأسطورة إفريقية

لأطلس دين في بلاد المشردين ..

أنت هنا في عالم الخيال، وكل
تشابه مع الواقع في الأسماء و
الأحداث و كثير من الأماكن هو
محض صدفة ..

لأطلس دين في بلاد المشردين ..

محتوى الكتاب :

- أطلس و على كتفيه سماء العدالة
- حلم قصير ، أرخبيل و أساطير ..
- نهاية شجاع .. و ولادة أسطورة
- إله القدر يفتح صندوق باندورا
- فايثون الأرعن
- العذراء المريضة و المسيح الطبيب
- إيكو الحوريّة يحل القضية
- ثروة من الشغف ..
- بروميثيوس سارق النّار لأجل الأخيار
- سيمفونية الحياة
- عقدة أوديب و العشق الغريب
- استنزاف الحياة من أجل الحياة
- غيرة بيغماليون ..
- طفل يحتضر بين نسر و مصوّر (أوبنتو)
- الانتقام الأخير .. و انكشاف المصير ..
- الحلم حقيقة الآن في كهف ماتابان
- المدينة الفاضلة .. ارقد يا أطلس بسلام ..

أَطْلَسِي وَعَلَى كَتَفَيْهِ

سِمَاءُ الْعَدَالَةِ..

الأسطورة ..

تلك الكلمة التي تهبّ كنسمة عتيقة من دهاليز الزمن، تحمل معها عبق الغموض ورهبة اللامعقول، وتدغدغ التلايف المعتمدة في العقل البشري، كما لو كانت نشيدًا أزليًا كُتب على جدران النسيان.

كلمةٌ ولدت في رحم الدهشة الأولى، حين وقف الإنسان عاري الفهم أمام الصاعقة، أمام الزلزال، أمام الدمعة التي تسقط من السماء على هيئة مطر، لا يملك لها تفسيرًا سوى أن ينسج لها حكاية... حكاية صارت فيما بعد أسطورة ..

الأسطورة، إذًا، ليست مجرد حيلة بلاغية أو تهويم شعري.

إنها اللغة الأولى التي تحدث بها البشر إلى الكون، بل التي تحدث بها الكون إلى البشر، فتسللت إلى أذهانهم كالموسيقى، وجعلتهم يرون في البرق غضب الآلهة، وفي الزلازل قلق الأرض، وفي البراكين أنفاس الكائنات الجوفية التي لا تهدأ.

لقد لجأ الإنسان القديم للأسطورة كما يلجأ الطفل لحضن أمّه حين يعجز عن فهم الألم، فراح يُلبسها أردية المجاز، ويصوغها بدموعه، بخوفه، بصلاته، وأحيانًا... بجثث أحبائه الذين قدّمهم قرابين على مذابح الخلود. و كل ذلك لهدفٍ واحدٍ عند جميع الحضارات :

((الشعور بالأمان بأنهم محكومون بقوة خارقة قادرة

على كل شيء ، و الشعور بالأمل بأن هناك حياة

أخرى تنتظرهم بعد الموت)) ..

فآمن بتلك الأساطير... عبدها... تضرّع إليها...

ونقلها كما ينقل المسافر مياهها مقدسة في قوارير من الفخار.
نسجها الإغريق على جباه أولمبهم، ورشّها الإسكندنافيون على نبيذهم
المُعْتَق،

وبناها الفراعنة بقبضات من حجر وصرخات من شمس...
عبدها الفرس كالنار ..

أما الأفارقة فأنشدوها على وقع الطبول كأنها آلهة تمشي على أنغامهم.
وأما الفينيقيون، فقد أبحروا بها نحو الأفق، ينشرونها مع كل موجة،
حوّلها البابليون إلى نجوم متألّنة في سقف الليل، بينما ربطها الهنود
والصينيون بالزهور والنار والريح والموت والبعث.
أما أبناء الشمس في الأمريكيتين، فقد خافوها أكثر مما أحبوها،
فأحرقوا لها البخور، والناس، والقلوب كقرايين ... حتى ترضى.

لكن، بين سطور تلك الأساطير، شيءٌ دائماً ما يختبئ...
شيءٌ لا تراه العين، ولا تُمسكه اليد،
شيء لا يُقال، بل يُشعر به فقط... كما يُشعر بالرجفة حين تمرّ الروح
قربك.

ذلك الشيء هو الجوهر ،
الشرارة الأولى التي اندلعت منها النار قبل أن تصير دخاناً.
وإن كانت الأساطير تحلّق بين الشك واليقين،
فلا بد أن دخانها خرج ذات يوم من نار حقيقية.

فلا لا دخان بلا نار ..
و لا مطر بلا غيوم ..

إذ ثمة شيء مؤكد و ثابت يجمع كل أساطير العالم :

((عندما نعود إلى جذورها سنجد حقيقة ما خلقت

منها تلك الأساطير ثم نسجت عليها حكاياتها المذهلة))

فالأسطورة ليست وهمًا كاملاً... وليست حقيقةً كاملة،

بل هي التقاء البرق بالخيال، الحقيقة بالحلم، الواقع بالرغبة.

هي نداءً من أعماق الزمان يهمس في أذنك :

(جذوري ترتبط بمشيمة الحقيقة بحبال من الأسرار)

فالأسطورة تختلف عن الخرافة بأنها تضم بعض الحقائق التاريخية كقصة
حصان طروادة مثلا التي حدثت بالفعل ، لكن نسجت حولها لاحقا الكثير
من الاحداث المختلفة و الزائفة التي لعبت فيها الأساطير الدور المحوري

ولهذا قال فيكتور هوجو، وهو من سمع صدى ذلك النداء ، في وصف
الملحمة كحال إلياذة هوميروس و إنيادة فرجيل بقوله :

(الملحمة هي التاريخ ينشد على باب الأسطورة.)

فما دامت تحتوي على نواة من الحقيقة، فهي أسطورة، لا خرافة.

الخرافة ؟ مجرد غبار لا جذور له.

أما الأسطورة، فشجرة لها ظل، وإن لم نرها دائما.

فاحذروا...

قد تمرّ الأساطير بجانبكم دون أن تنتبهوا،

وقد تتسلل إلى أحلامكم في صورة طائر، ظلّ، أو اسم...

وقد تنطق يوماً، حين يحين الوقت، فتقص عليكم حكايتها الحقيقية،
حكاية لا تموت... لأنها ببساطة :
تنتمي إلى الحياة أكثر مما نظن.

الولايات المتحدة الأمريكية / نيويورك ..

في أحد المشافي..

2049 م .. الساعة 4 عصراً ..

سحب الشاب الأربعيني، صاحب الملامح الحادة والهيئة الصارمة، نفساً عميقاً من سيجارته، كما لو كان يختلس قبلة مشتهاة من معشوقة خطيرة، في طقسٍ سرّي بين سادي و مازوخية تحترق لأجل سعادته بهدوءٍ مريب. احتوى أنفاسه برويةٍ وتركها تتسلل من شفتيه كضباب دافئ يعكر برودة المكان، في غمامة كثيفة اخترقت رائحة الفورمول النفاذة التي كانت تملأ الطابق السفلي من المشفى، حيث تقبع المشرحة، ذاك المسرح البارد المخصص لعروض الحقيقة المجردة بيد الطبيب الشرعي ، والتي لا تعرف كذباً أو تمثيلاً.

لم يعبأ بلوحات ممنوع التدخين المعلقة على الجدران حوله، فقد كانت عاداته تلك جزءاً من طقوسه، كما لو أن عقله لا يعمل، ولا تحلّ عقد التحليل المعقدة في ذهنه، إلا بمساعدة تلك الغيمة الساخنة من النيكوتين. كان التدخين بالنسبة له كالمفتاح المقدس لبوابة التأمل، والشرط الأول لانطلاق عجلة التفكير الدقيق في دهاليز العقل الإجرائي.

عيناه، الداكنتان كعمق بئر مهجور، شردتا بعيداً عن جدران المشرحة وعن الجثة المسجاة على الطاولة المعدنية الباردة، بل وحتى عن مساعده

الثلاثيني ذي البنية العريضة والعضلات المتبسة. ذلك المساعد الذي ظل يتأمل سيده بإعجاب صامت، يرقب ظلال أفكاره كما يراقب الرائي دخاناً يتشكل على سطح مرآة غائمة. فهو رئيسه ومثله الأعلى، وكان يشعر أمامه أنه مجرد ظلٍ سميكٍ لرجل استثنائي، كل حركة منه تحمل معنى، وكل سكون ينذر بشيء عظيم.

لكن الزمن لا ينتظر، والصمت حين يطول يصبح عبئاً على الهواء. فبعد مضي أكثر من ساعة من الانتظار المرهق، استسلم المساعد أخيراً، مطأطئاً رأسه في يأس، وقد استنزفه الصمت العقيم ومحاولاته المستميتة لقراءة ما يجول في ذهن رئيسه... حاول أن يطرق أبواب الحديث مراراً في خياله، لكنّه تراجع في كلّ مرة، مهيباً بذلك الحضور الذي يصعب مقاطعته دون سبب وجيه.

وأخيراً، كمن يقذف حجراً في بحيرة ساكنة، هشم صمت المكان الثقيل بصوته الأجنس، العميق كصدى ينبعث من جوف مغارة :

○ الشاب الثلاثيني : هل تتوقع أن يصل الطبيب بنجامين إلى شيء مفيد
حضرة المحقق فرانك ؟

أطفاً المحقق سيجارته بيده ثم رماها في سلة المهملات و رمق مساعده بنظرة ثاقبة كالليزر ..

● فرانك : مندفع و قليل الصبر كعادتك يا نوح .. مجرد دقائق و نعرف النتيجة اصبر قليلاً ..

صمت للحظة ثم أردف ..

● فرانك : على كل حال لا أدري إن كان الطبيب سيصل إلى شيء ،
إنهما مجرد عظمتين لا أكثر .. و أشك أن يستخرج الطبيب منهما معلومات مفيدة أكثر من تحديد كونها بشرية أم لا .. ربما تعودان لمئات السنين و لا قضية بالأساس حولهما .. لقد عثرنا عليهما بالأساس صدفة بينما كنا نلاحق ذلك المطلوب في محيط نيويورك و ليس لدينا أي خلفية

معرفية عنهما ..

○ نوح : محق كعادتك سيدي .. العظام لا تتنطق بأكثر من ذلك على ما أعتقد .. لكنّ الطبيب بنجامين لا ينفك يذهلنا في كل قضية أكثر من سابقاتها .. و أعتقد ..

لكن قبل أن يُكمل المساعد نوح حديثه، هشم الصمت فجأةً صوتٌ خافتٌ لكن واضحٌ، جاء من انفتاح باب المشرحة ببطء. ظهر الطبيب بنجامين، رجل في الرابعة والأربعين من عمره، ذا قامة متوسطة وملامح ودودة تُخالف قسوة مهنته التي تتطلب صلابة القلب. لو شاء القدر أن يغيّر مساره، لكان ربما راهباً يتأمل، أو فناناً يعبر عن روحه بالألوان، أو شاعراً ينسج الكلمات بحساسية، أو فيلسوفاً يتأمل أسرار الحياة.

كان بنجامين يشق طريقه بخطوات هادئة نحو الخارج، نزع قفازاته البيضاء ببطء، ثم أبعد الكمامة عن وجهه، كاشفاً عن تعابير تحمل مشاعر مختلطة من التعب والهدوء. حينها، انطلق المحقق فرانك، رجل في الحادية والأربعين من عمره، نحوه بحماس ملحوظ، وعيناه يملأهما العطش لمعرفة الحقيقة. طرح فرانك سؤاله المتعطش، ذلك السؤال اليناس الذي لا يتوقع له جواباً وافياً ، لكنه كان حاجة ملحة لمعرفة ما وراء الأبواب المغلقة كأمل أخير يتشبث بأهدابه .

● فرانك : طمئني أيها الطبيب ، هل توصلت لمعلومة مفيدة من العظام التي وجدناها في ذلك الكهف ؟

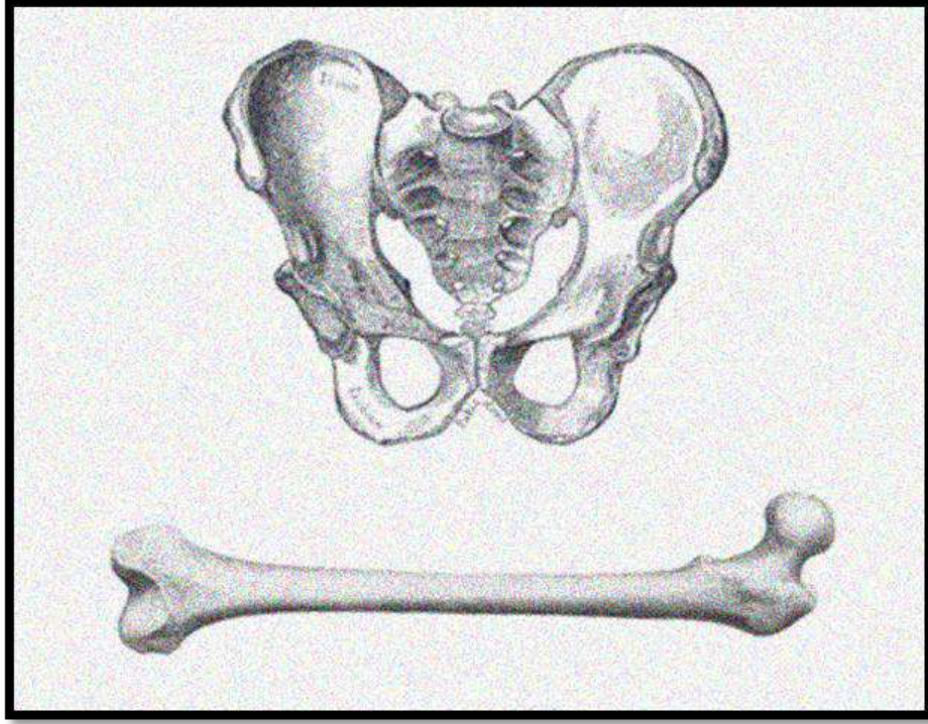
○ بنجامين : بالطبع .. بضع معلومات قد تفيدك ..

نظر فرانك إلى مساعده بدهشة فغمزه المساعد بابتسامة ..

● فرانك: معلومات و بالجملة ؟ غريب للغاية ، مثل ماذا ؟!

○ بنجامين : أجل عدة معلومات .. أولها أن العظام بشرية بشكل مؤكد و هي عبارة عن حوض و عظمة فخذ أيمن ..

من طول عظم الفخذ يقدر عمر الضحية بحوالي عشرين عاماً ، و من شكل الحوض يمكننا القول أنه لأنثى بسوابق ولادة وحيدة .. كذلك من طبيعة مفصل الحوض مع الفخذ نشتبها بأنها تعاني من خلع ورك ولادي و تعرج في مشيتها .. إضافة إلى كل ذلك نستنتج من الآثار الواضحة على الفخذ أنها تعرضت لطلق نارى ببندقية صيد و من مسافة قريبة و ربما أكثر من طلق واحد و من الممكن أن أحدها تسبب في مقتلها .. أخيراً العظام حديثة نسبياً و غير مفتتة فتشير بوضوح إلى أن الضحية رميت في ذلك الكهف منذ أشهر و قد التهمت الحيوانات الضارية البرية أغلب الجثة المتحللة و بقيت هاتين العظمتين بمفردهما .. فهل تفيدك هذه المعلومات حضرة المحقق ؟



عاود المحقق فرانك النظر إلى مساعده نوح **37** عاماً بذهول و ابتسم ..

● فرانك: أنت عبقرى حضرة الطبيب .. إن مساعدي نوح محق تماماً .. فأنت لا تتفك تذهلنا ببراعتك !.. كيف تمكنت من رسم صورة تقريبية للضحية و لطريقة موتها من مجرد عظمتين لا أكثر ؟! .. هذا إبداع حقيقي !..

○ بنجامين بتواضع : هذا هو دور الطبيب الشرعى الجيد حضرة المحقق

● فرانك : هي إذا جريمة قتل ..

○ بنجامين : بلا أدنى شك ..

● فرانك: لقد ضيقت علينا مجال البحث للغاية .. إذ يمكننا الآن مقارنة هذه المواصفات مع سجل المفقودين خلال العام المنصرم في تلك المنطقة و سنصل على الأرجح إلى تحديد هوية الضحية ..

○ بنجامين: أنا في الخدمة في أي وقت و سعيد بتقديم مساعدة تسلط الضوء أكثر على القضية .. فنحن كما يحلو لي دوماً أن أصف أنفسنا مقتبساً من الميثولوجيا الإغريقية كالإله أطلس الذي يحمل السماء فوق كتفيه بلا ملل .. فعلى عاتقنا مسؤولية رفع سماء العدالة فوق الجميع لنجدة المظلومين و تسليم الجناة إلى العدالة .. مهما كان ذلك شاقاً و متعباً و خطراً بعواقب سلبية كثيرة محتملة ..

● فرانك مبتسماً : جزيل الشكر لجهودك الاستثنائية حضرة الطبيب بنجامين (أطلس العدالة المحنك) ..

قابله بنجامين بابتسامة مماثلة ..

○ بنجامين: على الرحب سيد بروميثيوس ..

● فرانك: و من هو بروميثيوس هذا أيضاً؟! ..

○ بنجامين مبتسماً : إنه أخ الإله أطلس و هو الذي أوجد البشر في الميثولوجيا الإغريقية ، كما أنه تعاطف معهم و منحهم كل ما يحتاجونه للحياة ، لذا يعد الإله الإغريقي الوحيد الذي كانت مشاعره نحو البشر إيجابية .. كما تفعل حضرتك مع المظلومين فتتعاطف معهم و تسترد حقوقهم ..

● فرانك مبتسماً : أطلس و بروميثيوس .. خليط مميز بلا ريب.. شيء أخير حضرة الطبيب ..

○ بنجامين: تفضل ..

● فرانك: ما أخبار تقرير تشريح الجثة المتفحمة التي عثر عليها في
اليخت الغارق للمليونير جيمس ماك آرثر ؟

○ بنجامين: تاجر المخدرات على ما أظن ؟ ..

● فرانك: بالضبط .. لقد وضع تحت المراقبة بتهمة الإتجار بالمخدرات و
التحقيق المبدئي أشار إلى كونه قضى نحبه في حادث انفجار ذلك اليخت
في خليج ميامي منذ أيام بسبب مجهول حتى الآن ، إذ أكد جميع الشهود
أنه كان بمفرده على اليخت قبيل الانفجار .. لكن هنالك فرضية أخرى
تقول بأن جيمس زيف موته كي يتهرب من المحاكمة و السجن ..

○ بنجامين: الحقيقة أن الجثة متفحمة على نحو سيء للغاية و قد طمست
كامل ملامحها .. و عليكم بالفعل الاستعانة بالشهود لتحديد هويتها ، لكن
هنالك معلومة هامة في التشريح قد تفيدك في التحقيق أيضاً ..

● فرانك: و ما هي ؟

○ بنجامين: الجثة ماتت قبل أن تحترق إذ لا آثار للدخان في رئتيها و هذا
قد لا يعني شيئاً سوى أن المليونير توفي بالانفجار ثم احترقت جثته بعدها
.. و قد يعني الكثير من جهة أخرى في حال لم تكن هذه جثته بالأساس و
يبقى لدينا هنا طرف خيط لنتبعه و هو فحص أسنان الجثة و مطابقتها مع
السجلات الخاصة بطبيب الأسنان الذي يعتمد المليونير إن وجدت .. لذا
عليكم التحري خلف هذا الدليل و محاولة الحصول عليها إن أردتم حسم
الشك باليقين ..

● فرانك : بالطبع سنفعل .. لن نوفر جهداً في ملاحقة أي دليل ممكن أن
يفيدنا ..

○ بنجامين : إذاً أنا بانتظار إرسالها إلي متى توفرت للجزم النهائي بهوية
الجثة المتفحمة ..

● فرانك : بالتأكيد .. نشكرك مجدداً حضرة الطبيب بنجامين ..

○ بنجامين : لا داع لكل هذا الشكر .. فأنا لا أقوم سوى بواجبي البديهي
.. و كي أزيد همتك وحماسك أود إخبارك أنه في حال فشلكم في تزويدي

بسجلات الأسنان يتبقى أمامنا فرصة أخرى و إن كانت ضئيلة بمحاولة استخراج عينة **DNA** من الجثة المتفحمة ، سيكون ذلك عسيراً للغاية بلا شك نظراً لحالتها السيئة جداً ، لكن من الضروري وضع جميع الخيارات المتاحة أمامكم ..

● فرانك : أفهمك .. سنطرق جميع الأبواب الممكنة على كل حال مهما كان الأمل ضئيلاً ، فلا حل آخر أمامنا ..

○ بنجامين : سيكون تقرير الطبيب الشرعي حول العظام جاهزاً مساءً .. أما التقرير الخاص بالجثة المتفحمة فسيؤجل حتى استلام سجلات الأسنان أو استخراج عينة **DNA** ..

صافحه المحقق فرانك فاعتذر الطبيب كون يديه غير معقمتين بعد فحياه عن بعد ثم غادر بصحبة مساعده نوح المشفى و استقلا سيارتهما متجهين إلى قسم الشرطة..

أشعل فرانك سيجارة جديدة بجوار نوح الذي همّ بقيادة السيارة ، ثم سحب منها نفساً عميقاً و هو غارق في تفكير عميق ..

● فرانك: الطبيب بنجامين مذهل بحق .. فأغلب القضايا المعقدة و الغامضة التي حللناها حتى الآن كانت بفضل أدلة غريبة و تكاد تكون خفية استخرجها بنفسه من مسرح الأحداث أو من الجثث .. و كانت السبب الرئيسي في كشف الجناة و تفسير القضايا المحيرة ..

○ نوح : بالفعل إنه أطلس العدالة كما لقبته حضرة المحقق ..

● فرانك : لقب يليق به و لا شك ..

○ نوح : و الآن ماهي خطواتنا التالية ؟

● فرانك: ننتظر المساء لاستلام تقريره الشرعي النهائي ثم نطلب سجلاً بأسماء المفقودات خلال العام المنصرم و نقارن النتائج مع التقرير لكشف هوية الضحية صاحبة العظام ..

صباح اليوم التالي ...

الساعة 10 صباحاً ..

وصل سجل المفقودين إلى مكتب المحقق فرانك كما أمر و كانت هنالك نتيجة مطابقة وحيدة لاختفاء أنثى عشرينية تدعى إيميليا أندرسون منذ 7 أشهر ، بلغ والدها باتريك أندرسون عن غيابها عن المنزل في بلدة أولستر قرب جبال روكي المتفرعة عن سلسلة جبال كاتسكيل في محيط نيويورك ، تماماً حيث عثر على العظام و كانت على نحو مدهش تعاني من خلع ورك أيمن ولادي كما توقع الطبيب بنجامين بالضبط ..

● فرانك : خطوتنا التالية باتت واضحة الآن يا نوح .. أرسل دورية لاستدعاء السيد باتريك إلى مكتب التحقيقات على الفور ..

○ نوح : أمرك سيدي ..

انقضت ساعتان من الزمن و المحقق فرانك منغمس في قراءة بعض التقارير المتعلقة بجرائم أخرى ، طرق بعدها الباب مجدداً ..

● فرانك : ادخل ..

دخل المساعد نوح بصحبة رجل خمسيني أشيب الشعر بالكامل جارت عليه السنون بشكل فاضح فرسمت بريشتها مجموعة واسعة من التجاعيد على وجهه السمح ..

○ نوح : السيد باتريك حضرة المحقق ..

● فرانك : تفضل بالجلوس سيد باتريك ..

جلس السيد باتريك و القلق يعتريه بشكل جليّ يشهد عليه منديله المتنقل بين جيبه و جيبه كبنول الساعة ..

○ باتريك : أخبرني المحقق نوح أن معلومات جديدة تكشف بـخصوص اختفاء ابنتي إيميليا .. صحيح ؟

● فرانك : أجل صحيح ..

صمت فرانك للحظات و هو يدرس كلماته بعناية ..

● فرانك : أعتذر منك لإبلاغك بهذه الأخبار السيئة سيدي المحترم .. لكننا عثرنا على عظام في كهف بمحيط نيويورك يوجه التحليل الشرعي إلى كونها تعود لابنتك بالفعل ، و نحن بانتظار تحليل **DNA** لتأكيد الهوية ..

وضع السيد باتريك رأسه بين يديه ثم تنهد تنهيدة عميقة و الدموع تفرّ هاربةً من مقلتيه ..

○ باتريك : يا إلهي .. حبيبتي إيميليا ..

● فرانك : آسف لخسارتك الكبيرة سيد باتريك .. لكن غياب ابنتك لأشهر يفترض مثل هكذا سيناريو ..

○ باتريك غاصاً بدموعه : صحيح .. كنت شبه متيقن أنها توفيت بالفعل .. لكنني تشبثت بأهداب الأمل حتى هذه اللحظة ..

● فرانك : ابنتك لم تتوفّ سيد باتريك بل قتلت ..

رفع باتريك رأسه بذهول ..

○ باتريك : قتلت ؟!

● فرانك : أجل هذا ما أثبتته الطبيب الشرعي ، فهل تشته بأحد معين ؟ ..

بدا الضياع جلياً على محيا الأب ..

○ باتريك : لا أبداً .. فالجميع يحبها و لا أعداء لها .. فإيميليا كانت تعاني من

محدودية في إمكانياتها العقلية جعلت قلبها أبيض كقلب طفل لا يعرف
الحقد أو الحسد أو أي مشاعر سلبية أخرى ..

● فرانك : و هل كانت ابنتك متزوجة ؟ ..

○ باتريك مرتبكاً : أبداً ..

● فرانك : لكن الطبيب الشرعي أكد أنها ولدت طفلاً من قبل ..

ارتبك الأب أكثر بعد هذه الجملة و أخذ ينظر في السقف محاولاً تجنب
نظرات المحقق الصارمة ..

● فرانك : ما الذي تخفيه عنا سيد باتريك ؟ تكلم و لا تخف ، فسكوتك
يجعلك مشتبهاً به أو على الأقل متعاوناً على الجريمة ..

○ باتريك : في الحقيقة أقامت ابنتي إيميليا علاقة غير شرعية مع شاب
افريقي يدعى ويل منذ حوالي العام و حملت نتيجتها ، لكنها أجهضت في
الشهر السابع من الحمل طفلاً ميتاً ..

● فرانك : و بعد ؟

○ باتريك : لا شيء آخر سوى اختفائها بعد الإجهاض بفترة قصيرة ..

صمت فرانك للحظات يمضغ المعلومات في دماغه و قد بدأ الشك يساوره
حول ضلوع عائلتها في قتلها على خلفية بيئة محافظة ربما .. ثم حان
الوقت لإلقاء سؤاله الأخير و الأهم ..

● فرانك : هل تملك في منزلك بندقية صيد سيد باتريك ؟

جحظت عينا باتريك بدهشة و سال العرق غزيراً على وجهه على نحوٍ
فاضح لم يخف عن فرانك ..

○ باتريك : أجل، أملك واحدة ، فأنا و ابني **جوناثان** نهوى صيد البط
قرب البحيرة وسط الغابات المحيطة بالبلدة ..

نظر فرانك إلى مساعده نوح نظرة بألف معنى فأوماً نوح برأسه و قد علم أن سيده وضع يده على المجرم ، إما الأب أو الابن أو كلاهما ..

● فرانك : تعازي الحارة مجدداً سيد باتريك لخسارتك الكبيرة ، لكنك ستبقى في ضيافتنا حتى ننتهي من التحقيق الأولي و استجواب ابنك جوناثان بدوره .. بالمناسبة أين يعمل ابنك ؟

○ باتريك : يعمل محاسباً في ماركت (قمر الليل) على بعد 500 متر من منزلي ، لكنك ستجده على الأرجح في المنزل اليوم فهو عطلته ..

التفت فرانك إلى مساعده نوح ..

● فرانك : ابحث عن جوناثان يا نوح و أحضره إلى هنا ، استخرج كذلك أمراً بتفتيش المنزل و ابحث جيداً في كل مكان .. استعمل اللومينول أيضاً لتحري آثار الدم خاصة في الحمام و أحضر بندقية الصيد و الطلقات معك ..

○ باتريك مرتاعاً : و لماذا هذه الإجراءات سيدي ، هل تشك بي ؟

● فرانك : في الحقيقة الشكوك في البدء كانت موجهة للشاب ويل صديق ابنتك الراحلة ، لكن موضوع بندقية الصيد يعيد توجيه أصابع الاتهام إليك و إلى ابنك جوناثان .. سنرى على كل حال كيف ستؤول التحقيقات و نتحدث بإسهاب و دقة أكثر بعدها ..

انصرف المساعد نوح لاستخراج أمر التفتيش في حين بقي باتريك في الحجز على ذمة التحقيق و خليط من الحزن و الألم و الجزع يعتريه من أخمص قدميه إلى قمة رأسه ..

بلدة أولستر ..

منزل السيد باتريك ..

الساعة 2 ظهراً ..

تم إلقاء القبض على جوناثان في منزله وسط حالة من الدهشة و الفزع المفرط ألتمت به ، في حين انتشر أفراد البحث الجنائي في أرجاء المنزل يقومون بتفتيشه بحرص و دقة و عثروا بالفعل في غرفة باتريك على بندقية الصيد و عدة عبوات لطلقات .. بعد استخدام سائل اللومينول الذي يظهر بقع الدماء المخفية و الممسوحة في مختلف أرجاء المنزل كانت المفاجأة ، إذ وجدوا بقع عديدة في غرفة الجلوس و أخرى في حمام المنزل خاصة في حوض الاستحمام مع آثار توشي بسحب الضحية من غرفة الجلوس إلى الحمام .. مما يؤكد أن الضحية إيميليا قتلت هنا في هذا المنزل أولاً ثم نقلت إلى الكهف في جبال روكي لاحقاً ..

تم إعداد تقرير مفصل عن عملية البحث و أرفق ببندقية الصيد و الطلقات التي تبين في المعمل الجنائي أنها مطابقة تماماً لآثار الطلقات في عظم الفخذ مما رسم صورة واضحة للجريمة و تبقى معرفة الجاني ..

أشرف المحقق فرانك شخصياً على استجواب جوناثان الذي حاول أن يبدو طبيعياً و هادئاً في البداية فأنكر أي علاقة له بالجريمة و تحدث عن حبه الكبير لأخته و صدمته لخبر مقتلها ، لكن أين سيهرب من حنكة المحقق فرانك في استجواب المتهمين ، فخليط محكم من الضغط الشديد و التهديد مع الأدلة الدامغة كلها جعل جوناثان ينهار تماماً و اعترف بقيامه بقتل أخته إيميليا إثر نوبة غضب شديد أعمت بصره و بصيرته ، فأخذ يروي سيناريو الجريمة كما وقعت بالضبط :

((في أحد الأيام منذ سبعة أشهر كان جوناثان يجهز بندقيته للخروج إلى الصيد في غياب والده باتريك عندما اندلع جدال عنيف بينه و بين أخته الضحية إيميليا .. كان جوناثان محتقناً مسبقاً من أخته بسبب عاهتها في رجلها اليمنى و محدودية إمكانياتها العقلية التي جعلتها عبئاً على

عائلتها من جهة و بسبب علاقتها غير الشرعية و حملها من المدعو ويل الأسمر البشرية على خلفية بيئتهم المحافظة و المتشددة و العنصرية من جهة ثانية ، و من كلمة إلى أخرى أعمى الغضب بصيرته و أطلق عليها من بندقية الصيد عدة طلقات فسقطت جثة هامة ، ارتاع جوناثان و لم يعرف كيف يتصرف فسحب جثة أخته إلى حوض الاستحمام ونظفها من آثار الدم كما أنه قام بتنظيف بقع الدم في كل مكان جيداً ثم لف الجثة بسجادة و وضعها في صندوق السيارة في المرآب .. نقلها بعدها إلى الكهف و رماها هناك ثم انتظر لفترة من الزمن و عاد إلى منزله مدعياً أنه كان في الصيد ، بعد مضيّ يوم على غياب إيميليا قدم والدها باتريك شكوى غياب و لم تسفر تحريات الشرطة عن أي شيء مهم فحولت القضية بعد عدة أشهر إلى قضية باردة ..))

تم اعتقال جوناثان و تقديمه للعدالة بعد أن أثبت تحليل **DNA** أن العظام تعود بالفعل لأخته إيميليا ، في حين أخلي سراح الوالد باتريك بعد إثبات براءته ليعيش بقية حياته في ألم ممزق بين مطرقة مقتل ابنته على يد ابنه من جهة و سندان سجن ابنه الوحيد لسنوات طويلة ..

جلس المحقق فرانك و مساعده نوح في مكتب المحقق الخاص يتناقشان حول قضية الشابة إيميليا و عظمتيها اللتين قادتتهما إلى حل لغز اختفائها وليد الصدفة بينما كانا يتحريان حول قضية أخرى ..

○ نوح : هذه ربما أسرع قضية نحلها رغم الأدلة الشحيحة فيها !!..

● فرانك : الفضل في كل هذا يعود لحنكة الطبيب بنجامين و أدائه المذهل في وضع صورة دقيقة للضحية و ملابسات الجريمة من خلال عظمتين لا أكثر عُثر عليهما مصادفةً و لولاه لبقى اختفاء إيميليا سرّاً غامضاً بلا حل .. و لئلاذ أخوها المجرم الحاقد بفعلته دون عقاب .. و أضيفت هذه القضية إلى القضايا الخمسة التي تحولت إلى قضايا باردة خلال السنوات الثلاث الماضية منذ التحاقني بالعمل هنا ، بسبب الافتقار للأدلة الكافية لإدانة أي مشتبه به ..

○ نوح : أظنها كانت أربع قضايا ..

● فرانك : نضيف إليها قضية مقتل المليونير جيمس ماك آرثر ، فهي حتى الآن بدون حل إن لم نتأكد من إثبات هوية الجثة المتفحمة الغارقة في يخته ..

○ نوح : إنَّ العمل مع الطبيب بنجامين يجعلك تشعر و كأنك تقرأ فصلاً من إحدى روايات أيقونة أدب الجريمة و التحقيق آرثر كونان دويل..

● فرانك : هذا صحيح .. بل إن مهارات الطبيب بنجامين تتفوق على مهارات المحقق شارلوك هولمز في تلك الروايات ..

○ نوح : إنه أطلس العدالة بحق ..

● فرانك : بالفعل !! .. و يرفع سماءها فوق كتفيه عالياً فوق الجميع ..

علم قصير ، أرفيبي

وأساطير

الولايات المتحدة الأمريكية ..

كاليفورنيا / لوس أنجلوس ..

2049 م .. الساعة 6 صباحاً ..

رنّ جرس المنبه كصافرة قطار تشقّ سكون الصباح، معلناً تمام الساعة السادسة. تسلّل الصوت كخنجر إلى صمت الغرفة، ففتح الشاب عينيه بتثاقل، بينما كان النعاس يمدّ له ذراعيه برقّة، يحاول جذبه من حافة الصحو إلى ملكون النوم من جديد. لكنه قاوم، كمن ينجو من تيار خفيّ، وجلس ببطء على حافة السرير.

رفع رأسه، ثم هزّه بعنف كما لو كان يطرد عنه بقايا رؤيا تسلّلت إلى عقله آخر لحظة، وأحدثت فيه اضطراباً غامضاً. كان حلمًا ذا طابع غريب، مُعلّقًا بين الواقع والخيال، بين الكابوس والحقيقة. لا يزال طيفه ماثلاً أمامه كوميض برق، حيث رأى نفسه تائهاً في كهفٍ عميق، مظلم، تغمره المياه حتى الصدر، ولا منفذ فيه للضوء أو الخلاص. عشرات الأصوات الغامضة كانت تتعالى من أعماق الأرض، تناديه بأسماء مبهمّة ، تصرخ ولا تفهم، كأنها ترانيم من عالم منسي.

جلس بلا حراك، يراقب الضوء الخافت المتسلل من خلف الستائر، يتنفس ببطء حتى خمد اضطرابه. مدّ يده إلى هاتفه الموضوع بجانب السرير، أعاد تشغيله، وباشّر تقليب الرسائل. بعضها من زملاء العمل، و أخرى من أرقام مجهولة، حتى توقف عند واحدة بعينها... الرسالة اليومية التي اعتاد أن تصله كل فجرٍ من صديقه الحسناء سيلينا، تلك التي تعيش ليلاً كما لو أنه امتداد لحفل أرسقراطي لا ينتهي، ثم تودعه عند الفجر برسالة خفيفة كنسمة : (صباح الخير، عزيزي ☺) .. قبل أن ينتهي يومها قبل أن يبدأ و تسترسل بنومها ..

ابتسم، شعّ وجهه بدفء مفاجئ، واستشعر وهج الحياة يتسرّب إلى

أوصاله. بدت له كلماتها كأنها خرزة زرقاء تطرد عنه كابوسه.

استقام في وقفته. بدأ روتينه الصباحي ببعض تمارين الإحماء، حافي القدمين على أرضية خشبية تشبه خشبة مسرح، ثم صعد إلى جهاز المشي، وانطلق يركض بنصف جسده العاري، متناسق العضلات، مشدود الخصر، كأن الزمن صقله بدقة نحات. عرقه انعكس في مرآة الصالة كنجوم تتلألأ على سطح جلده البرونزي، وجسده بدا للحظة كتمثال إغريقي يعانق الزمن.

كان وجهه، بلامحه الحادة و شعره البنيّ المجعد، يذكّر بآلهة قديمة خرجت من جدارية يونانية، تائهة بين الماضي واللحظة.

بعد أن خفّت أنفاسه، توجه إلى الحمام، وترك الماء يغمره بدفقة باردة كأنها غسلٌ روحيّ لما تبقى من أثر الحلم. دقائق قليلة وكان يخرج منتعشاً كمن استيقظ من حياة قديمة.

نزل إلى الطابق الأرضي، خطواته هادئة لكنها واثقة، واتجه إلى المطبخ حيث كان الشيف الإيطالي فرانچيسكو قد أعدّ له فطوراً فخماً كالمعتاد: كرواسون طازج، بيض بجبن الموزاريلا، عصير برتقال طبيعي، وقهوة إسبرسو تعبق رائحتها في الأرجاء كأنها صلاة الصباح.

كل شيء معدّ بدقة، كأن يومه لوحة يُعاد رسمها كل فجر، ولا مكان فيه للصدف.

على تمام الساعة السابعة ، وبينما كانت الشمس قد ارتفعت لتداعب أطراف السماء بلونها الذهبي المخملي، خرج ديونيسوس إلى حديقة قصره الفسيحة التي تمتد كواحة مترفة تحيط بفيّلاته المعمارية ذات الطراز النيوكلاسيكي، كأنها قطعة منفلة من حلمٍ أثيني. اختار كعادته الجلوس تحت شجرة الصفصاف القديمة، تلك التي تنساب فروعها كالضفائر الفضية فوق الماء، متخذةً لها مكاناً بجانب المسبح الرخامي المصمم على هيئة هلال، حيث تنعكس صفحة السماء على سطحه في تناغم كوني أخذ.

جلس بهدوء على كرسيه الخشبي الفخم، المبطن بالمخمل الأزرق الملكي، حاملاً فنجان قهوته الصباحية المحضرة خصيصاً من أجود حبوب البن البرازيلي. كانت طقوس صباحه مقدسة، تبدأ بفنجان القهوة، وتنتهي بمروره المدقق على أخبار العالم التي يتابعها عبر هاتفه الذكي، بحركات دقيقة تُشبه من يفتش في كتاب أسرار كونية.

صفحات البورصة، تقارير الأسهم، معدلات التضخم، وأخبار الاندماجات العالمية – كلها كانت بمثابة مفاتيح أخرى لأبواب الإمبراطورية المالية التي شيدها بعقله وجرأته. لكن وسط كل هذا الزحام من الأرقام الجافة، لفت انتباهه خبر مختلف، كحجر كريم غريب وقع بين يديه من مجرة أخرى.

كان الخبر يعلن عن محاضرة نادرة يُلقِيها بروفيسور باريسى مختص في الميثولوجيا القديمة، سيطرح فيها رؤيته المثيرة حول العلاقة بين الأساطير الإغريقية والديانات السماوية والعلوم الكونية الحديثة، وذلك في جامعة السوربون العريقة بعد أسبوع.

شدّه العنوان كما تشدّ الأسماء السحرية سادة الطقوس القديمة. لم يكن السبب اهتماماً سابقاً بهذا المجال، بل لأن جذوره نفسها ارتعشت أمام هذا العنوان. فهو **ديونيسوس غالانيس**، الملياردير الأمريكي ذائع الصيت، أحد أعمدة عالم المال، لكنه ابن مهاجرين يونانيين من جزر كيكلاديس. رغم أنه نشأ وترعرع في نيويورك، متشبعاً بثقافة الغرب الحديثة، بقيت تلك الهوية الإغريقية خامدة في أعماقه، كجمرة تحت الرماد تنتظر نسمة لتتوهج.

لم يكن يعرف شيئاً يذكر عن تاريخ الإغريق، ولا عن الآلهة التي حمل اسم أحدهم مصادفة، ولا عن الملحمة التي كانت تجري في دمه جيلاً بعد جيل. لذا بدت هذه المحاضرة بالنسبة له أكثر من مجرد فعالية ثقافية، كانت كأنها دعوة خفية من سلالة غابرة، تطرق بؤابة روحه الغافية لتستيقظ على هوية كان يجهل أنه يشترك إليها.

وبينما كان غارقاً في هذه الشرارة الذهنية الجديدة التي أضفت على صباحه بعداً غير متوقَّعاً، قُطِعَ سكون اللحظة بظهور هيكتور رايت، مساعده ومدير أعماله المخلص. كان يتقدّم بخطوات واثقة عبر درجات الحديقة الحجرية، يحمل في عينيه تلك اللمعة التي مزجت الخبرة بالتفاني، و بسحنته الأفريقية المتوّجة بشعرٍ رماديّ كالثلج، وبابتسامته الهادئة التي لم تغادره منذ عقود، اقترب من سيّده حاملاً في جعبته جدول الأعمال، غير مدرك أن العالم الداخلي لسيده قد بدأ لتوّه بالتغيّر في صمت.

○ هيكتور : صباح الخير سيد ديونيسوس .. أرجو أن تكون قد نمت جيداً ؟

● ديونيسوس : صباح النور هيكتور .. أجل نوم عميق و هادئ عكره في اللحظات الأخيرة كابوس غريب و قصير أتذكره كطيف بعيد أقلقني للحظات بعد الاستيقاظ قبل أن أستعيد صلاتي بالواقع الحيّ ..

جذب هيكتور إحدى الكراسي و جلس معقّباً على حديث سيده ..

○ هيكتور : لا تكثرث له سيد ديونيسوس .. فغالبية الأحلام هي عبارة عن انعكاس لحوادث جرت معنا أو أفكار جالت في خاطرنا أو معلومات سمعنا عنها من قبل ..

● ديونيسوس : وجهة نظر تستحق الاهتمام !

○ هيكتور : هذه ليست وجهة نظري بل كلام أحد أشهر فلاسفة التاريخ ، ابن بلدك الفيلسوف اليوناني الشهير أرسطو :

((إن الأحلام ليست رسائل روحية ترد علينا من

العالم الآخر، ولا يجوز ردها إلى مصادر خارقة

للطبيعة، وإنما الأحلام عبارة من نشاط نفسي يصدر

عن النائم بحسب الظروف التي يكون عليها نومه))

ابتسم ديونيسوس بإعجاب ..

● ديونيسوس : إن ثقافتك الواسعة يا هيكتور لا تنفك تدهشني لدرجة أخالك تعرف كل شيء !

○ هيكتور بتواضع : لقد كان والدي رحمه الله يملك مكتبةً واسعةً .. و بينما انشغل إخوتي باللهو في الخارج مع أقرانهم ، قضيت فيها طفولتي كلها أنتقل بين عوالم الكتب كمغامر يزور البلدان المختلفة و يلتقي بالمشاهير في مختلف المجالات فينهل من حكمتهم و تجاربهم ليكتشف بذلك العالم و أسرار ه ..

● ديونيسوس : أوقات رائعة و لا شك أغبطك عليها و على الرجل الذي صنعته منك كموسوعة بشرية متنقلة .. لكنني في الحقيقة أخالف جدي أرسطو في مقولته هذه .. إذ أؤمن أن كثيراً من الأحلام هي إشارات من السماء تدلنا على خير قادم أو تنجينا من شر محتمل ، لذا علينا إعارتها مزيداً من الانتباه لاقتناص ذلك الخير أو التملص من ذاك الشر .. خاصةً تلك الأحلام التي نتذكرها بحذافيرها بعد استيقاظنا ..

صمت للحظات ثم غيّر فحوى الحديث كلياً إلى تردد موجة العمل ..

● ديونيسوس : و هل من أخبار جديدة على الصعيد المهني مع هذا الصباح الرائع ؟

○ هيكتور : الأخبار ممتازة على جميع الصعد و الأرباح تتضاعف بثبات بين لحظة و أخرى فعقرب الثواني يحصد المال مع كل تكة جديدة

● ديونيسوس مبتسماً بنشوة : إنها دعوات والدي يا هكتور ..

○ هيكتور : لا أشك بذلك .. رحمة الله عليهما .. فقد كانا إنسانين تقيين بلا ريب .. لكن عليك ألا تبخس نفسك حقها فأنت رجل أعمال متمرس و خبير و مجتهد صنعت مملكتك من لا شيء .. إذ لم ترث من والديك مليماً واحداً بعد فاجعة خسارتهما على نحو مباغت بفيروس تونكا اللئيم الذي تفشى في البلاد منذ 10 سنوات ..

● ديونيسوس : تشبيهه بليق بذلك الفيروس .. لقد كان لئيماً بحق فسرعة فتكه بالناس حطمت المقاييس المعهودة ، و زاد الطين بلّة عجز العلماء عن اكتشاف علاج ناجع له إضافةً إلى لقاحاته غير الفعالة بحكم تحوره الجيني الدائم

○ هيكتور : الحمد لله أن الحكومة تمكنت بمعجزة من السيطرة عليه و احتواء انتشاره في الوقت المناسب ..

ساد صمت كئيب بعد تلك الجملة معجون بذكريات أعادت ديونيسوس إلى أيام والديه الراحلين بألم و حزن تفشياً على محياه فقام هيكتور بتغيير الموضوع على الفور ..

○ هيكتور : جدول أعمال اليوم حافل كالعادة سيد ديونيسوس .. و أول المواعيد بعد ساعة من الآن بخصوص أرخبيلك الجديد ..

● ديونيسوس : ممتاز لننهي هذه الصفقة أخيراً.. بمناسبة الحديث عن المواعيد و قبل أن أنسى ، أريد منك يا هيكتور أن تحجز لنا تذاكر سفر لكلينا إلى باريس في مطلع الأسبوع المقبل مع تأمين دعوتين لنا إلى محاضرة البروفيسور جاك فورنييه في جامعة السوربون أعرق جامعات أوروبا و القابعة بشموخ في الحي اللاتيني لباريس..

○ هيكتور : غريب ! لم أعلم أن لديك ميولاً لارتياذ المحاضرات من قبل .. هل هي محاضرة بخصوص العمل و الاقتصاد ؟

● ديونيسوس : لا .. إنها محاضرة حول الميثولوجيا الإغريقية .. و يمكنك الاستنتاج بسهولة أنها تخص أصولي اليونانية التي أرغب بجمع معلومات أكثر عنها ، إذ ينقصني الكثير في هذا الصدد .. لا سيما أنها ستقارب علاقتها بالأديان السماوية و العلوم الكونية في خليط سحري كما أرى ..

○ هيكتور : بالطبع ، تبدو محاضرة شيقة و غريبة ..

● ديونيسوس : يسرني أنها تجذب اهتمامك كحالي .. لا شك أننا سنقضي

وقتاً رائعاً في باريس المذهلة ..

○ هيكتور : و متى أحدد تاريخ الحجز ؟

● ديونيسوس : المحاضرة في السابع من شهر شباط القادم لذا احجز لنا في الخامس من ذاك الشهر ..

○ هيكتور : اعتبر الحجز منجزاً سيد ديونيسوس ..

تمعن ديونيسوس في ساعته ثم أردف ..

● ديونيسوس : لا يزال أمامنا خمسون دقيقة قبل أولى المواعيد ، لنغتنمها بشيء مفيد يا هيكتور .. في الحقيقة و بعد قراءتي لذلك الخبر الشيق تتملكني رغبة جارفة بالاطلاع قليلاً على الميثولوجيا الإغريقية فذلك بكل تأكيد سيساعدني على امتصاص أكبر قدر من الفائدة و المعلومات من محاضرة البروفيسور جاك .. ما رأيك ؟ ..

○ هيكتور : يبدو ذلك منطقياً ..

● ديونيسوس : و هل ترغب بمشاركتي المعلومات معك ، فذلك سيساعدك بدورك أيضاً على ما اعتقد ..؟

○ هيكتور : هذا لطف بالغ من حضرتك ..

● ديونيسوس : لنرى ..

أخذ ديونيسوس يقلب صفحات هاتفه مستغرقاً باستمتاع بقراءة الكثير من المعلومات عن الأساطير الإغريقية الغنية بالآلهة و الأحداث ثم لخصها في دماغه بترتيب سهل على الاستيعاب و أعطى الخلاصة لهيكتور المنصت بروح المثقف التواق للمعرفة القابعة في داخله ..

● ديونيسوس : الأساطير الإغريقية تتحدث عن 4 مستويات للآلهة ، و ركّز معي جيداً يا هيكتور فهذه الميثولوجيا غزيرة للغاية بالآلهة ..

○ هيكتور : كلي آذان صاغية ..

● ديونيسوس : تنقسم الآلهة الإغريقية كتبسيط إلى أربعة مستويات أساسية و هي الآلهة الأوائل و هذه أعطت الآلهة الجبابرة (التايتان) ، ثم أعطى هؤلاء بدورهم آلهة الأوليمب ، ليأتي أخيراً منهم أبناء آلهة الأوليمب و مخلوقتهم الأسطورية ..

استمر ديونيسوس بالشرح بإسهاب عن آلهة الإغريق و أساطيرهم لمدة نصف ساعة و هيكتور يصغي إليه بتركيز و إعجاب حتى انتهى من تلخيصه الممتع و المتقن ..

● ديونيسوس : ميثولوجيا مذهلة ، أليس كذلك يا هيكتور ؟

○ هيكتور : لأبعد الحدود ، إن الأساطير الإغريقية بتنوعها الكبير و تعدد آلهتها الفريد أشبه بمتاهة حقيقية .. كنت على علم ببعض شخصياتها فقط من قبل و هم الأشهر على ما يبدو : زيوس الغاضب بصواعقه الشهيرة ،

بوسيدون سيد البحار ، أثينا منبع الحكمة و التي سميت عاصمة بلدك

اليونان باسمها تكريماً لها بعد أن أهدت البشر شجر الزيتون، أفروديت ربة الجمال و الحب و أخيراً هيركليس الشاب خارق القوة بمغامراته المثيرة.. أما الآن فقد اكتملت الصورة في ذهني تماماً بتعرفي على البقية ..

● ديونيسوس : و لا أختلف عن حالتك كثيراً يا هيكتور ، فقد كانت اليونان في نظري من قبل مقتصرة على الفلاسفة سقراط و أفلاطون و أرسطو فحسب ، أما الآن فقد تشعبت معرفتي بإرثها التاريخي و الثقافي على نحو أعمق يشعرني بفخر عارم تجاه أصولي الإغريقية و يجعلني متشوقاً للغاية لمحاضرة البروفيسور جاك التي ستحدث بإسهاب أكثر عن هذه الآلهة و المخلوقات الأسطورية إضافةً إلى ربطها بالأديان السماوية و العلوم الكونية بطريقة تبدو لغزاً محيراً بالنسبة لي ..

○ هيكتور : أنت محق سيد ديونيسوس.. فالربط بينها يعتبر بالفعل تحدياً كبيراً ..

عاد الصمت ليلف المكان بعد الجملة الأخيرة ، في حين عاود ديونيسوس

النظر إلى ساعته ..

● ديونيسوس : بعد رحلتنا الممتعة إلى الوراق لآلاف السنين ، لنعد إلى عالمنا الحالي و واقعنا يا هيكتور .. لدينا أعمال هامة اليوم كما تعرف فهل سيارتي جاهزة .. ؟

○ هيكتور : بالطبع سيارتك جميعها على أتم الجهوزية سيد ديونيسوس

● ديونيسوس : عظيم .. أخبر إذاً السائق بيتر أن يستعد بسيارة الأودي الرصاصية .. لنبدأ بأول المواعيد و ننهي صفقة أرخبيل جزر سانت بيتر و سانت باول ..

أجرى هيكتور مكالمة هاتفية سريعة مع بيتر .. ثم عاد إل حوارهِ مع سيده لملء آخر ثلث ساعة قبل الانطلاق إلى موعد صفقة الأرخبيل ..

○ هيكتور : و أين يقع ذلك الأرخبيل سيد ديونيسوس ؟

● ديونيسوس : الأرخبيل مؤلف من **15** جزيرة وسط المحيط الأطلسي .. فبعد نزوح سكانه البالغ عددهم أربعة أشخاص فقط عرضته دولة البرازيل للبيع لعدم استفادتها منه و قد توصلنا إلى سعر باهظ بالنسبة لها لكنه مناسب تماماً لي بحدود **100** مليون دولار ، و هذا ليس بكثير على حلمي الجديد .. أنا على بعد ساعة من امتلاك جزري الخاصة هيكتور .. لدي الآن أكثر من **30** منزلاً فخماً حول العالم ، **10** سيارات ، **5** يخوت ، **3** طائرات خاصة و ما ينقصني بالفعل هو هذا الأرخبيل و بذلك أختتم الحياة .. فكل شيء يبدو الآن جميلاً ، مكتملاً و يشعُرني بأنني أحكم العالم من شرقه إلى غربه ..

نظر هيكتور إليه نظرة خافتة المعالم، لكنها محمّلة بما لا يُقال، نظرةً مواربة تخبيّ خلف ابتسامتها المنضبطة عتَابًا حزينًا، امتزج فيه الألم بالرجاء، والحب بالخوف. كان ديونيسوس بالنسبة له أكثر من رجل أعمال ناجح أو ملياردير يسطع اسمه في قوائم الأثرياء؛ كان بالنسبة له ولداً لم

يُرزق به قط، روحًا رعاه بعين الرضا منذ بداياته، لكنه اليوم يرى في عينيه شرارةً مختلفةً ، شرارة امتلاكٍ مسعور، وشهوة تكديس لا تشبع، وكأن المال غايةٌ في ذاته، لا وسيلة تُهْدَبُ الروح أو ترتقي بها.

كان هيكتور يخشى عليه من هذا الجنون الهادئ الذي يُغلفه البريق الزائف للثروة، من هذا الضجيج الصامت في قلب رجل بات يظن أن الحياة تُقاس بالأرصدة لا بالأثر. كان يخشى أن تُبتلع روحه في طاحونة الجشع التي لا تتوقف، وهو الذي ما فتئ يذكر قول يوهان غوته القديم :

(يتوهم الطحان أن القمح إنما ينمو لتشغيل طاحونته

فحسب)

هكذا بدا له ديونيسوس الآن، طحّانًا عصريًا، يظن أن المال الذي جناه، بكل ما فيه من قدرة وتحكم، إنما وُجد ليخدم رفاهيته وحده، ليشترى به أحلامه، لا ليضمّد به كوابيس الآخرين.

كم تمنى لو استطاع أن يصارحه، أن يهزّه بكلمةٍ تهدي قلبه نحو نور آخر، لكنّ طبيعة العلاقة بينهما — تلك الرسمية المحكمة التي فرضتها السنوات والحدود — كانت دائمًا جدارًا صامتًا يمنع تدفق الوجد. كان قلبه يريد أن يهمس له :

(يا ديونيسوس، لا تضيّع نفسك في أرقامٍ تتبخر مع الزمن. انظر حولك، هناك بشر يتنفسون الألم ولا يجدون سقفاً أو سندًا، والمال حين لا يُلامس إنسانًا آخر، يبقى جمادًا خاليًا من النبض ..)

لكن هيكتور، رغم امتلائه بتلك العاصفة من المشاعر، لم يقل شيئًا. فقط أجابه باحترام، بكلمات صيغت بعناية كقناعٍ أخير يخفي رجفة قلبٍ خائف، لا من ديونيسوس، بل من مصيره القادم إن استمر يسير في هذا الاتجاه دون أن يلتفت إلى الوراء، أو إلى الأعلى.

○ هيكتور : مبارك لك تحفّتك الجديدة سيد ديونيسوس .. و هل لديك

خطط معينة لاستثمار الجزيرة ؟

● ديونيسوس : ليس بعد .. لكن شعوراً طاعياً يجتاحني بخصوصها و يدفعني بشوق إلى امتلاكها .. لا أستطيع تفسير شعوري هذا في الوقت الراهن يا هيكتور فهي مجرد جزر صخرية و أجهل حتى اللحظة أي طريقة سأستثمرها بها !

○ هيكتور : لا أشك بحكمتك أبداً سيد ديونيسوس ، ستستغلها على النحو الأمثل بكل تأكيد ..

● ديونيسوس : أشكرك هيكتور ، و ذلك طبعاً بمشورتك التي لا غنى لي عنها فأنت ربان سفينتي الشخصية و المهنية على حد سواء و لطالما جنبنتني كثيراً من العواصف بحرفيتك و خبرتك في مواجهة أعتى الظروف .. سأرتدي ملابسني على الفور و أوافيك في المرآب فقد اقترب أول المواعيد ..

نفاية نجاة ..

وكتبة أسطورة ..

الولايات المتحدة الأمريكية ..

نيويورك ..

المشفى مجدداً ..

انتهى الطبيب بنجامين من تشريح جثة رجل نُقل إلى المشرحة في ساعة متأخرة من ليل الأمس، وقد لفّ الغموض أسباب وفاته المباغته. وما إن أمعن النظر في تجاويف الجسد المنطفي تحت سكينه، حتى تكشّفت له الحقائق، كأن شفرة مشرطه لا تفتح الجلد فحسب، بل تكشف الستائر عن أسرار الحياة والموت.

كانت يده ثابتة، لا ترجف، وعيناه تتابعان بصبر نادر كل تفصيلة مخبأة بين الأنسجة والعروق. وبعد فحص دقيق لأعضاء الصدر، اتسعت حدقتاه قليلاً، كأن الحقيقة ظهرت له فجأة كوميض برق في ليلة مظلمة.

كتب في ملاحظاته بخط صارم :

(وفاة طبيعية ناجمة عن صمّة رئوية سرّجيّة ضخمة، أدّت إلى انسداد كامل في الشريان الرئوي الرئيسي)

كان ذلك النوع من الجلطات الصدرية الحادة كمن يضع صخرة على قلب الجبل، لا تترك فرصة للنجاة، حتى لو كانت الحياة لا تزال تنتشب بخيط واهٍ.

نزع كمامته الطبية بحركة بطيئة كمن يودّع معركة، ثم خلع قفازيه الواحد تلو الآخر، وقد طُبع عليهما أثر دمٍ باهت كأنّه تذكير بأن الحياة، رغم أناقتها، لا تخلو من لمسة فناء. غسل يديه وساعديه بالماء البارد الذي أعاد إليه شيئاً من صمته المعتاد، ثم عبر الممر القصير إلى مكتبه الملاصق

لغرفة التشريح، وهو يحمل عقله المثلث بالتفاصيل كما يحمل الكاهن صلاته الأخيرة.

جلس إلى مكتبه الذي غمره ضوء أصفر خافت كأنه خارج الزمن، وأدار قلمه فوق الورق بثقل العلماء، لا الأطباء فقط. كل كلمة في تقريره كانت كأنها حجر يُرصّ في ضريح الحقيقة، لا يقبل التزييف ولا المجاملة.

وبينما كان يغوص في سطور التقرير الأخير، خاشعاً لمهابته، دوى في الفضاء صوتٌ خافت... ثلاث طرقات خفيفة على باب المكتب، كأن أحدهم يطلب إذنًا للدخول إلى عالم لا يُدخله سوى الصمت والموت.

رفع رأسه بهدوء، وجفلت عينه إلى الباب...

● بنجامين : تفضّل ..

لم يكن سوى مساعده أرون و هو يحمل بين يديه أحد الملفات ..

○ أرون : تحياتي حضرة الطبيب ، وصلتنا للتو سجلات الأسنان الخاصة بالمليونير جيمس ماك أرثر مع رسالة مرفقة من المحقق فرانك ..

● بنجامين بلهفة : ناولني إياها على الفور ..

كان الملف بلون أسود لماع و مرفق معه ورقة بيضاء قرأها الطبيب مباشرةً :

)) حضرة الطبيب أطلّس العدالة المحنك المحترم ، هذه

السجلات التي طلبتها ، زودني بتقرير مفصل عن تطابقها

مع أسنان الجثة المتفحمة و لك جزيل الشكر))

سارع الطبيب بنجامين بإنهاء كتابة تقريره الخاص بمريض الصمة

الرئوية على عجالة ثم أخرج السجلات الخاصة بالمليونير من الملف متضمنةً صوراً شعاعيةً بانورامية لأسنانه .. قارنها مع تقريره الخاص بأسنان الجثة المتفحمة الذي أعده مسبقاً و كانت النتيجة عدم التطابق بشكل قطعي ، مما يؤكد أن المليونير جيمس لا يزال حياً حتى الآن و أنه زيف موته بحادثة انفجار اليخت و غرقه ، فتناول هاتفه على الفور و اتصل مباشرة بالمحقق فرانك ليخبره بالنتيجة التي كان ينتظرها كأسد جائع متربص بفريسته ..

○ فرانك : هذه نتيجة صادمة حضرة الطبيب ستفتح التحقيق بشأن وفاة المليونير على مصراعيه .. يا له من مخادع محتال .. لولا عزيمتك على كشف هوية الجثة لاكتفينا بشهادة من تواجد يوم الحادث و أقفلنا القضية على موت المليونير ..

● بنجامين : بالفعل مخادع من العيار الثقيل، ذكرني بقوة بأسطورة سيزيف الإغريقية ..

○ فرانك : سيزيف ؟!

● بنجامين : أجل سيزيف ملك التزييف ..

○ فرانك ضاحكاً : اسم فني يوحى بأسطورة مثيرة .. حدثني عنها قليلاً حضرة الطبيب ..

● بنجامين بتفاؤل واضح في نبرته : تتمحور الأسطورة حول شخص سيزيف الإغريقي الذي امتهن التجارة والإبحار كما امتلك نزلاً خاصاً به، لكنه كان مخادعاً وجشعاً خرق قوانين وأعراف الضيافة بأن قتل المسافرين والضيوف (النزلاء) عنده و استحوذ على ممتلكاتهم ، فصوّره هوميروس ومن تلاه من الكتّاب بأنه أمكر وأخبث البشر على وجه الأرض قاطبة وأكثرهم لؤماً ..

○ فرانك : لكن ما وجه التشابه بينه و بين المليونير جيمس ؟

● بنجامين : سأتيك بالكلام .. بحسب الأسطورة فقد أمر كبير الآلهة زيوس إله العالم السفلي هاديس أن يسلسل سيزيف بأصفاد في الجحيم بسبب خرقه لقوانين الآلهة فوكل هاديس ثانتوس بهذه المهمة .. لكن

سيزيف بمكره المعتاد طلب من ثانتوس أن يجرب الأصفاد والسلاسل على نفسه أولاً ليختبر مدى كفاءتها، وعندما فعل ثانتوس ذلك أحكم عليه سيزيف الأصفاد و فرّ بجلده من الموت ..

○ فرانك : يا له من مخادع حقيقي كحال المدعو جيمس ..

● بنجامين : انتظر حضرة المحقق ، فالقصة لم تنتهِ بعد .. أحدث تقييد ثانتوس الموكل بنقل الموتى إلى العالم السفلي تمرداً ، انقلاباً ، ثورةً وهياجاً، إذ لم يعد أحد من البشر يموت ، حتى امتعض آريس إله الحرب من ذلك بشدة بسبب فقدان المتعة من معاركه لأن خصومه فيها لا يموتون أبداً لذلك تدخل وأطلق سراح ثانتوس وأرسل سيزيف إلى الجحيم مجدداً .. و عاقبته الآلهة بإجباره على دحرجة صخرة كبيرة إلى قمة جبل على نحو متكرر ..

○ فرانك : فنال عقابه في النهاية ..

● بنجامين : هذا ما تظنه حضرة المحقق ..

○ فرانك : و هل ثمة مزيد في القصة ؟ ..

● بنجامين : بالطبع .. فقبل أن يرسل آريس سيزيف إلى الجحيم مجدداً أخبر زوجته أنه عندما يموت عليها أن تمتنع عن تقديم أضحياتها المعتادة و كأنه لم يمت أبداً ، أما هناك في العالم السفلي فقد شكّا سيزيف لبيرسفوني ملكة العالم السفلي زوجته بأنها تهجره وتهمله وتتجاهل تقديم القرابين لأجله ، فاستأذنها السماح له بالصعود للعالم العلوي ليطلب من زوجته أن تؤدي واجبها وتقدم أضاحيها ، اقتنعت برسيفوني مباشرة بكلامه المعسول و المنمق بل بأكثر من ذلك ، اقتنعت بأنه قيد إلى الجحيم بطريق الخطأ و هو بريء فأمرت بإطلاق سراحه فانسل كالزئبق من جرائمه و عقابه المستحق ليعود حياً من الموت للمرة الثالثة توالياً بعد أن خدع ثانتوس و آريس و بيرسفوني ..

○ فرانك ضاحكاً : ياه ، كم هي قصة معبرة تصف بتشابه غريب حالة ذلك المليونير المخادع جيمس تماماً ، و إن كان هنالك تناسخ للأرواح فعلاً فلا شك أن سيزيف عاد للحياة مجدداً في شخص المدعو جيمس كي يزيّف

موته بهذه الطريقة الشيطانية لينجو من العقاب .. يبدو أنك على اطلاع واسع بالميثولوجيا الإغريقية حضرة الطبيب فهذه ثاني مرة تستشهد بها بعد تشبيها بأطلس من قبل..

● بنجامين: محق حضرة المحقق، فأنا من عشاق الأساطير عموماً و الإغريقية و النوردية و الفرعونية على وجه الخصوص .. سأكتب الآن على كتابة تقرير تطابق الأسنان و أرسله إليكم في قسم الشرطة بشكل رسمي .. سيكون متوفراً أمامك غداً صباحاً..

○ فرانك : جزيل الشكر لك حضرة الطبيب أطلس العدالة ، بانتظار تقريرك بفارغ الصبر ..

أغلق المحقق فرانك الهاتف ببطء، وهو يرسم على وجهه ابتسامة واسعة، انتصرت على كل تعبيرات التوجس التي سبقتها، وتفوّقت في سطوتها على ابتسامة وينستون تشرشل ذاتها، تلك التي دوّنتها ذاكرة التاريخ عقب اندحار جحافل الحرب العالمية الثانية الكبرى. غير أن هذه الابتسامة، لم تكن موجّهة لعدو خارجي، بل لعدو من نوع آخر: الكذب، التتكر، والخداع المتقن.

استدار فرانك نحو مساعده نوح، الذي ظل يرمقه بدهشة تتصاعد كالبخار فوق قدر الحقيقة المغليّة. كانت الضحكات التي تسللت من فم المحقق قبل لحظات، أشبه بشيفرة خفيّة؛ ضحكات رجل فكّ شيفرة لعبة قديمة، وأدرك أن ما حسبه موتاً كان مجرد ستار دخان.

بخفة العالم الذي أماط الغبار عن مخطوطة ضائعة، ألقى فرانك على مسامع نوح نتيجة التقرير الطبي الشرعي التي قلبت الموازين. كان الصوت المألوف للطبيب بنجامين يحمل في نبرته تلك النغمة الخافتة التي لا تصاحب إلا اكتشافات مذهلة. فالرجل في القبر لم يكن المليونير جيمس، بل نسخة بشرية مشوّهة من سيزيف المحتال ذاك ، تلاعب بالأقدار تماماً كما تلاعب سيزيف بالصخرة، غير أن صخرته كانت جثّة، وصعوده كان إلى قمة المال لا الجبل.

وبين قهقهات متقطعة وسرد مشوّق، حكى فرانك لنوح قصة سيزيف، لا

كأسطورة يونانية بل كحقيقة أمريكية، تمشي على قدمين، وتُخفي خلف
ربطة عنق فاخرة شبكة من الأكاذيب، أُحيكت بخيوط من مخدرات و
أموال .

ثم، كما لو أن المسرحية لم تنته بعد، مدّ يده إلى الهاتف، واتصل بالرئيس
ويلتون، ليُلقي بين يديه القنبلة :

التحقيق لم يعد حول موت المليونير، بل حول اختفائه، بعد أن رتبّ مشهداً
درامياً لتزييف موته. الهدف ؟ التملّص من التبعات القانونية ، ومواصلة
إدارة إمبراطوريته المظلمة في تجارة المخدرات، من وراء ستار.

لكن ما حدث بعدها، لم يكن متوقعاً...

فبدل أن يعبر الرئيس عن حماسه لهذا الاكتشاف، خيم على صوته ظلّ
ثقيل من الانزعاج، بل وربما القلق. بدا كأن ويلتون لم يتلقَ خبراً ساراً، بل
ضربة في الصميم.

كانت كلماته شاحبة، مجهدة، تختبئ خلف ضباب من التوتر غير المبرّر.
وكان الحقيقة التي كشفها فرانك هزّت شيئاً ما داخل المؤسسة... شيئاً لا
ينبغي له أن يُمسّ.

وهنا، تبادلت أعين فرانك ونوح نظرة خاطفة. لم يقولوا شيئاً. لكن الصمت
بينهما كان أبلغ من أي تعليق.

هناك سرّ آخر خلف الستار، سرّ أكبر من سيزيف... وأخطر من مجرد
تاجر مخدرات.

وللمرة الأولى، شعر فرانك أن الشطرنج الذي يلعبه ليس مع مجرم عادي،
بل مع نظام بأكمله.

في مساء ذلك اليوم ..

بينما كان المساعد نوح يتناول طعام العشاء مع عائلته المكونة من زوجته إيليت **32** عاماً و ابنه غراهام **12** عاماً و ابنته ميشيل **9** أعوام .. تلقى اتصالاً هاتفياً من رقم غريب ..

○ الشخص المجهول : المحقق نوح ..؟

● نوح : هو شخصياً ، من يتكلم معي ؟!

○ الشخص المجهول : أعذرني على التكتم عن هويتي الآن ، لكن لدي معلومات غاية في الأهمية عن مكان تواجد المليونير جيمس ماك آرثر ، إن كانت تهمة ..

قوس نوح حاجبيه بدهشة و صمت للحظات ..

● نوح : بالطبع تهمني ، و ماهي هذه المعلومات ؟

○ الشخص المجهول : لا يمكنني الحديث على الهاتف ، لكن ربما ألقاك اليوم في حديقة سنترال بارك على تمام الساعة الثامنة مساءً قرب البحيرة المركزية و نتحدث بالتفصيل ، هل يناسبك ذلك ؟

فكر نوح قليلاً ..

● نوح : حسناً ، لا مانع .. و كيف سأتعرف عليك ؟

○ الشخص المجهول : سأتعرف أنا عليك فلا تقلق ، المهم أن تأتي لوحذك حرصاً على سلامتي الشخصية ..

● نوح : بالتأكيد ، سأوافيك على تمام الساعة الثامنة ..

أغلق المجهول الهاتف دون أن يضيف أي كلمة أخرى .. في حين نظرت إيليت إلى زوجها بدهشة ..

○ إيليت : هل ثمة خطب ما ؟ ..

● نوح : إطلاقاً ، هاتف عمل كالمعتاد ..

هزت إيليت رأسها غير مقتنعة بالجواب لكنها تابعت تناول طعام العشاء بصمت فهي اعتادت على الغموض الذي يحيط بحياة زوجها المحقق ..

في تمام الساعة الثامنة مساءً، جلس المحقق نوح على أحد المقاعد الخشبية المنعزلة المطلة على البحيرة الهادئة التي تتوسط حديقة سنترال بارك، تلك الرقعة الخضراء التي تنبض بالحياة في قلب مانهاتن، كما لو أنها قلب ثانٍ للمدينة، لا يتوقف عن الخفقان. كان الهواء بارداً، تتسلل نسماته محملة بعطر أوراق الخريف الرطبة، وتُحرك برفق صفحة الماء التي انعكست عليها أضواء المدينة وأحلام ساكنيها.

جلس نوح وهو يضمّ معطفه إلى صدره، يتلّقت حوله بتوتر يخلّفه القلق المزمن لا انتظار الموعد فقط. راقب العابرين، وجوهاً مألوفة وغريبة، عائلات تصطحب أطفالها، عشاق يتهايمسون على المقاعد، عدائين يعبرون بخفة، وأرواحاً تبحث عن شيء لم يُخلق بعد.

لكن لم يلح في المشهد ما يوحي بموعد مريب أو بشخص ينتظر أن يُكشف. بدا كل شيء عادياً... إلى أن شعر فجأة بيدٍ ثقيلة توضع على كتفه، تربت عليه بهدوء قاتل. قفز قلبه في صدره كعصفور مذعور، فالتفت بسرعة، والعرق يتجمّع على جبينه رغم البرودة.

كان يقف خلفه رجل أربعيني، ضخم الجثة، كتلة بشرية من الغموض والتهديد، يرتدي قبعة شتوية غارقة في الظلال، ويحيط وجهه بكوفية سمكة تُخفي جلّ ملامحه، فلا يظهر منها سوى عينيه... وكانتا كعيني ذئب في بركة، صامتين، ثاقبتين، جامدتين كصقيع الشمال.

شعر نوح للحظة بأنه ينظر إلى قناع، لا إلى وجه إنسان. القناع الوحيد الذي لا يُنزع، والمصنوع من الأسرار والدم. لم يتفوّه الرجل بكلمة... فقط اتخذ مكاناً بجواره و جلس ..

○ الشاب : حضرة المحقق نوح ، أنا صديقك الذي تكلم معك منذ ساعة ؟

● نوح : أهلاً بك .. قلت لي أن لديك معلومات عن مكان المليونير جيمس ، رجاءً تفضل بالحديث بشكل مباشر ..

○ الشاب : كما تريد حضرة المحقق ، سأحدث باختصار ..

نظر الشاب بعينه الثاقتين إلى المساعد نوح للحظات ثم قال بلهجة جادة للغاية و مبطنة بالتهديد ..

○ الشاب : أنت الآن أمام خيارين مصيريين في حياتك سيد نوح ..

● نوح : خياران ! لم أفهمك !

○ الشاب : أجل خياران .. إما أن تحصل مني اليوم على مليون دولار دفعة واحدة و هي في حقيقتي هذه تنتظرك .. أو أن تتعرض للأذى الحتمي أنت و عائلتك .. و أقصد بالأذى الموت النهائي لا غير، وؤكد لك أن زملائي يحيطون بمنزلك هذه اللحظة فإن أسأت التصرف بطريقة ما سيجهزون على عائلتك على الفور و بدون تردد .. فأأي الخيارين تفضل ؟

ارتاع نوح من هذا الكلام المفاجئ و الصادم خاصة الجزء المتعلق بمصير عائلته .. لكنه سرعان ما تمالك نفسه و رد بلهجة حانقة ..

● نوح : لا داعٍ لهذه اللهجة يا هذا .. بخصوص ماذا تعرض عليّ خياراتك ؟

○ الشاب : إنها خياراتك و ليست خياراتي أيها المحقق .. لا بد أنك تذكر قضية غرق يخت المليونير جيمس ، صحيح ؟ ..

● نوح : بالطبع ..

○ الشاب : و هنالك طبيب فضولي بشكل مضر للغاية يدعى بينجامين أعد تقريراً عن تطابق سجلات أسنان السيد جيمس بأسنان الجثة المتفحمة التي عثر عليها في اليخت الغارق ..

● نوح : أنا على اطلاع بذلك .. وبعد ؟

○ الشاب : مهمتك بسيطة للغاية سيد نوح ، سأمنحك تقريراً شرعياً خاصاً ستقوم بختمه بختم الطبيب بنجامين هذه الليلة بطريقة ما و هذا يسير عليك بحكم مهنتك و صلاحياتك في الولوج إلى كل الأماكن و ستقوم باستبدال تقرير الطبيب الذي سيصل إلى الشرطة غداً صباحاً بتقريرنا الجديد إذ أنك كما تحرينا من يقوم باستلام تقارير الطبيب بنجامين أولاً ، فإن وافقت على هذه المهمة منحتك مليون دولار مباشرة ..

● نوح غاضباً : تريد من رجل قانون أن يخالف القانون ؟ ..

○ الشاب : ليست مخالفة بالمعنى الحرفي للكلمة فهي لن تؤذي أحداً أبداً ، فقط ستغلق ملف مقتل السيد جيمس و تقوم بدرء البلبلة حوله ..

● نوح : و لماذا لا تقدمون هذا العرض للطبيب بنجامين شخصياً ؟ ..

○ الشاب : لأنه عنيد للغاية و لا يخاف على حياته كما أنه أعزب و لا عائلة لديه يخشى على سلامتها كحالتك ..

● نوح : و لماذا لم تقوموا بوضع سجلات أسنان الجثة مكان سجلات جيمس ألم يكن ذلك أسهل عليكم ؟ ..

○ الشاب ضاحكاً : ذكي للغاية سيد نوح ، السبب بسيط و هو أن الجثة التي احترقت في اليخت ليس لديها سجلات أسنان سابقة ، كذلك كنا نتوقع إقفال القضية مباشرة بالاعتماد على كلام شهودنا ، لكن فضول الطبيب بنجامين حول هوية الجثة شكّل عقبة كبيرة في طريقنا ..

فكر نوح مجدداً ..

● نوح : و إن لم أقبل العرض ؟

○ الشاب : لا لا .. صدقني ستفعل و ذكاؤك يؤكد ذلك، أظن أنّ حياتك و حياة عائلتك قيّمة بالنسبة لك ، و أحذرك بأننا سنصل إليكم أينما كنتم و قناصة واحدة عن بعد كفيلة بتصفية حساباتنا .. الموضع يسير للغاية سيد نوح فخياراتك هي الموت المؤكد أو الحياة السعيدة بالمال الذي سنمنحه لك ، لا أكثر فاختر منها ما يناسبك ..

● نوح : هل تهددني ؟

○ الشاب : هذا يعتمد على خيارك الآن ، فأنا إما أمنحك عرضاً سخياً للغاية بمبلغ مليون دولار كاملة سيساعدك حتماً على علاج ابنتك ميشيل بشكل جذري من داء **هنتنغتون** الذي شخصت به في طفولتها عبر العلاج الجيني الحديث كما أنه سيؤمن لك حياةً كريمةً .. أو أهددك تهديداً جدياً سينفذ لا محالة.. و انت من الذكاء كفاية كي تختار القرار الصائب .. على كل حال سأعطيك الآن تقريرنا و أتركك تفكر بهدوء ، فإن وافقت على المهمة انتظرني هنا بتمام السادسة صباحاً مع التقرير المختوم و عندما أتأكد منه سأمنحك المليون دولار ثم عليك بعدها تبديل التقريرين و ننهي الأزمة بيننا سلمياً .. لكن إن رفضت العرض سألقاك و عائلتك على الأكيد في مناسبة دموية أخرى ..

لم يمنح الشاب الغامض نوحاً فرصة للتفكير أو حتى لالتقاط أنفاسه. أخرج من حقيبته المغلقة بعناية تقريراً مختوماً بالأسرار، ووضعه على المقعد الخشبي بجواره بهدوء قاتل، كما لو أنه يودع قنبلة موقوتة ثم استدار وانصرف، تاركاً وراءه عاصفة فكرية هوجاء تجتاح ذهن نوح كإعصار صحراوي لا يرحم.

جلس نوح هناك، ساكناً في هيئته، متزلزلاً في داخله، بينما عقارب الساعة تدور حوله ببطء غريب كأن الزمن ذاته يخشى أن يمر عليه. ظلّ يتأمل الورقة كما لو أنها تنتظر إليه هي الأخرى، وتبتسم بسخرية لارتبأكه؛ فذلك التقرير، ببضعة أسطر وكلمات، قد غير قواعد اللعبة بأكملها.

تلاطم في داخله صوتان متضادان، كأنهما ملاك وشيطان يتصارعان على مشهد حياته: من جهة، ضميره المهني يصرخ فيه بأن الشرف لا يُباع ولا يُشتري، وبأن الأمانة لا تتجزأ، وإن خُننتها مرة واحدة فإنك تمضي العمر تقعات من فتات الكذب... ومن جهة أخرى، كانت صورة طفله في المستشفى، بأنفاسها الهشة وأنايبها المعلقة، تطالعه كنداءٍ لا يُردّ، تحمله عيناها المستسلمتان كسؤال أخير : ألن تنقذني، أبي ؟

لقد أدرك بحدسه الحاد أن هذا الشاب لم يأت من فراغ، وأنه مجرد قطعة على رقعة شطرنج كبرى يحركها ثري آخر من الظل، ذلك المليونير

المتواري الذي أراد من العالم أن يصدق وفاته، بينما ينسج من خلف الستار خيوط تلاعبه بالعدالة. فمن غير أولئك الذين يمتلكون مفاتيح النفوذ أن يعرفوا تفاصيل تقرير الطبيب الشرعي بنجامين خلال ساعات فقط ؟ ومن يستطيع أن يفتح كتاب حياته الشخصية على مصراعيه، ويقرأ سطور السرية ؟

كل شيء يشير إلى أنهم لا يطلبون، بل يفرضون. وأن الرفض لن يمر دون تبعات...

تناهت إلى ذهنه صورة من الأساطير الإغريقية القديمة ، أوديسيوس، البحار

الحكيم، في قلب المحيط، تتربّص به كارثتان: سيلا، وحش برؤوس ستة كالثعابين، تفترس طاقمه من الأعلى، و شاريبيديس، التي تصنع دوامة بحرية تنوي ابتلاع السفينة برمتها. لم يكن أمام أوديسيوس سوى أن يختار أهون الشرين... فاختار أن يخسر البعض لينجو بالباقي، فاتجه نحو الدوامة لينجو بعد أن ابتلعت سيلا ستة أفراد من طاقمه كأقل الخسائر الممكنة .

وهكذا تساءل نوح في قلبه الممزق : ما أهون الشرين بالنسبة له ؟ أن يواجه وحش الأمانة، فيموت واقفاً كالشجرة، وتسقط عائلته معه في هاوية العوز والضياع ؟ أم أن يستسلم لوحش الخيانة، ويصير ظلاً من نفسه، مكسور العين، لكنه قادر على إنقاذ ابنته واحتضانها من جديد ؟

كانت المعضلة صارخة، كصفعة من القدر، تضعه أمام مرآة الذات المجردة. وكان عليه أن يختار.

لكن في أعماق تلك المرآة... لم ير سوى دمة صغيرة تتدحرج من عين طفلته على خدها الشاحب.

مكتب التحقيقات ..

صباح اليوم التالي ..

وصل تقرير الطبيب الشرعي بنجامين إلى مكتب المحقق فرانك داخل ظرفٍ سميك بلون العاج، مطوّقٍ بخيطٍ أحمر كما لو كان يحمل أسرارَ طائفةٍ خفية. رفع عينيه نحو مساعده نوح بنظرة ثابتة وقال بهدوءٍ أمر :

● خذه فوراً إلى الرئيس ويلتون. لقد طلبه شخصياً، وعلى نحو مستعجل... وغريب.

أخذ نوح الظرف مجدداً، لكن أصابعه لم تكن كما كانت حين حملته أول مرة. أصابعه الآن ترتجف بخفة، كأنها تعزف لحناً حزيناً على وترٍ خفي من القلق. كان يشعر أن الساعات القادمة لن تكون كسابقاتها، وكأن التقرير يحمل بين طياته قراراً يخصه، يخص عائلته، أو مصيراً وشيكاً سيطرق بابه دون استئذان.

خرج نوح من المكتب، وخلفه أغلق الباب بصوت بدا لفرانك كصفقةٍ بين قوى خفية، صوتٌ لا يُسمع كثيراً لكنه يُشعر به في الصدر كوميض صامت.

مضت نصف ساعة تقريباً، زمنٌ بدا متجمّداً، وكأن عقارب الساعة تدور في دائرة مفرغة حول سؤال واحد: ما الذي كشفه بنجامين؟

رنّ الهاتف فجأة، شطر سكون المكتب كحد السكين. مدّ فرانك يده ببطء ورفع السماعة.

جاءه صوت الرئيس ويلتون، ثقيلًا، أشبه بما بعده زلزال :

○ ويلتون : عمل رائع حضرة المحقق ، بعد هذا التقرير يمكننا الآن إغلاق ملف قضية مقتل المليونير جيمس نهائياً..

● فرانك بدهشة : لم أفهم كلامك بدقة سيدي ! كيف سنغلق القضية ، التقرير يشير إلى عدم تطابق سجلات أسنان جيمس مع الجثة المتفحمة !

○ ويلتون : كيف ذلك ؟ التقرير بين يدي ، مختوم و موقع من قبل الطبيب بنجامين الذي يؤكد التطابق بينهما !..

● فرانك بذهول : ماذا تقول سيدي !؟ ، هنالك خطأ ما و لا شك ، لقد حدثني الطبيب هاتفياً ظهر أمس و أخبرني أن النتيجة غير متطابقة البتة

○ ويلتون : ربما اختلط عليه الأمر مع قضية أخرى أو أنك لم تفهم كلامه جيداً ..

● فرانك غاضباً : هذا مستحيل سيدي ، لا بد أن ..

قاطعته ويلتون بحزم ..

○ ويلتون : لا داع لمزيد من النقاش البيزنطي حضرة المحقق فالتقرير كتب و ختم و لا يمكن تغييره بعد الآن قانونياً و مهنياً ، لا أريد مزيداً من النقاش فلدي مهام كثيرة لأنجزها .. أغلق القضية في الحال و أخبر عائلة السيد جيمس بوفاته لاستلام جثمانه..

● فرانك مستسلماً على مضض: أمرك سيدي ..

أغلق فرانك سماعة الهاتف و قد شحب لونه كلياً ثم نظر إلى مساعده نوح نظرة جدية تقطر قلقاً ..

○ نوح : ماذا هناك سيدي ؟

● فرانك : كارثة يا نوح .. كارثة و اختراق هائل ، لقد قام شخص ما بتبديل تقرير الطبيب بنجامين بتقرير آخر مغاير كلياً ، و لا بد أن للمليونير جيمس يداً في الموضوع ..

○ نوح : من يتجرأ على فعل ذلك بحق السماء !

● فرانك غاضباً : من أين لي أن أعرف !

○ نوح : و كيف ستعالج الموضوع سيدي ؟

● فرانك : لا أدري ، لقد خرج الموضوع قانونياً من يدنا بوصول التقرير

إلى الرئيس ويلتون ، على كل حال سأكلم الطبيب بنجامين على الفور و أفهم منه ما الذي حدث بالضبط ..

جنّ جنون الطبيب بنجامين كما لم يُجنّ من قبل، حين سمع عبر الهاتف مضمون التقرير الجديد. نفض سماعة الهاتف عن أذنه كأنها أفعى لدغ منها، وراح يذرع الغرفة بخطوات سريعة كالسموم، عينيه تشعّان بالذهول والغضب، يديه تقبضان على الهواء كأنهما تبخثان عن عنق خفي تخنقه.

لم يحتمل ثقل الصدمة، فمد يده المرتجفة إلى الهاتف مجدداً واتصل بالرئيس ويلتون، وما إن ردّ عليه حتى انفجر الحوار بينهما كقنبلة صوتية في حجرة مغلقة. كان صوت بنجامين مدججاً بالاحتجاج والذهول، في حين جاء صوت الرئيس ويلتون بارداً، حاداً، يقطر تهديداً ممّوهاً تحت ستار القانون.

ألقي عليه المسؤولية كاملة، وقال له بجفاء لا يليق بموقعه :

● التقرير يحمل توقيعك وختمك المشفّر بأشعار العيون، فإما كنت أنت من زوّر، أو أنك فرّطت بختمك... وفي الحالتين، ستدفع الثمن. هذه فضيحة لن تمر، وستكون عبرة لكل من يتهاون. من الأفضل لك أن تُسدل الستار وتغلق الملف نهائياً... قبل أن يُغلق عليك باب مهنتك إلى الأبد.

لكن بنجامين، الذي عاش عمره على شفا الحقيقة، لم يكن من أولئك الذين يواربون الأبواب. لم يرهب التهديد، ولم يتراجع تحت وطأة الخوف. ظل واقفاً أسفل النافذة، ينظر إلى السماء من قبوه كأنها رقعة شطرنج، لا مكان فيها للحياة، ثم همس في نفسه : ليس بعد كل هذا... ليس وأنا أعرف الحقيقة ..

في الجهة الأخرى من المشهد، كانت الساعة تشير إلى اقتراب الغروب حين تسلّم أفراد عائلة المليونير جيمس جثته المتفحمة، في هدوء غريب، كما لو أنهم تسلموا طرداً مألوفاً، لا إنساناً قضى. وما أثار دهشة المحقق فرانك، الذي كان يتابع كل خطوة عبر أحد عناصره الخفيين، هو أنهم لم يدفنوا الجثة كما يُفترض، بل ساروا بها مباشرة إلى المحرقة، كمن يخشى

من قيام الميت من موته.

تمت مراسم الحرق بسرعة جنونية، وكأنهم يسابقون الزمن لطمس آخر أثر قد يعيد فتح فم الحقيقة.

راقب فرانك الأمر من بعيد، وداخله يمور كمرجل يغلي، فالجثة التي احترقت هي الدليل الوحيد الذي كان يمكن أن يُعاد فحصه من قبل طبيب شرعي محايد، لإثبات أن التقرير الرسمي قد عُذّل عمداً... والآن، لم يبقَ من جيمس سوى رماد.

لكنّ المصيبة الأعظم لم تكن في احتراق الجثة فحسب، بل في اختفاء تقرير بنجامين الأصلي عن فحص الأسنان، والذي فُقد فجأة بطريقة مريبة بعد ساعات من الحرق. فتش فرانك عنه بكل الوسائل، لكنه كان قد تلاشى كما تتلاشى الظلال مع أول ضوء، وكأن أحدهم قد سحب الخيوط بإتقان من خلف الستار.

عند هذه النقطة، خُيِّل لفرانك أن كل الأبواب قد أُغلقت... إلا أن هناك باباً واحداً ما زال موارباً.

بنجامين.

الطبيب الذي رفض الخضوع. وبدلاً من أن يرضخ لصوت التهديد، اختار أن يصنع صوته الخاص. لم يكن في يده دليل، لكن في قلبه كان الحق يُرفرف مثل علم لم يُنكس بعد.

رفع السماعة من جديد... اتصل به ..

○ بنجامين : لقد هددني رئيسك ويلتون حضرة المحقق و حملني المسؤولية كاملة كما أنه نصحني بالسكوت و إغلاق ملف القضية نهائياً حفاظاً على مهنتي و حرיתי .. لكنني لا أبالي بما قاله و سأمضي قدماً في تحقيقي الشرعي حول قضية موت المليونير جيمس فقد احتفظت بعينات من الجثة المتفحمة و سأجري عليها تحليل **DNA** لإثبات أنها لا تعود للمليونير ثم سأعرض النتيجة على الإعلام فور صدورها مع فضح قصة تبديل التقرير مهما كانت عواقبها عليّ ..

● فرانك : أقدر شجاعتك حضرة الطبيب ، لكنني أعتقد أن القضية خرجت من أيدينا و خسرنا المعركة بانتصار المدعو جيمس و تملصه من العدالة و العقاب ..

○ بنجامين: لا تقل هذا حضرة المحقق .. نحن في معركة مع شيطان حقيقي و علينا ألا نستسلم فيها حتى آخر لحظة ..

صمت الطبيب للحظات ثم قال بصوت مفعم بالتصميم و الغضب ..

○ بنجامين: هل سمعت من قبل بقصة لوحة كش مات حضرة المحقق؟

● فرانك : إطلاقاً ..

○ بنجامين: هي لوحة كانت موجودة في متحف اللوفر بباريس لفنان ألماني من القرن 18 يدعى فريديريك ريتز صور فيها لاعبي شطرنج، الأول هو الشيطان، الذي يبدو مفعماً بالغرور و الثقة من الفوز بسبب سيطرته على الرقعة، والملاعب الثاني هو إنسان تبدو عليه علامات اليأس، لأن الشيطان الذي يبدو منتصراً في اللوحة سوف يربح روح ذلك الرجل و يسيطر عليها في حال هزيمته.. بين اللاعبين يقف ملاك يراقب المعركة على الرقعة بصمت..



الشيطان في هذه اللوحة يجسد الأسطورة الإغريقية آتي ابنة كبير الآلهة

زيوس و التي دفعته لاتخاذ مواقف متهورة وحمقاء عن جهل، فما كان من زيوس عندما اكتشف حقيقتها إلا أن طردها من جبل الأوليمب إلى الأرض، وهناك اتخذت آتي من البشر هدفاً لنزعتها الشريرة لتدفعهم إلى الخطيئة و السقوط الأخلاقي كما يفعل الشيطان بالضبط ..

المهم في الموضوع أنه ثمة قصة واقعية هادفة و عميقة للغاية مرتبطة بهذه اللوحة ذات صلة وثيقة بقضية المخادع جيمس ..

● فرانك : لا بد أنها قصة مثيرة كعادتك حضرة الطبيب .. تفضل رجاءً بقصها عليّ ..

○ بنجامين: تقول القصة أن مجموعة سياحية كانت تزور متحف اللوفر حيث كانت توجد تلك اللوحة منذ عقود طويلة ، وكان معهم مرشد سياحي يشرح لهم عن كل لوحة بما فيها لوحة (كش مات) التي وصفها بانتصار الشيطان بدهائه على الإنسان .. ثم انتقل إلى شرح اللوحة التالية، لكن أحد أفراد تلك المجموعة السياحية، وهو بطل عالمي متمرس في لعبة الشطرنج ، لم يتحرك معهم وبقي يتأمل لوحة (كش مات) فنادى عليه المرشد السياحي ليسير معهم، إلا أن لاعب الشطرنج استدعاه مجدداً إلى اللوحة و قال له : لحظة يا سيدي، يجب إما تغيير اسم هذه اللوحة أو إزالتها من المتحف، أنا كلاعب شطرنج محترف أرى أن ملك الإنسان لا يزال أمامه فرصة للمناورة، إذ يمكن تحريكه هكذا وبعدها سوف يربح الإنسان ويخسر الشيطان .. الغريب في الموضوع أن اللوحة نقلت بالفعل لاحقاً من متحف اللوفر و اشتراها أحد الأثرياء .. المغزى من هذه القصة حضرة المحقق هو أنه مهما كانت الظروف صعبة و خطيرة و كل شيء فيها يوحى بالهزيمة و يدعو إلى الاستسلام، فثمة أمل يلوح في الأفق كشعاع نور يمر من الثقب الضيق، لكن هذا يتطلب تحدياً و جهداً و إيماناً، لذا علينا ألا نستسلم و نعلن انتهاء القضية فشيطان المخدرات المدعو جيمس يظن نفسه انتصر في المعركة و ربح حياة تلك الجثة المتفحمة لكن ما يزال أمامي خطوة أخرى بتحليل **DNA** الجثة و كشف النتيجة على الملأ لينتصر العدل مجدداً ..

● فرانك : قصة عميقة بالفعل حضرة الطبيب و معبرة للغاية كالعادة ،

أتمن عالياً جرأتك وعزيمتك و أتمنى أن يحالفك النجاح و توقع بذلك
المحتال سيزيف..

أغلق المحقق فرانك الخط ثم التفت إلى مساعده نوح و أخبره بقرار
الطبيب بنجامين الشجاع و الجريء .. فارتبك نوح بشكل واضح بعد سماع
هذا الخبر و استأذن من سيده الخروج لدقائق، ثم سارع جزعاً بالاتصال
بالشخص المجهول الذي التقاه بالأمس فأخبره بهذا القرار غير المتوقع من
الطبيب بنجامين و بأن أمرهم قد ينفصح عاجلاً أم آجلاً فالقضية لم تنته
كما توقعوا ..

○ المجهول : لا تخشى شيئاً سيد نوح و تمتع بمالك الجديد ، فالموضوع
انتهى بحرق جثة جيمس المزعومة و لا فائدة من أي تحقيق آخر فقد أتلفنا
بأنفسنا تقرير الطبيب بنجامين الخاص بأسنان الجثة .. كما أنه ما من دليل
يؤكد أن عينات **DNA** التي بحوزة الطبيب تعود للجثة المحترقة
بالأساس .. لقد أحكمنا إغلاق القضية نهائياً ..

● نوح : متأكد ؟

○ المجهول : بالطبع ، ما يهم الآن هو السؤال التالي : هل رآك أحد ما
في المشفى بينما كنت تختم تقريرنا ؟

● نوح : لا أظن ، كان الطبيب بنجامين في المشرحة و كانت غرفته
المجاورة مفتوحة على غير المعتاد لحسن حظنا، فكانت هذه هي السهوة
التي ننتظرها، دخلت وبحثت فوجدت الختم في حقيبته الخاصة .. ختمت
التقرير و غادرت على الفور ..

○ المجهول : و كاميرات المراقبة ؟

● نوح : غير متوفرة في الطابق تحت الأرضي ..

○ المجهول : رائع .. لا تخشى شيئاً إذاً .. الموضوع حسم للأبد .. و إن
سجلت أي كاميرا تواجدك في المشفى مساءً فادعي أنك كنت تبحث عن
طبيب تستشير به بخصوص مرض ابنتك ميشيل .. فالجميع على دراية
بحالتها الصحية ..

أقفل المجهول الهاتف دون أن يترك لنوح الفرصة بالرد أو الأسئلة ..

فجر اليوم التالي ..

وصل إلى قسم الشرطة بلاغ حزين كهمة صقيع في ليلٍ قاتم، كان من خادمة الطبيب بنجامين وهي تخبر بارتعاش عن اختفاء سيدها الغامض. لم يعد إلى منزله منذ أمس، وهاتفه صامت كالمقبرة، غارق في صمتٍ مريب يلف المكان بخيوط الظنون والقلق. كان هذا الصمت ثقيلاً على صدر المحقق فرانك، الذي شعر وكأن قلبه يُمحي من دقائق الزمن، وأن لكل لحظة تمر خطراً قاتلاً يخنق أنفاسه.

كمن يقود جيشاً في معركة مستحيلة، أمر فرانك بدويّ الدوريات والبحث عن سيارة الطبيب في كل زوايا نيويورك، في شوارعها المزدحمة، وفي ريفها المهجور، علّ أحدهم يجد ولو خيط أمل يُعيد الطبيب للوجود أو يجيب عن سؤالٍ ينهشه من داخله : ماذا جرى لبنجامين ؟

مرت ثلاث ساعات ثقيلة كالدهر، حتى رن هاتف فرانك بنبأ كالصاعقة. سيارة الطبيب عُثِر عليها على طريق ريفي منعزل، تحيط بها هالة من الغموض والرعب. حين وصل فرانك ومساعد نوح، بدت السيارة كقبرٍ مفتوح، أثار الدماء تسبغ مقاعدها وبابها، وكأنها لوحة حزينة رسمتها أيادي الغدر والظلام.

أسرع فرانك نحوها، قلبه يعتصره وجع فقدان إنسان كان أكثر من زميل، كان رفيق دربٍ، صديقاً وثيقاً يعرف ثنايا العدل والنبيل. لا أثر للطبيب، لا همس للحقيقة سوى الدماء التي تعانق الأرض بصمت رهيب، وهاتفه المختفي كأنه أخذ ليُدفن مع السر.

بعد إرسال عينات الدم إلى المختبر، جاء الرد كطعنة نصل في قلب الحقيقة : هذه دماء الطبيب بنجامين، قطع من الجحيم على هذه الأرض، تؤكد أن الطبيب قد أُسر أو لعلّه أبعد من ذلك... ربما ذاب في ظلال المؤامرة التي رسمها المليونير جيمس ببراعة المجرم الذي لا يرحم.

تفتحت أمام فرانك صفحة جديدة، مظلمة، حيث ظل جيمس الذي تلاعب بالموت والتزوير، أحرق جثة محترقة حتى تحولت إلى رمادٍ بلا أثر، دمر التقارير وحذف الأدلة، حتى وصل الأمر إلى تصفية الطبيب الذي صار آخر صوت في فضاء الحقيقة.

ومع هذا، لم يكن ألم فرانك مجرد خسارة لصديق، بل سقوط أطلس العدالة الذي حمل القانون على كتفيه، وقف شامخاً أمام موجات الظلم حتى استُهدف، غدر به الظلام، ودُفن كرمزٍ لشجاعةٍ دفع حياته ثمناً.

أما نوح، فكان أسير خوفٍ عميق، يختنق بين مشاعر الخيانة والرجاء، يحوم حوله طيف يهوذا الذي باع المسيح مقابل ثلاثين فضة وهو يرى الحقيقة تنهوى أمام عينيه، صرخ في الظلام بصوتٍ ملؤه الغضب، يبحث عن مَنْ يردّ للطبيب الشجاع حقه، أو ينقذه شخصياً من إرث الخيانة الذي يسحق كاهله.. اتصل مباشرة بالشخص المجهول و صرخ بغضب :

● نوح : ما الذي فعلتموه بالطبيب بنجامين أيها المجرمون ؟

○ المجهول : انتبه لألفاظك سيد نوح ، فأنت الآن مجرم مثلنا تماماً و قبضت مليون دولار كاملة مقابل شرفك المهني الرخيص ، و أذكرك بأنك متورط بقضية ستجعلك تتعفن في أقبية السجون لسنوات و ليس لك أي مصلحة في إثارة البلبلة هنا أو هناك كي لا يكون مصيرك و مصير عائلتك كغيرك.. لذا هدى من روعك و تمالك نفسك ..

● نوح : سحقاً لكم ، لقد قتلتم ذلك الطبيب الشجاع إذاً ؟

○ المجهول : ربما ، لنقل أن الطبيب بنجامين بفضوله الزائد حول مصير السيد جيمس عانى من نفس مصيره تماماً ، فهو ليس حياً و ليس ميتاً أيضاً .. و عليكم جميعاً أن تتعلموا درساً هاماً من ذلك بأن عاقبة

الفضول الزائد وخيمة للغاية .. ما يهم الآن أن الطبيب بنجامين لن يزعجك أو يزعجنا مجدداً .. لذا اهتم بشؤونك الخاصة من الآن فصاعداً و التفت لعلاج ابنتك ميشيل ، و حذاري أن تعاود الاتصال بي على هذا الرقم حرصاً على سلامتكم جميعاً ..

أغلق الصوت المجهول الهاتف بقسوة، كأنه طوى صفحة لا يريد لأحد أن يقلبها مرة أخرى، تاركاً نوح في دوامة من الغضب والندم والخزي، يغلي في صدره كبركان على وشك الانفجار. كان يشعر بثقل لا يُحتمل، وكأن الدماء التي تلطخت بها سيارة الطبيب بنجامين كانت تلتخ روحه أيضاً، فقد أدرك، ولو بعد فوات الأوان، أنه جزء من مأساة هذه الخيانة، أنه المسؤول غير المباشر عن رحيل أطلس العدالة.

ذاك الطبيب الحازم، الذي حمل على عاتقه همّ الحق والعدل، ترك وراءه إرثاً من الشرف الذي لا يُقارن، وشجاعة لا يستطيع أي كلام أن يصفها، أما هو، نوح، فبات يشعر الآن وكأنه خائن وضيع، مجرم تحت سماء العدالة التي تسقط ببطء، وتوشك أن تسحقه بعدما فقدت دعامتها الأقوى. هو الآن على مفترق طرق، حيث تتلاطم أمواج الذنب مع رياح الخوف، في معركة داخلية لا يعرف لها قراراً.

وفي هذا السكون الذي يعقب العاصفة، يطرح السؤال الحارق نفسه : هل انتصر الشيطان في معركته الخفية على رقعة الشطرنج مع الإنسان؟ أم أن هناك ملاكاً خفياً ما زال يحتفظ بحركة أخيرة في جعبته، حركة يمكنها قلب الموازين، وإعادة كتابة قواعد اللعبة، وتغيير مجريات الأحداث نحو ضوء جديد ؟!

إِلَهُ الْقُدْرَةِ يَفْتَحُ

صَنْدُوقَ بَانَدُورَا

(مَانِحِ عَالَمٍ وَ آخِذِ عَالَمٍ)

فرنسا / باريس / جامعة السوربون ..

السابع من شباط عام 2049 م ..

الساعة 9 صباحاً ..

اكتظت قاعة المحاضرات عن آخرها.

كل مقعد احتله زائر جاء بدعوة خاصة، تلهفه بادٍ في نظراته، مترقباً لحظة ظهور البروفيسور جاك فورنييه، ذلك الاسم الذي أصبح علامة فارقة في عالم الميثولوجيا ومقاربات الحضارات القديمة.

ومع انقضاء عشر دقائق أخرى، خفتت الهمهمات، وساد الصمت القاعة الفسيحة كما لو أنها دخلت في طقس وثني، انتظاراً لكاهن المعرفة. تقدّم مُعدّ المحاضرة إلى المنصة، وعرّف الحاضرين بالبروفيسور بكلمات مقتضبة، لا تكفي لإنصاف عقود من الاكتشافات والنظريات، لكنها كانت كافية لتُطلق شرارة التصفيق حين دعاه للصعود.

نهض فورنييه من مقعده بهدوء مهيب، تفيض منه ثقة العالم وتواضع الحكيم.

خطا الدرجات السبع المؤدية إلى المنصة، واحدة تلو الأخرى، كما لو أن كل درجة تقرّبه من طقس كشفٍ خفي، وسط تصفيق مدوّ ارتفع كعاصفة خفيفة من الإعجاب.

وحين استقر واقفاً، ابتسم للحضور، وعلى وجهه هدوء رجل لا تشي ملامحه بشيء من خوارق عمله.

كان أصلع تماماً، بلا لحية، يضع نظارات دائرية صغيرة على عينيه، أقرب إلى موظف أرشيف متقاعد منه إلى منقّب في أعماق الأساطير.

لكن ما إن نطق بكلماته الأولى، حتى تبدّل كل شيء.

كان صوته رخيماً، هادئاً، ينساب كالماء العذب في مجرى قديم. فيه دفء يذكر بمواقد الكهنة، ووقعه أشبه بتنويم مغناطيسي خفيف.

وللحظة، خُيّل للحاضرين أنهم لا يستمعون إلى رجلٍ من هذا العصر، بل إلى آخر الناجين من زمن الآلهة.

● جاك : شكراً للحضور الكريم فرداً فرداً على تشريفهم لي بتواجدهم في هذه المحاضرة المتواضعة التي أتمنى أن يخرج الجميع منها بمعلومات جديدة و فائدة مرجوة ..

صمت للحظات و هو يحدق في الحضور بابتسامة لطيفة ..

● جاك : لندخل مباشرة في صلب حديثنا عن الميثولوجيا التي هي عبارة عن أساطير خاصة بكل حضارة من الحضارات القديمة حاول الناس من خلالها تفسير الظواهر الطبيعية و الكونية من حولهم و التماس الأمل و الرحمة من الآلهة كي يمضوا في الحياة بقوة و تحمل .. و مجال محاضرتنا اليوم عن الميثولوجيا الإغريقية العريقة و بالتحديد عن مقارنتها بالأديان السماوية و بعض الظواهر الكونية بتشابه غريب كما سنرى بعد قليل ..

تنقسم الآلهة الإغريقية كتبسيط إلى أربع مستويات أساسية و هي الآلهة الأوائل ثم الجبابرة و بعدهم تأتي آلهة الأوليمب ثم أخيراً أبناء و مخلوقات آلهة الأوليمب ..

نظر هيكتور إلى ديونيسوس و ابتسما ، إن البروفيسور يسلك ذات السبيل الذي انتهجه ديونيسوس بالشرح في حديقة منزله منذ أسابيع ..

شرع البروفيسور بالشرح المقتضب عن المستويات الأربعة لأساطير الإغريق وسط سعادة و رضا هكتور و ديونيسوس اللذين اطلعا مسبقاً عليها ..

● جاك : نبدأ المستويات بالترتيب من المستوى الأول و يضم الآلهة

الأوائل و هم ستة آلهة أولهم و أهمهم هي تشاوس إلهة الفوضى و الفراغ اللامحدود و منشأ خلق كل شيء ، إذ أعطت 5 آلهة أخرى : غايا إلهة الأرض و أنجبت أورانوس (إله السماء) و بونتوس (إله البحر) و آلهة الجبال و كلها بمفردها بدون زوج .. ثم لدينا إيروس إله الانجذاب الكوني .. يأتي بعده نيكس إلهة الليل .. ثم إيريبوس إله الظلام و أنجب من نيكس أيثير (إله الهواء) و هيميرا (إلهة النهار) .. و أخيراً لدينا تارتاروس و هو إله العالم السفلي و أنجب من غايا وحش التايفوس ..

صمت البروفيسور للحظات شرب فيها قليلاً من كأس الماء أمامه ثم تابع حديثه :

● جاك : ننتقل إلى المستوى الثاني و يضم الآلهة الأرباب أو الجبابرة أو التايتان و نتجت كلها عن تزواج غايا إلهة الأرض و أورانوس إله السماء و تضم اثنا عشر إلهاً ، ستة أشقاء وست شقيقات، بحيث تزوج كل شقيق من شقيقته وأنجبوا عدداً من الأبناء و هؤلاء الأشقاء و الشقيقات هم : كرونوس و ريا ، إيابيتوس و ثيميس ، أوقيانوس و تيثس ، هايبيريون و ثيا ، كريوس و منيموسايني و أخيراً كاز و فويبي ..

صمت البروفيسور مجدداً للحظات و هو يبتسم أمام نظرات الحضور المصوبة عليه بإصغاء و فضول ..

● جاك : يأتينا الآن المستوى الثالث و هو يضم آلهة جبل الأوليمب و هم أبناء الجبابرة كرونوس و ريا : بالطبع نبدأ بزيوس كبير الآلهة الذي يحكم آلهة جبل الأوليمب باعتباره الوريث الشرعي للعرش بعد الإطاحة بوالده كرونوس و إنقاذ إخوته من بطنه بعد ابتلاعه لهم خوفاً على عرشه ، وزيوس هو إله السماء والصاعقة .. نتبعه مباشرةً بهيرا زوجة زيوس وأخته ..ثم يأتي الإله العظيم بوزيدون إله البحر والعواصف والزلازل .. يليه هيديس إله العالم السفلي أو عالم الموتى ..ثم هيسيا إلهة الموقد، والبيت .. و نختم أخيراً بديميتر إلهة الطبيعة والنبات والفلاحة ..

ما الذي تبقى لدينا الآن ؟

○ الحضور بصوت واحد : المستوى الرابع بروفييسور ..

● جاك : تماماً المستوى الرابع و الأخير و هو يشمل على أبناء آلهة الأوليمب خاصة زيوس و تشمل آلهة ، أنصاف آلهة إضافةً إلى مخلوقات أسطورية و سأكتفي بذكر أشهرهم كون اللائحة طويلة للغاية و تخرج عن مضمون محاضرتنا : نبدأ من الحب مع **أفروديت** إلهة الجمال والحب والزواج .. لننتقل إلى المنطق مع **أثينا** إلهة الحكمة .. ثم **أبولو** إله الموسيقى والنور و الطب .. و بعده **أريس** إله الحرب .. لنتعرف على **هيفايستوس** إلهة النار والحدادة .. ثم **ديونييسوس** (باخوس) إله الاحتفال والنبيذ ..

نظر هيكتور إلى ديونييسوس الذي ابتسم فقد سمي باخوس على اسمه.. في حين تابع البروفيسور شرحه المثير ..

● جاك : و هنالك أيضاً **أياكوس** إله العدل .. و **بيرسيفوني** إلهة النباتات الجميلة وزوجة هاديس .. بعدها يأتي **هيرميس** إله التجارة والثروة والحظ و هو رسول الآلهة لنختم بالبطل **هيركليس** الذي نتج من زواج زيوس مع الأنثى البشرية **ألكميني** و اشتهر بقوته الخارقة وله **12** مغامرة شيقة شهيرة ..

يتبقى أمامنا الحديث عن المخلوقات الأسطورية : **كالعمالقة** ، **السايكلوب** ذو العين الواحدة ، ، **الحوريات** ، **المينوتور** هجين الإنسان و الثور ، **القتطور** هجين الإنسان و الحصان ، **الساتير** هجين الإنسان و الماعز .. و الوحوش الأسطورية مثل **بيجاسوس** (الحصان المجنح) ، **الحصان وحيد القرن** ، **الهيدرا** (هجين أنثى و ثعبان بمئة رأس) ، **الميدوسا** (أنثى ثعابين بدلاً من الشعر تحيل كل من تنظر إليه إلى حجارة) ، **الغريفين** (جسد أسد و رأس و جناحي عقاب) و **سيريبيروس** (كلب هايديس إله العالم السفلي ذو الرؤوس الثلاثة) و غيرهم كثيرون لكن كما أسلفنا سأكتفي بذكر أشهرها ..

أنهى البروفيسور الشق الأول من المحاضرة و الذي يلخص آلهة الإغريق بإلقاء قنبلة فكرية على الحضور ..

● جاك : و على خلاف ما هو سائد بين الناس بأن الحضارة الإغريقية متعددة الآلهة أو مشركة بتعريف الأديان السماوية فإن ذلك غير صحيح إطلاقاً ، فالإغريق آمنوا بوجود إله واحد يحكم جميع آلهتهم و لا كلمة تعلو فوق كلمته و هذا الإله هو القدر .. مخطط الصدف و راسم الغايات التي ينصاع لها جميع من في الأرض و تحتها في العالم السفلي و فوقها من آلهة في السماء .. و **القدر عند الإغريق هو إله أعمى قاسٍ لا يرحم** ، تخضع له الآلهة والبشر وجميع من في السماوات والأرض والبحر والدار الآخرة، فالقدر هو تلك الحتمية التي تجرى بمقتضاها أحداث العالم ولا يستطيع زيوس أقوى الآلهة بنفسه أن يثنى إرادة القدر من أجل مصالح الآلهة أو البشر، ويصور القدر في الميثولوجيا الإغريقية جالساً على عرشه و الكرة الأرضية تحت قدميه، ممسكاً بيديه الصندوق الذي يضم مصير البشر.. و الذي يكافئ **صندوق باندورا** الذي سأتي على ذكره لاحقاً..

بدأت علامات الدهشة و الفضول جلية على محيا الجميع خاصة الملياردير ديونيسوس تجاه الفكرة التي طرحها البروفيسور بخصوص القدر، و هو على جهل تام بأنه على موعد مع هذا الإله الأعمى بعد ساعة من الزمن ليفتح له صندوق مصيره شخصياً و يغيره إلى الأبد فيجعله يبصر من جديد ..

● جاك : ننتقل الآن إلى الشق الثاني من المحاضرة و هو التشابه الغريب بين بعض الأساطير الإغريقية و قصص الأنبياء في الأديان السماوية و سأشرحه في عدة نقاط متتالية :

◀ نستهل هذه المقاربة من آية قرآنية مذهلة عند المسلمين تقول :

((إن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما))

و التي تشير إلى الأصل المشترك للسماء و الأرض قبل الخلق و هو ما يتماشى مع نظرية الانفجار الكبير علمياً الذي فصل الفراغ عن المادة بعد أن كانا جزءاً واحداً ملتحمًا ، كذلك في الميثولوجيا الإغريقية نجد أن أورانوس إله السماء أتى بالانفلاق عن غايا إلهة الأرض بدون زوج ..

◀ ثم لدينا تزواج غايا التي تمثل الأرض أو الممنوح مع أورانوس الذي يمثل السماء أو المانح بالمطر سر الحياة و الذي أتى منه جميع الآلهة لاحقاً كقصة حواء ممثلة الإناث و آدم ممثل الذكور الذين نتج عن تزاوجهما جميع البشر .. فكما نلاحظ وحدانية الزوج في القصتين ، إذ كان من الممكن مثلاً أن ينشأ الآلهة عند الإغريق عن تزواج عدة أزواج من الآلهة الأوائل مثلاً .. و في هذا الصدد نشير إلى ولادة أورانوس من غايا بدون أب كقصة العذراء مريم و ابنها المسيح .. ليصبح أورانوس بعدها أب جميع الآلهة أي أنه الأب و الابن بنفس الوقت كما في العقيدة المسيحية

◀ ننتقل إلى قصة جديدة و هي قصة التهام الجبار كرونوس لجميع أبنائه خوفاً على عرشه كقصة فرعون مصر الذي قتل جميع الرضع الذكور حماية لنفسه و حكمه فيأتي زيوس الذي نجا من أبيه بمساعدة أمه ريا التي أعطت كرونوس حجراً عوضاً عن زيوس ليبتلعه ثم يقضي زيوس بمساعدة أخوته على كرونوس كقصة النبي موسى الذي نجا من قتل الفرعون و قام بمساعدة أخيه هارون بالقضاء على الفرعون ..

◀ و في نفس السياق نذكر قصة النبي يونس الذي ابتلعه الحوت و نجا في أحشائه لفترة من الزمن قبل أن ينقذه الله منه ، و هي قصة تحاكي ابتلاع كرونوس لأبنائه لفترة أيضاً قبل أن ينقذهم زيوس من أحشائه ..

◀ ثم لدينا قصة هركليس الشاب الخارق نصف الإله الذي نتج عن تزواج إله هو زيوس مع أنثى بشرية هي **ألكميني** .. كقصة المسيح أو ابن الله حسب العقيدة المسيحية الذي يحمل الطبيعة البشرية و الإلهية معاً و كما أقدم هركليس على مغامرة من **12** مهمة مستحيلة تشبه المعجزات ، جمع المسيح حوله **12** تلميذاً في جولاته و مغامراته على الأرض و قام بمعجزات حقيقية أمام أعينهم ..

◀ قصة أخرى عن هاديس إله العالم السفلي الذي فتن ببيرسفوني ابنة زيوس و ديميتير إلهة الطبيعة و الأراضي المزروعة ، و كانت ابنتها الوحيدة الجميلة التي عجز الفنانون عن تصويرها من جمالها الأخاذ ، فقام هاديس بإخضاعها و إقناعها بالزواج منه .. و هنا نجد قصة النبي سليمان الذي فتن ببلقيس ملكة سبأ الحسنة التي تعالت و تمردت عليه لكنه أخضعها و أقنعها بدعوته ..

◀ و هنالك أطلس الذي يحمل على عاتقه عبء الكون بأكمله متحملاً
الآلام بصبر و ثبات ، و نجد هنا التشابه مع المسيح الذي حمل على كاهله
صليبه و خطايا البشر ، وكذلك أيوب الذي عانى الويلات و تقبلها بصبر و
تحمل ..

◀ ننتقل إلى قصة أخرى مع دايدالوس ذي المكانة العالية لكونه مخترعاً
عبقرياً، حرفياً ماهراً ونحاتاً مشهوراً في موطنه الأم أثينا و ابنه إيكاروس
الذين سجنهما الملك مينوس في قمة برج عالية لخرقهما قوانينه و قوانين
الآلهة فاخترع دايدالوس وسيلة للهروب بصنع زوجين من الأجنحة
الضخمة كي تتناسب مع وزنيهما، مستخدماً ريش الطيور الذي يتساقط
منها على قمة البرج، وباستخدام أعواد الشمع قام بلصق الريش بعضه
ببعض ..

وبعد أن تمكن من الانتهاء من الأجنحة قام باللباس إيكاروس جناحيه
وأخبره محذراً: (لا تحلق قريباً من المحيط يا بني حتى لا تبطل الأجنحة،
وتشكل ثقلاً عليك فتسقط في المياه غريقاً ، وإياك أن تحلق عاليًا بالقرب
من الشمس حتى لا تذيب حرارتها الشمع المتواجد على الأجنحة وتتفكك
من بعضها وتسقط ميتاً على الأرض) لذلك كان الحل الأمثل حسب
توجيهاته هو الطيران على ارتفاع متوسط ..

بعد أن تجهز الرجلين انطلقا من قمة البرج، وكان إيكاروس ووالده
دايدالوس أول من تمكنا من الطيران من البشر على الإطلاق ..

ظل دايدالوس يطير بحذر في المنتصف، لكن إيكاروس استحوذ عليه
الشعور بنشوة الطيران، وغلب عليه الإحساس بالألوهية فارتفع عاليًا،
وكان والده يشاهد ارتفاع ابنه مبتعداً عنه ومتجهًا ناحية الشمس فكان
مفزوعاً لا يستطيع تغيير مصير ابنه الوخيم، حتى أذابت حرارة الشمس
المرتفعة الشمع من على جناحي إيكاروس، فسقط إيكاروس من السماء
ووقع ميتاً بمخالفته وصايا والده ، و لا بد أنكم جميعاً تذكرتم قصة النبي
نوح الذي أوصى ابنه كنعان أو يام بحسب المصادر المعروفة بركوب
سفينة النجاة معه لينجو بروحه من الطوفان فخالف توصياته و تجاهلها
ليغرق صريعاً في مياه الطوفان أمام أعين والده الذي عجز عن تغيير
مصيره ..

◀ بمناسبة الحديث عن الطوفان و سفينة نجاه النبي نوح نجد أسطورة إغريقية أخرى تتحدث عن ابنة باندورا - التي سنتطرق إليها لاحقاً - و تدعى **بيرا** التي تزوجت من ابن أحد الجبابرة (بروميثيوس) و يدعى **ديوكاليون** .. فقد غضبت آلهة الأوليمب من هذا الزواج بسبب خلافها التاريخي مع الجبابرة فأرسلت طوفاناً عظيماً ليغرقهم .. لكن بروميثيوس علم بأمر الطوفان فحذر ابنه و زوجته منه فركبا سفينة ضخمة نجت من الطوفان الذي أغرق البشر ليعيدا بعده تكوين البشرية ..

◀ هنالك أيضاً قصص العمالقة في الميثولوجيا الإغريقية التي أكدت الأديان السماوية وجودهم بذكر قوم **يأجوج و مأجوج** الذين قام **الاسكندر الأكبر ذو القرنين** بحجزهم خلف سد منيع في آسيا الوسطى و هي رواية مذكورة في جميع الكتب السماوية ..

◀ و لدينا قصة الجحيم الذي يحشر فيه الأشرار و الجنة التي تستقبل الأخيار و هو مصطلح مكافئ لعالمي **إليسيون** للصالحين و **تارتاروس** للطالحين في الميثولوجيا الإغريقية.

◀ نختم أخيراً بقصة **ناقّة النبي صالح** التي حذر قومه من عقرها كي لا تلحق بهم لعنة الله و الشرور فلم يستجيبوا له و عقروها فدفعوا الأثمان غالية .. نجد هنا قصة مشابهة عن **صندوق باندورا** و هي أول امرأة بشرية ، أنشأتها **هيفايستوس** بناءً على أوامر من زيوس ومنحتها الآلهة المختلفة بعضاً من أعظم صفاتها وفضائلها ، و جعلت الآلهة باندورا وشقيق **بروميثيوس** **إبيميثيوس** يلتقيان، وأدى ذلك في النهاية إلى زواجهما .. و في ذات يوم تلقت باندورا صندوقاً مغلقاً و غامضاً مرسلاً لزوجها مع تحذير ألا تفتحه، تم فيه قفل جميع شرور العالم .. ومع ذلك ، كانت إحدى الهدايا التي تلقاها باندورا هي هدايا الفضول و التمرد .. و ذات يوم آخر ، فتحت المرأة الصندوق لترى ما بداخله ، مما تسبب بخروج كل الشرور من الصندوق وانتشارها في جميع أنحاء العالم..

أغلقت باندورا الصندوق بفزع لكن بعد فوات الأوان فالشرور انتشرت، و لم يتبق للبشر سوى شيء وحيد و هو الأمل الذي خرج أيضاً من الصندوق لذلك كرسست باندورا نفسها لتقديم الأمل للبشر ، من أجل مساعدتهم على تحمل شرور و تقلبات العالم .. و من هنا أتت عبارة ((الأمل يولد من رحم

(الأم) .. وهذه القصة تتشابه أيضاً على نحو غريب كما توقع بعضكم مع قصة آدم و حواء و شجرة التفاح التي نهاهما الله عن قطف ثمارها لكن الفضول و التمرد دفعهما لمخالفة الوصية فدفعا الثمن بالخروج من الجنة و النزول إلى الأرض .. و قصة الإغواء بثمرة التفاح نجدها أيضاً في أسطورة إغريقية أخرى و هي تفاحة الشقاق الذهبية التي نقشت عليها إلهة الشقاق والنزاع ((إريس)) جملة : ((إلى الأجل)) ثم دحرجتها إلى جبل الأوليمب حيث اجتمع الآلهة هناك في حفل زفاف تيثس و بيليوس ؛ فقد كانت إريس غاضبة لأنها لم تدع إلى الحفل فقررت بث الشقاق و النزاع بين الآلهة و تحويل الزفاف إلى صراع ..

بالفعل وقع الخلاف المنشود عندما ادعت كل من هيرا، وأثينا، وأفروديت أحقيتها بالتفاحة لكونها الأجل، ولم يستطيع أحد من الآلهة أن يحسم الخلاف بينهم ، فاختار زيوس كبير الآلهة باريس الطروادي للحكم في هذا النزاع كونه معروف برأيه المجرد و المحايد، فحكم بانها من حق أفروديت لأنها الأجل، فوعده كهدية له أن تزوجه أجمل نساء العالم في زمنه و كانت هي ((هيلين)) التي تركت زوجها و هربت مع باريس فكانت النتيجة حرب طروادة الشهيرة .. لنجد مجدداً التشابه بين التفاحة و الإغواء ثم تلتها العواقب الوخيمة ..

صمت البروفيسور مجدداً للحظات شرب فيها قليلاً من الماء ثم تابع كلامه ● جاك : هكذا ينتهي الشق الثاني من محاضرتنا لليوم فهل هنالك من أسئلة حضرات السادة و السيدات ؟

لم يقاطع أحد البروفيسور في شرحه و كأن الجميع يرجوه أن يكمل محاضراته الشيقة ..

● جاك : إذاً نكمل محاضرتنا بالانتقال إلى الشق الثالث و الأخير منها و هو مقارنة صغيرة للميثولوجيا الإغريقية مع الظواهر الكونية .. و في هذا الصدد لدينا ثلاث نقاط مبهرة :

◀ النقطة الأولى و هي الإلهة الأولى التي نشأ منها كل شيء و هي

تشاوس التي يعني اسمها باللغة الإنجليزية الفوضى و قد كانت بالفعل بالنسبة للإغريق إلهة الفوضى و الفراغ الكوني ، و هذا مذهل بالفعل إذ يصف بدقة حالة الكون الأولى قبل الانفجار الكبير و بعيده من فوضى و فراغ ، و قد وصفها الشاعر الإغريقي أوفيدوس بقوله :

((إنها القاع الذي لا نهاية لعمقه، والمادة الخام

المتفجرة التي لا حياة فيها، والفضاء القاسم والفاصل بين

السماء والأرض))

هذا الكلام يفجر العقل حرفياً ، فكيف تمكن الإغريق من التنبؤ بحالة الكون الأولى الفعلية ، فلا يخفى عنكم أنه كان بمقدورهم أن يقولوا أن الكون هو على حاله منذ الأزل ، أو أن عدة آلهة معاً موجودين قبل الخلق تعاونوا على خلق الكون .. أما أن تشير الأساطير الإغريقية إلى أن الكون الأول كان عبارة عن فراغ و فوضى فهو أمر مدهش للغاية .. و أرى من أعينكم جميعاً مدى اندهاشكم و صدمتكم من هذه المقاربة العجيبة التي لا تفسير منطقي لها ..

◀ النقطة الثانية تتطرق إلى فكرة ولادة النور من رحم الظلام ، فكما نعرف في الوسط العلمي بأن الكون في حالته الأولى كان يلفه الظلام من كل جانب قبل أن تولد النجوم و ينبعث الضياء في أرجاء الكون ، و مرة أخرى تذهلنا الميثولوجيا الإغريقية بولادة هيميرا إلهة النور من إيريبوس إله الظلام و ليس العكس ، فكيف تمكنوا من معرفة الترتيب الصحيح لمجريات الأحداث مجدداً ..

◀ النقطة الثالثة و الأخيرة تتطرق إلى الإله أيروس أو إله الانجذاب الكوني و هو بحد ذاته اسم غريب و علمي بامتياز يصف تماماً حالة الكون الذي يتوسع بنسب معينة و دقيقة بسبب الانجذاب الكوني سامحاً للحياة بالنشوء و الاستمرار .. و هذا يقودنا إلى **بوزون هيغز** المكتشف حديثاً و الذي أحدث ضجة هائلة في الوسط العلمي و هو الجزيء الذري المسؤول عن حصول الجزيئات الذرية الأخرى (وبالتالي كل الأجسام في الكون) على الكتلة و بالتالي الجاذبية .. إنَّ مجرد تطرق الميثولوجيا الإغريقية إلى

مفهوم الانجذاب الكوني كأحد الآلهة الأوائل هو بحد ذاته لغز خطير و محير و لا تفسير واضح أبداً له ..

و بسبب هذا الارتباط الغريب بين الميثولوجيا الإغريقية و بين علوم الفلك و الفضاء سميت أغلب الكواكب و النجوم و المجرات و رحلات الفضاء و المركبات الفضائية على اسم آلهة و أساطير الإغريق تكريماً و تخليداً لهذه الميثولوجيا العريقة و المذهلة كحال كوكب أورانوس و حزام كويكبات أستريا و نجم أوريون و مجرة إندروميذا و رحلة أبولو الفضائية ..

و بختام محاضرة اليوم يبدو أننا لا نعرف عن الميثولوجيا الإغريقية سوى القليل بعد ، انطلاقاً من التوحيد عندهم ، مروراً بأساطيرهم المتشابهة على نحو غريب للغاية مع قصص الأنبياء ، انتهاءً بتفسير الظواهر الكونية الغريبة من قبلهم ، و من المؤكد أن هنالك أسراراً كثيرة أخرى تنتظرنا في حنايا هذه الأساطير القريبة للغاية من الواقع و كأنها حية بالفعل !!.. شكراً مجدداً لتشريفني بحضوركم هذه المناقشة المتواضعة و أترك الآن فرصة للسادة و السيدات للمداخلة و السؤال و مشاركة وجهات النظر ..

صفق الحضور بحرارة مطولاً لمحاضرة البروفيسور الشيقة و تعالت الأيادي بينهم للمشاركة في هذا الحدث غير المألوف ..

فرنسا / باريس ..

بعد انتهاء المحاضرة ..

خرج ديونيسوس ومساعدته هيكتور من قاعة المحاضرات وكأنهما خارجان من كهف أسطوري انشق عن جدران الزمن. كان الهواء مشبعاً بدهشة لم يختبراها من قبل؛ دهشة تقف على عتبة الوعي بين المعرفة والأسطورة.

كلمات البروفيسور جاك فورنييه ما زالت تتردد في رأسيهما كأصداء

كاهن في معبد نائم.

كان ديونيسوس يبتسم بتلك الابتسامة التي لا يعرفها إلا من تعرّف على جزءٍ مخفي من نفسه، وقد بدا عليه فخرٌ عارم بأصوله الإغريقية، كما لو أن أثينا نطقت من خلال جاك، وأعادته إلى زمن لم يعد فيه الملوك بشرًا فقط.

ركبا سيارتهما السوداء، وانطلقت بهم في شوارع باريس الغارقة في عاصفة مطرية عنيفة، المطر يجلد الزجاج وكأن السماء مصمّمة على تعميد هذه الليلة بشيء غريب.

كانت الموسيقى خافتة، والمزاج ثقيلًا بجلال الأفكار. لكن لحظات قليلة و كل شيء بدأ بالثوران لينزل إله القدر قضاءه على المشهد ، فبينما كانت السيارة تلتف حول منعطف حادّ قرب نهر السين، خرج فجأة من بين الضباب شاب أشعث الثياب، يركض هاربًا من المطر أو من شيء أعمق.

ضغط هيكتور على الفرامل، أدار المقود في اللحظة الأخيرة و تفاداه ، لكن الأرض الزلقة أخرجت المقود من سيطرة يديه و تدرجت السيارة على المنحدر، وقبل أن تسقط إلى النهر، توقّفت كأن القدر أمسك بها بأطراف أصابعه.

ثم حدث ما لا يمكن توقعه :

الزمن توقّف.

المطر سكن.

القدر ترجل في صورة متشرّد.

ركض المشرد نحو السيارة، وسحب الجسدين الهامدين منها، جسدين كادت لعنة المال و الموقع أن يحولا دون إنقاذهما لولا نبض إنساني خالص.

بعد نصف ساعة من إدخالهما المستشفى، فتح هيكتور عينيه ببطء، كمن يعود من غياهب حلم مضطرب. ساد الغرفة صمت لا يخترقه سوى طنين الأجهزة ونبض الحياة الذي يكاد يُسمع. كان الألم نائمًا في ساعده الأيسر،

كسرٌ بسيط، لكنه أشبه بوشمٍ من القدر، تذكّار حيٍّ على حادثٍ لم يكن ليقع لولا تلك اللحظة التي قرر فيها السائق أن ينقذ متشرّدًا من مصير غامض. رفع رأسه قليلاً، تمتم باسم صاحبه :

○ هيكتور : سيد ديونيسوس؟

لكن لم يأتِه رد. علم حينها أن الأمور أسوأ مما كان يتخيّل.

أما ديونيسوس، فقد كانت حالته على شفير الفناء. أُدخل إلى غرفة العمليات بحالة نزف حادة. تمزّق طحاله كما يتمزّق كبرياء رجل ظنّ أن الحياة تُروّض بالمال. الدماء تتسرب منه كأسرار قديمة أفلتت من قبضته. احتاج إلى نقل دم فوري، فتبرّع هيكتور بما استطاع، لكنه لم يكن كافياً.

في تلك اللحظة، وقف الشاب الذي لا يملك شيئاً. فرانسوا.

ذاك المتشرّد، الذي لا عنوان له سوى الأرصفة، ولا وطن إلا الجسور المنسيّة.

بهدوء يشبه العزم، مدّ ذراعه، وقال للطبيب :

○ المتشرّد : زمرة دمي ○. خذوا ما شئتم.

تبادل الطاقم الطبي النظرات، فـ"○" هي المعطي العام. وديونيسوس، كما اتضح، يحمل زمرة **AB**، الآخذ العام...

وكأن الدم ذاته قرر أن يُمارس دوره الرمزي.

فرانسوا يعطي. ديونيسوس يأخذ.

الحياة تقلب المعادلة. من لا يملك، ينقذ من يملك كل شيء.

بينما كان الدم يتدفق من جسد المتشرد إلى الوريد المتعجرف، كانت الطبيعة تعيد ترتيب قوانينها بهدوء عميق.

ديونيسوس لم يكن يعاني فقط من النزف. كانت هناك كسور في الحوض، والساق اليسرى، وارتجاج شديد في الدماغ. جلوسه في مقعد الموت، دون حزام أمان، كان كأنما تحدٍ ساخر للقدر... تحدٍ خسره بجدارة.

مرّت الأيام كأنها نواح زمنيّ بطيء. أسبوعٌ كاملٌ ظلّ فيه ديونيسوس غارقاً في غيبوبة، يتأرجح في مكانٍ ما بين الحياة والحلم، بين ما كان عليه وما قد يصبحه. وعندما استفاق، كان الصداع كضربة صمّاء على باب الوعي، والتخليط الذهني كسحب شتوية تحجب شمس الإدراك.

تأمل السقف الأبيض، ثم التفت ببطء يتفحص الغرفة الغريبة. لم يتعرف على شيء.

كل شيء يبدو له كنسخة باهتة من عالم اعتقد أنه يعرفه.

وعلى الطاولة قرب السرير، باقة ورد فاخرة بعطرٍ خافت، ورسالة بخط أنيق :

(أتمنى لك شفاءً عاجلاً ، ديونيسوس --- سيلينا)

قرأها، ومرّ الاسم على ذهنه كنسمة سريعة. لكن وعيه ظلّ متشبّثاً بشيء آخر... مشهد لا يزال غامضاً... يد تنتشل من تحت المطر... وجهٌ لم يعرف ملامحه بعد.

دخل هيكتور، جبيرته ما تزال في مكانها، لكن قلبه بدا أثقل.

اقترب وقال باهفة :

○ هيكتور : حمدا لله على سلامتك .. لقد نجونا باعجوبة .. كنا سنموت

لولا شاب مشرد يُدعى فرانسوا. أنقذنا، ثم تبرّع لك بدمه. لقد أدرك بضميره أن الحادث وقع لأنني حاولت تفادي صدمه .. لذا أنقذنا ثم غادر بعدها. لم يترك سوى اسمه ... لكنه لمح إلى أنه يعيش تحت جسر من جسور السين.

سكت هيكتور لبرهة ، ثم أضاف :

○ هيكتور : غريب... لم يطلب شيئاً. لم ينتظر كلمة شكر.

ساد الصمت.

ديونيسوس أغلق عينيه للحظة. كل ما فعله فرانسوا كان يتسلل إلى روحه : التضحية، النبل، الغياب.

تغيّر كل شيء في حياة ديونيسوس بعد الحادثة.

كان خروجه من المشفى شبيهاً بخروج طائر أسطوري من رمادٍ لم يتخيله يوماً رماده. لم يكن مجرد تعافٍ جسدي، بل ميلاد آخر لرجلٍ طالما ظنّ أنه مكتمل، بينما كان مجوّفاً من الداخل.

كان من قبل يتعامل مع العالم كأنه قائمة ممتلكات: سيارات تُقاس بسرعتها، منازل بأرقام طوابقها، يخوت بطولها، وطائرات خاصة بعدد المقاعد الجلدية. كان يقتني لا يستخدم، بل ليُشعر العالم أنه فوقه.

أما الآن، فتمة كسرٍ غير مرئي في داخله، كسرٌ لم تُجبره الجبائر، بل وسّع بصيرته. كان ينظر إلى المارة في الطرقات فيراهم للمرة الأولى بشراً، لا أرقاماً أو طبقات.

كان يتذكّر وجه المتشرّد فرانسوا، ذلك الوجه الذي جاءه من عتمة الجسور لينقذه، لا من الموت، بل من نفسه.

الآن فهم.

هو صاحب زمرة الدم **AB**، الآخذ العام، الأناني النقي، الممتصّ لكل ما حوله.

وذاك الرجل المجهول، المنسيّ، كان **O** ... المعطي العام.
نُقِشت هذه المفارقة في روحه كما يُنقش نقشٌ يوناني على جدار معبد قديم:
ما تمنحه، يعرّفك أكثر مما تملكه.

لقد فُتح صندوق باندورا الخاص به، لا على يد امرأة، بل على يد إله القدر نفسه، المختبئ في زيّ متشرّد.
ومع كل مأساة خرجت من الصندوق، خرج شعاع صغير من الأمل.
كان الأمل هذه المرة، لا للبشرية جمعاء، بل لديونيسوس وحده.

بعد أيام قليلة من خروجه من المستشفى، كان ديونيسيوس يعيد ترتيب روحه على ضفة نهر السين و هيكتور يدفع كرسيه بهدوء ..
كان الجو غائماً ، بارداً، و ينذر بمطر وشيك ..
الموج يعكس الضوء كالمرآة، وكل عبّارة تمرّ تشق النهر وكأنها تمزق صمتاً في ذاكرتهما.

جلس هيكتور بجانبه، صامتّين.
ثم، فجأة، وكأنه فكّ قيداً قديماً في حنجرته، قال ديونيسوس بصوت منخفض، لكن مجبول بالحكمة المتأخرة :
● ديونيسوس : أتعرف من أتذكر الآن يا هيكتور و أنا سجين هذا الكرسي المتحرك ؟

○ هيكتور : من سيد ديونيسوس ؟

تنهد ديونيسوس تنهيدة حسرة و ندم ..

● ديونيسوس : أتذكر ابن بلدي المليونير اليوناني الشهير أرسطو أوناسيس أغنى رجل في العالم في العصر الحديث عندما سأله أحد الصحفيين و هو على فراش المرض : ما هي أمنيتك الأخيرة في هذه الحياة ؟ ، فأجابه : أن يأخذ طبيب ما كل ثروتي مقابل أن يعيد لي صحتي

بالفعل إن المال ليس كل شيء يا هيكتور ، فثمة مواضيع معنوية أخرى كثيرة أهم منه لا تشتري بالمال ، كحال المتشرد فرانسوا الذي يفتقر لكل مقومات الحياة و رغم ذلك أنقذنا من الموت المحقق كما تبرع لي بالشيء الوحيد الذي يملكه و هو دماؤه لأشفي ، إن عليّ دين كبير لهذا الإنسان النبيل ، و في الحقيقة هذه الحادثة رسمت الرتوش الأخيرة لمستقبل أرخبيل الجزر الذي اشتريته في المحيط الأطلسي منذ أيام .. سأجعل من هذه الجزر يا هيكتور موطناً لبعض المتشردين المحتاجين الذين سأنتقيهم من قارات العالم كلها ، صحيح أنها جزر صخرية الآن لكنني سأعيد هيكلتها من جديد و أجعلها خضراء كواحة غناء كما سأبني لهم منازل و أمدهم برواتب ثابتة ليعيشوا فيها برخاء يعوضهم عن أيام الحاجة و الحرمان في حياتهم المنصرمة ، على أمل أن يكون عملي هذا محفزاً للأثرياء الآخرين كي ينتهجوا نفس هذا النهج لإنقاذ البشر المحتاجين و إسعادهم ، فهم فعلياً من يستحقون الحياة على هذه الأرض إذا أردت أن تعرف أين تجد الإله يا هيكتور فابحث عنه بين المحتاجين فهو يسكن في ضلوعهم و يتحدث بلسانهم ..

اغرورقت عينا هيكتور بالدموع و هو يشعر بسعادة لم يختبرها طوال حياته جرّاء تغيير طريقة تفكير سيده إلى النحو الذي تمناه من صميم قلبه ..

○ هيكتور : هذا تصرّف صائب و نبيل من حضرتك ، لقد كنت أود منذ زمن طويل أن ألفت انتباهك إلى هذه الحقيقة لكنني اعتبرت ذلك تدخلاً في حياتك الشخصية ، و لا تصدق سيد ديونيسوس مدى سعادتي بتوصلك إلى هذه الخلاصة الحكيمة .. أنت تذكرني الآن من وحي المحاضرة التي شهدناها هنا سوياً منذ أسابيع بأسطورة الملك ميداس الإغريقية فقد وصلت معاً إلى نفس النتيجة و الحكمة ..

● ديونيسوس مبتسماً : أثرت فضولي كعادتك أيها الموسوعة البشرية المتنتقلة !! علام تنص هذه الأسطورة ؟

○ هيكتور : كان الملك ميداس ملكاً ثرياً جداً ، لديه ذهب أكثر من أي ملك آخر في العالم .. كما كان له أيضاً ابنة جميلة و لطيفة تدعى **ماريجولد** ، لكنها لم تكن بالنسبة له أغلى من ذهبه الأصفر اللامع كحال كل شيء آخر ، فقد كان يتمنى الحصول على المزيد منه باستمرار ليزيد ثروته و رصيده فقد كان ذلك مصدر السعادة الوحيد له .. ذات يوم ، بينما كان الملك يحسب أمواله كعادته ، ظهرت أمامه جنية عرضت عليه أن تمنحه أمنية واحدة فقط .. فتمنى الملك ميداس بدون تفكير أن يتحول كل شيء يلمسه إلى ذهب .. استهجنّت الجنية طلبه و حذرتة من أن الحصول على هذه الأمنية لن يسعده بل سيكون وبالاً عليه، لكن الملك لم يأبه لكلامها فوعده بتنفيذ أمنيته من صباح اليوم التالي .. استيقظ الملك ميداس في الصباح متلهفاً للتحقق مما إذا كان وعد الجنية صادقاً .. فلمس سريره ، و بالفعل تحول السرير إلى ذهب . خالص . ثم لمس الكرسي والطاولة ، فتحولوا بدورهما إلى ذهب .. لم تتسع الدنيا لسعادة ذلك الملك فقد ايقن حسب ظنه أنه امتلك كل شيء لا محالة .. لكن في وقت لاحق من ذلك اليوم ، و بعد أن عطش الملك و جاع ، حاول أن يشرب الماء ويأكل طعامه ، لكن ما إن لامست شفثاه الماء حتى تحول إلى ذهب فلم يستطع أن يشرب .. كذلك تحول الخبز أيضاً إلى ذهب في يديه فلمن يتمكن من أكله .. في هذه الأثناء ظهرت ابنته ماريجولد تركض في الحديقة نحوه ثم احتضنته لكنها تحولت على الفور إلى تمثال ذهبي بدورها ..

امتلاً الملك ميداس بالرعب مدركاً خطورة ما فعله و عواقب أمنيته الوخيمة .. كل السعادة التي شعر بها عندما تلقى هديته لأول مرة ذهبت الآن .. فهو يملك كل ذهب العالم لكنه خسر كل شيء آخر و أدرك أن اسم الذهب يليق به حرفياً فقد ذهب معه كل شيء جميل في حياته .. دعا الجنية وتوسل إليها أن تسترد أمنيتها و تعيد كل شيء إلى حاله .. فسألتها الجنية إن كان لا يزال يعتقد أن الذهب هو أعظم شيء في العالم ، فنفى الملك و أطرق رأسه باكياً وقد تعلم الدرس .. عندما اقتنعت الجنية بصدقه، طلبت منه أن يذهب إلى النبع في الحديقة ، ويملاً إبريقاً بالماء ، ثم يرش كل ما لمسه بالماء .. اندفع ميداس إلى النبع بلهفة فملاً الإبريق ثم

توجه إلى ابنته أولاً و رشها بالماء .. وعلى الفور ، عادت إلى طبيعتها ،
و أعطت والدها حضناً و قبلة .. رش الملك بعدها الطعام الذهبي ثم جلس
مع ابنته لتناوله و هو أكثر تقديرًا لقيمة الطعام و الشراب و وجود ابنته في
حياته .. مؤمناً بأن هنالك في هذه الحياة ما هو أهم بكثير من الذهب و
المال ..

● ديونيسوس مبتسماً بإعجاب : يا لها من قصة معجونة بالحكمة و العبرة
.. أنت محق كعادتك يا هيكتور .. التشابه بين قصة الملك ميداس و قصتي
كبير على نحو مذهل .. فقد وصلت إلى مرحلة في حياتي تحول كل شيء
ألمسه إلى ذهب بالفعل و كنت منتشياً بذلك ، معتقداً أنني بلغت الكمال في
الحياة .. لكن حادث باريس أعادني إلى رشدي كما حدث مع الملك ميداس
لأقدر قيمة الثروات الحقيقية في الحياة .. و اليوم أنا شخص آخر تماماً ..
خجل مما كنت عليه و مصمم على تصويب أخطاء الماضي ..

○ هيكتور : و سيسعد والداك في الجنة بقرارك هذا بكل تأكيد ..

● ديونيسوس : ما يهمني حقاً الآن هو إسعاد هؤلاء المحتاجين .. ادفعني
بقبضتيك يا هيكتور و هيا بنا نبحث عن فرانسوا فلدي كلام هام مع هذا
الإنسان النبيل ..

بعد أن طاف ديونيسوس ورفيقه هيكتور بثلاثة جسور على ضفاف نهر
السين، تنقلب عقولهم بين حنين وسؤال لا ينفك يطارد نظراتهما في وجوه
المتشردين، قادتهما الأقدار إلى الجسر الرابع.

وهناك، في زاوية معتمة تضيئها نيران صغيرة خافتة في برميل عتيق،
جلس فرانسوا، متكوراً حول دفة يائس كأنما يحتضن الحياة بيدٍ ترتجف
من برد العالم، لا من الطقس وحده.

رثُ الثياب، نحيل كقصيدة مهجورة، يتصبب من وجهه ضوء النار في
خطوط تعكس عمراً لا يليق بشابٍ في الخامسة والعشرين. كان كأنه ظلّ
إنسان، لا إنساناً كاملاً، وكأن الحياة قد أكلت من ملامحه كما تأكل السنون
أطراف جدران الكنائس القديمة.

اقترب ديونيسوس منه بخطى ثقيلة، لا بثقل الجسد، بل بثقلٍ داخلي جديد لم

يعتده.

ثم جثا إلى جانبه، ومدّ يده إليه بحرارة، كأنّه يُعيد للعالم توازنه من خلال مصافحةٍ واحدة.

قال بصوت مفعم بالامتنان، يكاد يخنقه التأثر:

● ديونيسوس : أنا ديونيسوس... الرجل الذي أنقذت حياته.. لا أعرف كيف أصف لك امتناني... لكني أتيت لأردّ ديني.

رفع فرانسوا رأسه بتوجس خفيف، وبدت في عينيه دهشة كمن رأى ملاكاً يخرج من الضباب. لم ينطق، واكتفى بوميض ابتسامة خجولة، شبه منسية.

تابع ديونيسوس، وقد شغّ في صوته وعدّ الخلاص:

● ديونيسوس : أنا ملياردير أمريكي .. و أريد بشدة أن أنتشلك من هذا المكان... أن أعيدك إلى الحياة التي تستحقها ، هناك في جنّتي الصغيرة على أرخبيل سانت بيتر وسانت باول.. مكان لك .. لا برد فيه، لا جسور ، لا نسيان. فقط شمس وبحر وحياة كريمة... إن أردت.

لم يفكر فرانسوا لثانية و هو الذي يئس من حياته البائسة ظاناً أن ما من فرج أو أمل يلوح في الأفق ، فوافق على الفور بمنتهى السعادة و الامتنان ، يكاد لا يصدق نفسه كيف ترسم أنامل الإله القدر الصدف العجيبة لتغيير حياته المؤلمة جذرياً .. فرانسوا الشاب اليتيم في مقتبل العمر الذي ترعرع في أحد ميّاتم باريس ثم تنقل بين مهن عديدة مهينة كي يكسب لقمة العيش لكنه رقد منها جميعاً بسبب حياته البائسة و حالته المزرية ..

ابتسم، ودمعة متكورة في عينه اليسرى تحاول أن لا تسقط كي لا تفسد لحظة الرجاء، وهمس :

○ فرانسوا : بالطبع ... أقبل.. ما كنت أظن أن أحداً ما زال يراني.

هنا، شعر ديونيسوس أن قلبه يضيق ويتسع في آن. كأن ما فعله لم يكن معروفاً، بل تحرراً من ماضيه هو.

نظر إلى الشاب بوجهه المُشعّ بتحوّل مفاجئ، كأنّ النيران التي كانت تحميه من البرد قد تراجعت أمام نار أخرى أشعلها الأمل في داخله.

ثم سأله بصوتٍ خافت، محمّل بدهشة لا تنطفئ :

● ديونيسوس : هنالك سؤال أخير سيد فرانسوا ..

○ فرانسوا : تفضل سيدي ..

● ديونيسوس : لماذا كلفت نفسك عناء إنقاذنا بعد الحادث ثم التبرع بدمائك لي ؟

○ فرانسوا : لأنكم أخوتي في الإنسانية سيد ديونيسوس .. كيف أرى أمامي أناس يحتاجون المساعدة و بإمكانني تقديمها لهم ثم أتلأ عن فعل ذلك ، إنّ سيدنا يسوع المخلص يقول :

((إن ابن الإنسان لم يأت ليخدم ، بل ليعدم الآخرين))

و ليبذل نفسه فدية عن كثيرين))

و عليّ أن أمشي على دربه سيدي .. فهو درب الخلاص للبشرية ..

● ديونيسوس : إنك تملك قلباً كبيراً سيد فرانسوا و روحاً مؤمنة عظيمة رغم الظروف القاسية التي حرمتك من أبسط مقومات الحياة الكريمة.. و أرخبيلي ينتظر أمثالك بفارغ الصبر ..

مدّ ديونيسوس يده إلى سترته الجلدية وسحب منها ظرفاً أنيقاً، دسّه في يد فرانسوا بنظرة تحمل شيئاً من الأبوة الغامضة، وشيئاً آخر من الندم العميق، كأنه يعتذر عن عقود من اللامبالاة تجسدت فيه دون أن يشعر.

● ديونيسوس : هذا... مبلغ محترم لتبدأ به، صديقي. أردت أن يكون بين

يديك الآن، لا غداً، لأن الانتظار ظلم آخر لا يليق بك.

فتح فرانسوا الطرف بتردد، ثم نظر إلى ديونيسوس كمن يشك في واقعه، كأنه يتوقع أن يتبخر المشهد فجأة ويعود إلى جسر النسيان. لكنه لم يجد إلا اليقين في وجه الرجل الذي تغير.

● ديونيسوس : أريدك أن تشتري ثياباً تليق بك، لا بتشردك .. أن تستأجر مكاناً دافئاً، نظيفاً، فيه نافذة تطل على الحياة. وأن تشتري هاتفاً، لأننا لن نضيع عن بعضنا بعد الآن .. هذا رقمي الشخصي، احفظه في قلبك قبل هاتفك... اتصل بي متى حصلت على رقمك الجديد.

هزّ فرانسوا رأسه ممتناً، عاجزاً عن القول. كانت الكلمات تنهار داخله قبل أن تصل إلى فمه. وربما لم يحتجها، فبعض اللقاءات أبلغ من أي لغة.

ثم، ودون سابق إنذار، فتح ديونيسوس ذراعيه واحتضنه. كان العناق طويلاً، صامتاً، صادقاً، كما لو أن اثنين من قارات بعيدة تلاقتا أخيراً دون خرائط.

همس ديونيسوس في أذنه:

● ديونيسوس : سنلتقي قريباً، هناك... حيث البحر الذي يحتضن و لا يعرف معنى التشرد على الإطلاق ..

ثم انفصلا بهدوء، وخطا كلُّ منهما إلى وجهته، فرانسوا نحو الضوء الجديد،

وديونيسوس صحبة هيكتور نحو فندقٍ لم يعد يشعر أنه يليق به، إلا أن قلبه كان أخف من أي وقت مضى.

وفي السماء، فوق باريس، توقفت الأمطار للحظة، كأنَّ إله القدر قد انتهى من توقيعه الأخير.

فَاتِيُونَ الْأَرْضَ ..

الولايات المتحدة الأمريكية / نيويورك ..

بعد شهر من اختفاء الطبيب بنجامين ..

كان المحقق فرانك ومساعدته نوح جالسين في ذلك المكتب العتيق، الذي لا تغريه الزخارف ولا تغشاه مظاهر الفخامة، بل يسكنه صمت الحكمة وعبق السنين. جدرانه الخشبية تتشح بلون الكستناء الداكن، تعبق بذكريات مئات القضايا، وتطفو في فضائه رائحة خفيفة من التبغ المعتق، كأنها توقيع غير مرئي على ماضي العدالة.

على الطاولة المصفوفة بعناية عسكرية، تكدست ملفات قديمة، وعليها أكواب قهوة باردة تشهد على سهر طويل لم يجد راحته بعد. كان نوح يقلب في أوراق قضية سرقة فنية غامضة، بينما كان فرانك شاردًا للحظة، ينظر من نافذته الصغيرة نحو أضواء المدينة البعيدة، وكأن عينيه تبحثان عن ظل صديقٍ مفقود في شوارع نيويورك التي لا تنام.

فجأة، اختلّ هذا السكون بدقات هاتف المحقق الحادة، صوتٌ تقطع به أجواء التأمل والتركيز. أمسك فرانك هاتفه ببطء، وجهه رزين كما اعتاد، صوته يحمل هدوءاً واحترافية تعكس سنوات الخبرة، لكنه لم يكن يدري أن المكالمة القادمة ستدفع بهما إلى دوامة جديدة من الأسرار التي لا بد من كشفها.

● فرانك : المحقق فرانك معك ..

أنصت قليلاً ثم قال ..

● فرانك : أحيطوا المكان جيداً و امنعوا دخول أي شخص إليه ..
سننتوجه سريعاً إلى مكان الحادث ..

نظر فرانك إلى مساعدته نوح ..

● فرانك : تم العثور على جثة شاب مراهق في محيط مانهاتن مقتولاً
ضمن سيارته بعيار ناري .. هيا بنا ..

○ نوح : على الفور سيدي ..

بعد مرور ثلث ساعة، توقفت سيارة المحقق فرانك ومساعدته نوح أمام مكان الحادث، حيث كانت الأضواء الزرقاء والبيضاء لسيارات الشرطة تلَوّن الطريق الريفي بنبض من التوتر، وتخترق السكون البارد للغابة المحيطة. كانت السيارة المشبوهة مركونة بعناية على جانب الطريق، كأنما توقفت بإرادتها الأخيرة، يحيط بها طوق أمني من رجال الشرطة والمحققين الجنائيين.

ترجّل فرانك من السيارة، أشعل سيجارةً كعادته حين يوشك على مواجهة مشهد لا يُحمد عقباه، وسار بخطى ثابتة لكن ثقيلة نحو المركبة، يراقب ملامحها كمن يقرأ فصلاً مكتوباً بدم لا بحبر.

بداخل السيارة، ارتخت جثة فتى أبيض البشرة على المقود، رأسه مائل إلى اليسار، وقطرة دم غليظة ما تزال تتدلى من صدغه الأيمن حيث يظهر أثر طلق ناري نظيف، موجّه بدقة كأن القاتل كان إلى جانبه، شخصاً يعرفه، وربما يثق به... لثوانٍ، حُيّل لفرانك أن الجثة تهمس بسرّ، لكنه لم يكن هناك سوى صرير الريح بين الأغصان.

تقدّم أكثر، يدقّق بعينه المدربتين في زوايا المشهد، إلى أن استوقفه شيء صغير لكنه شديد الأهمية: ورقة مطوية انزلقت بين رأس الضحية والمقود، كأنها أرادت أن تُكتشف لا أن تُخفى.

سحبها فرانك بهدوء بعد أن أمر بتصويرها في موضعها بدقة، ثم فتحها بيده المرتجفة قليلاً تحت ضوء المصباح اليدوي. وما إن بدأ يقرأ، حتى شعر بأن دماً بارداً يسري في عروقه، كأن الكهرباء سرت فيه لا الكلمات ، كان نص الرسالة الغريب كالتالي :

هذه عقوبة فايغتون الأرعن

العين بالعين و الدم بالدم
قانوناً سن منذ زمن
و البادئ في الجرم أظلم
سيدفع الجاني ذات يوم الثمن
فقد قتل في أداة جريمته نفسها
بعد أن أفلت من فعلته كما ظن
لكن طيف الملاك التي تم دهسها
عاد من الموت لينتقم
أطلس العدالة

تجمّد فرانك مكانه، لا لغرابة النص فقط، بل لما يحمله من دلالة شخصية مزلّزة... أطلس العدالة؟! هذا اللقب لم يسمعه إلا من رجل واحد ... زميله و صديقه العزيز الطبيب بنجامين الذي اختفى فجأةً ، فهل عاد من الموت حقاً ؟ هل لا يزال حيّاً، ينتقل في الظلال كعدالة إلهية تمشي على الأرض؟

لكنّ الفرحة المبدئية بعودة محتملة لبنجامين اصطدمت بأسئلة لا تقل فداحة: من هو هذا الشاب المقتول ؟ ما الجريمة التي ارتكبها سابقاً ليُعاقب الآن ؟ ما المقصود بأداة الجريمة ؟ هل يُعقل أن تكون السيارة نفسها... أداة جريمته السابقة؟!

مدّ فرانك الورقة ببطء إلى نوح، دون أن ينبس بكلمة، وعيناه لا تزالان غارقتين في النص كمن يرى رؤيا. قرأها نوح، وحين انتهى منها، حدّق

في فرانك بذهول تام، كأن صوت الحقيقة صفعه على وجهه دون إنذار، وكأن شيئاً غامضاً عاد ليتحرك في الظلال... شيئاً كان يُعتقد أنه مات.

كانت تلك الليلة بداية فصل جديد من العدالة، لكنه لم يكن مكتوباً في سجلات الشرطة، بل في دفتر الآلهة المنسيين.

○ نوح بصدمة وقلق : الطبيب بنجامين حي؟! ..

● فرانك بابتسامة أمل : لا تفسير آخر لهذه الرسالة ..

○ نوح : و ما علاقته بهذا الشاب ؟ ..

● فرانك : لا أدري بعد .. علينا جمع المعلومات أكثر عنه و عن المدعو فايثون المذكور في الرسالة بأسرع وقت ..

في تلك الأثناء كان الطبيب الشرعي الجديد سيكوييا قد انتهى من معاينة الجثة بدقة كفحص أولي في مكان الجريمة ثم طالب بنقلها إلى المشرحة لإكمال عملية التشريح ..

● فرانك : ما نتيجة الفحص حضرة الطبيب ..؟

○ سيكوييا : سبب الوفاة قتل بمسدس عيار 9 ملم في الصدغ الأيمن و غياب المسدس يؤكد أنها ليست انتحاراً .. لا آثار لأي اعتداء أو عنف على جسد الضحية .. زمن الوفاة يقدر منذ 7 ساعات تقريباً أي حوالي الساعة 9 مساءً .. لا معلومات أكثر حالياً و سأتابع التشريح في المشفى و أزودكم بالتقرير النهائي

● فرانك : جزيل الشكر لك حضرة الطبيب ..

غادر الطبيب المكان في حين مال نوح على المحقق فرانك و همس ..

○ نوح : لو كان الطبيب بنجامين مكانه لأعطانا الآن اسم المجرم ..

ابتسم فرانك وهز رأسه موافقاً .. إن براعة الطبيب بنجامين مذهلة و لطالما اجترح المعجزات بفحصه الاستثنائي ..

تم نقل الجثة إلى المشفى و الأدلة إلى معمل التحليل الجنائي في حين طالب المحقق فرانك بمعلومات تفصيلية عن كل من الضحية و المدعو فايتون ثم قفل راجعاً مع مساعده نوح إلى مكتبه الخاص ..

قضى فرانك و نوح ساعتين من النقاش حول الظهور المفاجئ للطبيب بنجامين على مسرح الأحداث و الأسئلة الكثيرة التي تدور في فلكه .. هل هو حي ؟

ما علاقته بالضحية ؟

لماذا هو متخفٍ عن الأنظار ؟

من يقصد بفايتون و هل هو اسم الضحية ؟

و من هي الفتاة التي تم دهسها كما نصت الرسالة الغامضة ؟

دون وجود أي جواب و لو قريب عن هذه الأسئلة المنطقية الهامة !!..

وصل بعدها أول تقرير من غرفة الأرشفة بخصوص المدعو فايتون و كانت النتيجة صادمة مجدداً بالنسبة للمحقق فرانك .. إذ تبين أن فايتون هو أسطورة إغريقية شهيرة و تذكر فرانك على الفور عشق الطبيب بنجامين للميثولوجيا الإغريقية كما أخبره في مناسبتين سابقتين .. مما يعزز أكثر فرضية أنه لا يزال على قيد الحياة ..

كان التقرير عن هذه الأسطورة على الشكل التالي :

((وفقاً لما تناقلته الأساطير الإغريقية القديمة، فإن الشمس لم تكن جرمًا هائمًا في السماء، بل عجلةً مشتعلة يقودها إله الشمس هيليوس بعربة تجرّها جياذ من نار، تنطلق كل صباح من أقصى الشرق إلى مغربها، ترسم بشعاعها خط النهار، ثم تعود خفية إلى المشرق عبر نهر عميق في باطن الأرض... وهكذا يُولد الشروق وينتهي بالغروب، كل يوم.

أما فايتون، والذي يعني اسمه الساطع، فقد كان الابن البشري للإله

هيليوس من امرأة تُدعى **كليمين**، عاش معها في كنفٍ أرضيٍّ بعيدًا عن ضياء أبيه، الذي كان مشغولًا بمهمته الإلهية الثقيلة في قيادة نور النهار عبر السماوات.

وذات يوم، وبين جدران مدرسته، تجرّأ زملاؤه على إنكار نسبه، وسخروا من ادعائه بأنه ابن الشمس. جرح الاستهزاء قلبه، فانفجر باكيًا بين يدي والدته، مطالبًا بدليل يُخرس ألسنتهم. فأقسمت كليمين له أنه ابن الإله العظيم حقًا، ثم دلّته على الطريق إلى قصر والده ليأخذ من فم الشمس شهادة أصله ونسبه.

شدّ فايثون رحاله، مفعمًا بالأمل، قاصدًا الشرق البعيد، حيث يبدأ هيليوس رحلته كل فجر. وما إن بلغ مشارف قصر الشمس حتى أصيب بالدهشة، فقد تجلّت أمامه عظمة لا تطالها عينٌ بشرية: أعمدة مكسوّة بالذهب، جدران مرصعة بأحجار كريمة، وأسقف من العاج النقي، أما الأبواب فُصّلت من الفضة المصقولة كمرآة السماء. وعلى الجدران لوحات مذهلة تجسّد الأرض والبحر والسماء، كأنّ القصر نفسه اختصر الكون.

هناك، كان هيليوس على عرشه البهي، محاطًا بمواكبه الكونية: اليوم، الشهر، السنة، والساعة، وكل فصل حاضر بشخصيته؛ الربيع بإكليله الزهري، الصيف بسنابل القمح الذهبية، الخريف بعصير العنب المتخثر في قدميه، والشتاء بثوبه المتجمد وتلوجه البضاء.

حين رأى هيليوس ابنه، أشرق وجهه بمحبّة صادقة، وسأله عن سبب قدومه. فروى فايثون بحزن ما تعرّض له من سخريّة وشك، وألحّ على أبيه أن يثبت للعالم أبوته له. تأثر هيليوس ووقف بين الشهود، مؤكّدًا أبوته وشرعيته، ثم أقسم أمام الجميع أن يحقق له أمنيةً واحدة، أيًا كانت.

هنا ارتجف القدر.

فايتون، المبهور بعظمة أبيه والمخمور بقَسَم الآلهة، طلب طلبًا لم يتوقَّعه أحد... أراد أن يقود عربة الشمس بنفسه ليومٍ واحد!

تجمّد هيلوس، وشحب وجهه الناري، فقد علم حجم الهلاك الذي قد ينجم عن هذا الطلب الطائش. توسّل إلى ابنه أن يعيد التفكير، حدّره بأن حتى زيوس، سيد الأولمب، لا يجرؤ على قيادة تلك العربة، فكيف بفتى بشري؟! شرح له أن الخيول التي تجر العربة نارية جامحة، وأن المسار محفوف بالموت: إن ارتفعت أكثر من اللازم احترقت السماء، وإن انخفضت، أُحرقت الأرض.

لكن فايتون، كما يوحي اسمه، أصرّ... كان ساطعًا بغرور الشباب، متهورًا بجهل الحقيقة.

ومع أن قلب هيلوس كان ينفطر، إلا أن وعد الآلهة لا يُكسر. اضطر أن يُسلّمه العربة، بعد أن قدّم له كل النصائح الممكنة، طالبًا منه أن يلتزم المسار المتوسط دون صعود أو هبوط.

لكن... ما أن أمسك فايتون العنان، حتى أدرك أنه في مواجهة قوة تفوقه بأضعاف. الخيول، حين شعرت بضعف سائقها، جنّت، خرجت عن المسار واندفعت في جنون.

فشقت العربة السماء، وقيل إنها خلّفت وراءها درب التبانة من فرط اللهيب، ثم هبطت إلى الأرض، فيبست الغابات، وجففت الأنهار، بل أحرقت أفريقيا وجعلت بشرتها سوداء، حسبما فسّرت الأسطورة، من شدة وهج الشمس.

صرخ الناس والآلهة والجبال، وبكى البحر، وامت الفوضى. فما كان من زيوس إلا أن رفع صاعقه، وضرب فايتون ضربة سماوية واحدة، فسقط

من العربة كجمرة انطفأت، وهوت جثته المحترقة في نهر إريدانوس، الذي عُرف لاحقاً باسم بو في إيطاليا.

وهكذا... سقط فايثون الأرعن، فتى أراد أن يلمس السماء فاحترق، أراد أن يثبت نسبه فانتهى كأسطورة تحذر كل طامح يتجاوز قدره... وصارت قصته تذكيراً أبدياً أن لبعض المقاعد في هذا العالم جاذبية لا ترحم. ((

نظر فرانك و نوح إلى بعضهما بذهول بعد انتهائه من القراءة ، لم يكن هنالك ما يشير إلى وجود علاقة ما بين أسطورة فايثون الأرعن و الجريمة الحالية سوى موضوع العربة التي تتواجد في القصتين ، خصوصاً مع الإشارة إليها بأداة الجريمة في رسالة مسرح الأحداث و لم يكن هنالك من خيار سوى انتظار تقرير معلومات أكثر عن الفتى المراهق الذي عثر عليه ميتاً في السيارة ..

بعد ثلاث ساعات إضافية وصل أخيراً التقرير المنشود و كان لا يقل إثارة عن تقرير الأسطورة فايثون و يوضح كل شيء في الرسالة .. فقد نصّ التقرير على ما يلي ..

((الضحية غايل سيلاس **18** عام .. في السنة الأخيرة من المدرسة الثانوية ..

هو ابن رجل الأعمال الشهير **نيل سيلاس 51** عاماً مالك شركة **هيلوس** للمقاولات .. متهم منذ **3** سنوات بجريمة دهس فتاة مراهقة صغيرة تدعى جوليا ماكسويل **12** سنة عندما كان بعمر **15** سنة ثم هروبه من مسرح الجريمة ..

لكن الشهود وقت الحادثة أكدوا أن مراهقاً كان يقود السيارة التي تتطابق معمع مواصفات إحدى سيارات الأب رجل الأعمال .. كما أن الصورة التقريبية التي رسمها المختصون للجاني بناءً على وصف الشهود كانت تشبه إلى حد بعيد مواصفات غايل المميّزة بشعره الأحمر و النمش الغزير على وجهه .. و رغم كل ذلك تم تبرئة الشاب بفضل حكمة محاميه لعدم

توفر أدلة دامغة و قطعية ضده ثم تحولت القضية لاحقاً إلى قضية باردة))

نظر فرانك إلى نوح بذهول ..

● فرانك: تذكرت الآن تلك القضية ، إنها إحدى القضايا الأربعة التي حوّلت إلى قضايا باردة خلال الأعوام الثلاثة المنصرمة منذ استلامي التحقيق هنا، و بهذه المعلومات أصبحت الحكاية واضحة للغاية ، فالشاب غايل هو فايتون الأرعن ابن رجل الأعمال الثري كالإله هيلْيوس و الذي يملك شركة اسمها للغرابة المذهلة هيلْيوس أيضاً .. لقد قاد سيارة والده وهو مرّاهق طائش لا يتقن القيادة و لا يملك رخصة كما قاد فايتون عديم الخبرة عربة الشمس الخاصة بوالده فدهس الفتاة المراهقة جوليا و قتلها على نحو شبيه بالكوارث التي سببها فايتون خلال قيادته .. و اليوم ينتقم شخص ما نعتقد بأنه الطبيب بنجامين منه و يقتله بالمثل كما ذكر في رسالته (الدم بالدم) ..

○ نوح : منطقي للغاية .. لكن يبقى السؤال الأهم : ما علاقة الطبيب بنجامين بهذه الحادثة حتى ينتقم من الفتى غايل ؟

● فرانك: معك كامل الحق .. لا جواب منطقي عن هذه السؤال ، و لا نملك خياراً سوى متابعة التحقيق و الكشف عن أدلة أخرى قد نكون غفلنا عنها في مسرح الأحداث كشجرة أو لعاب أو أي شيء آخر ..

○ نوح : تماماً ، و إن كانت شخصية المنفذ القوية و المتمكنة تعطي انطباعاً أنه لم يترك أي أثر خلفه ..

● فرانك: أظن ذلك .. لكن لا يسعنا سوى التفاؤل .. بجميع الأحوال أنا بمنتهى السعادة لظهور بواذر أمل آخر بنجاة الطبيب بنجامين .. فهناك أولاً التوقيع باسم أطلس العدالة ثم ربط الجريمة بأسطورة إغريقية كما يحلو للطبيب أن يفعل بالعادة ..

○ نوح : بالفعل إنها مؤشرات شبه مؤكدة أن الطبيب لا يزال حياً .. لكن مجدداً لماذا هو متخفٍ عن الأنظار ؟

● فرانك: ربما يخشى على نفسه من عصابة المليونير جيمس ماك آرثر بعد أن أفلت منها بأعجوبة ..

○ نوح : هذا هو التفسير الأقرب للمنطق !!!

لم يُسفر تشريح جثة غايل عن جديد يُذكر؛ الجسد كان صامتًا، كأن الموت نفسه قرر التواطؤ مع القاتل. أما السيارة، مسرح الجريمة المزعوم، فلم تُفصح هي الأخرى عن أي سر .. لا شعرة، لا بصمة، لا لعاب، لا خلايا، لا حتى ذرة غبار خارج السياق... وكأن يدًا خفية بارعة قد نظّفت المكان بمهارة تتجاوز البشر، وتليق بخبير لا يُخطئ. جريمة مكتملة، متقنة، غريبة، تشبه رقصة ظلّ في مهبّ ريح... لا صوت لها، ولا أثر.

كل هذا أعاد اسم الطبيب بنجامين إلى سطح الحكاية كطيفٍ هائم لا يهدأ. طبيبٌ يعرف عن النفس البشرية ما لا يعرفه الأطباء، ويجيد تشريح الألم كما يُشرّح الجثة.

لم يُظهر استجواب أهل غايل وأصدقائه أي خصومات قديمة أو تهديدات مبطّنة أو حتى عداوات خفية. حياته كانت، على ما يبدو، صفحةً بيضاء لا تحوي ما يستدعي الدم.

ولذلك، اتفق فرانك ونوح، في صمت المحققين المتآلفين مع الظلال، على إبقاء اسم أطلس العدالة طي الكتمان. احترامًا لشخص الطبيب، وتقديرًا لمهنيته التي لا تُنكر، وظروفه التي باتت مجهولة كغباره... لم يرغب في فتح أبواب الجحيم ضده دون يقين.

لكن السؤال بقي يتأرجح كندبة في ذاكرة التحقيق :

أين هو أطلس العدالة ؟

لماذا تخفى عن الأنظار كمن يتوارى من نور العدالة نفسها ؟
و هل هو القاتل بنفسه ... أم الحَكَم الذي قرر أن يأخذ العدالة بيده حين
عجزت الأرض عن إنصاف السماء و كلف غيره بالعملية ؟
و السؤال الأهم ، هل سيظهر من جديد ؟!

العنفاء المريضة

والمسيح الطبيب ..

الولايات المتحدة الأمريكية ..

كاليفورنيا / لوس أنجلوس ..

بعد ثلاثة أشهر من حادث باريس ..

لم يكن الجسد وحده ما التأم من جراح ديونيسيوس بعد ذلك الحادث الذي بدا وكأنه خطّ بأصابع الآلهة على هامش كتاب القدر، بل كانت الروح ذاتها التي نهضت من ركام الغفلة، تنفض عنها رماد ماضيها، وتستقبل الحياة بشفافية طفل يرى العالم لأول مرة.

عاد إلى لوس أنجلوس كمن وُلد من رحم البرق، لا يشبه ذاك الذي غادرها ذات يوم يتشح بعباءة المال ويطارد سراب التملك .. كانت عودته عودة إنسان، لا ملياردير. عودة رجل أدرك أخيراً أن ما يملكه لا يعني شيئاً ما لم يُمنَح، وأن الحياة لا تُقاس بمساحات الأملاك ولا بأصفار الأرصدة، بل بما يُخلّفه المرء في دروب الآخرين من نور وسكينة.

هيكتر، صديقه ومساعدته، لم يكن مجرد مدير أعمال، بل ذاكرة حيّة تمشي على قدمين. خزان من الحكايا والدروس، ظل يروي له بصوته المتمهل قصص أولئك الذين عبروا الجسر من الجشع إلى الجود، من مثل نيكولاس بيرغين الذي أطفأ نار الطمع داخله ليشعل شموع الأمل في قلوب الآخرين، و تشاك فيني الذي ودّع ثروته قطعةً قطعة حتى اختفى أثرها في المدارس والمستشفيات، و يو بينيان الذي رسم بسخائه خريطة جديدة للمروءة في الشرق الأقصى.

أخبره هيكتر أنهم جميعاً، رغم اختلاف جنسياتهم، نطقوا بالحقيقة ذاتها : السعادة الحقيقية لا تُشترى، بل تُوهب.

ثم أهداه مقولتين من ذهب، من روح غاندي المتسامية :

(تتوقف السعادة على ما تستطيع منحه، لا على ما تستطيع الحصول عليه.)

وأردفها بهمسة فلسفية لامعة من أوغست كونت :

(كي تحتفظ بالسعادة، يجب أن تتقاسمها مع الآخرين.)

كانت تلك الكلمات بمثابة تنبيه شخصي، فتجلّت في عيني ديونيسوس رؤيا جديدة، كأن الحروف قد نُقشت على صفحة قلبه.

وفي لحظة صفاء شبيهة بنور الفجر فوق بحرٍ ساكن، قرر أن يخلق عالمًا صغيرًا أكثر عدالة على أرخبيله الذي كان يومًا مظهرًا من مظاهر ترفه، فإذا به اليوم يتحوّل إلى سفينة نجاة للمنكوبين.

أمر بإنشاء ستة منازل فاخرة، كل منها يُمثل قارة مأهولة، تُبنى على ست جزر مختلفة لتكون مواطن كريمة للمشردين. ثم تلا ذلك مولاً صغيراً، عيادة طبية مجهزة، محطة كهرباء، محطة وقود بحرية، ومحطة اتصالات... كلها توزعت على أكبر الجزر الخمسة عشر، لتكوّن نواة مجتمع صغير ينبض بالكرامة.

أعطى الإشارة لهيكتور لبدء الاتصالات وتنظيم التحضيرات، دون أن يرف له جفن أمام تكلفة المشروع التي تجاوزت مئة مليون دولار، معتبراً أنها مجرد رقم لا يساوي شيئاً أمام نظرة امتنان واحدة من قلب انتشل من البؤس.

وفي خياله المتقدم، رأى تلك الجزر تتحول إلى أرخبيل من الرحمة، حيث تُمزج فخامة المساكن بنبل المقصد، ويُستبدل صدى صخب الحفلات بصوت ضحكة طفل نام آمناً لأول مرة على وسادة نظيفة.

كان مشروعاَ خيرياً، نعم... لكنه في جوهره، كان طقس توبة لإنسان أدرك أنه عاش زمناً طويلاً في قصر من الجليد، وأن حرارة العطاء وحدها قادرة على أن تذيب كل شيء.

● ديونيسوس : كل شيء يسير الآن بخطى ثابتة نحو حلمي الجديد يا هيكتور .. لا يمكنك تخيل مقدار سعادتي و أنا مقبل على انتشار بعض المشردين من براثن الفقر و البؤس إلى حياة كريمة يستحقونها ..

○ هيكتور مبتسماً برضا : كل التوفيق سيد ديونيسوس في مسعاك النبيل و الإنسانى هذا عبر رحلاتك القادمة التي تذكرني الآن بأسطورة هركليس الذي تحدث عنها البروفيسور جاك فورنييه مع مغامراته المثيرة المتتالية

● ديونيسوس و قد أعجبه التشبيه : ربما كنت من نسل أسطورة بلدي هركليس بالفعل و جيناته تتخلل جيناتي مع دماء المغامرة خاصته تسري في عروقي أيضاً .. في الحقيقة هنالك تشابه آخر بيننا يا هيكتور و هو أن هركليس كما قرأت خاض مغامراته و تحدياته كي يظهر نفسه و يكفر عن حياته السابقة العبثية كحالي أنا بالضبط ..

○ هيكتور معجباً بالملاحظة : محق لأبعد الحدود .. و ما هي خطوتك التالية ؟

● ديونيسوس : سنحزم حقائبنا و نقوم بجولتنا حول العالم التي ستشمل القارات الستة المأهولة لأنتقي من كل قارة منها كما أسلفت أشخاصاً محتاجين بحق لكن متمسكين بإنسانيتهم رغم كل شيء و أعرض عليهم الانتقال للعيش في الأرخبيل كنقطة نوعية و جذرية في حياتهم ..

○ هيكتور : أنت تقرر و أنا أنفذ ، و ما هي وجهتنا الأولى ؟

● ديونيسوس : وجهتنا الأولى بالطبع ستكون من قارتنا العزيزة أمريكا الشمالية و أرى أن تكون المكسيك هدفنا القادم حيث يكثر المشردون و الفقراء فيها كما هو معروف ..

○ هيكتور : و إلى أي مدينة فيها بالضبط ؟

● ديونيسوس : لنرى ما يخبرنا به الهاتف أولاً ثم أقرر ..

○ هيكتور : منطقي للغاية ..

فتح ديونيسوس هاتفه بينما كان جالساً في ظلال شجرة الصفصاف، وضغط على شاشة البحث كمن يطلب من القدر أن يقوده نحو محطته التالية. كتب ببساطة : (أفقر مدينة مكسيكية) .. لم يكن يبحث عن سياحة أو وجهة ترفيهية، بل عن معاناة. كان يريد أن يغوص في أعماق الواقع، أن يلامس الألم حيث يولد، حيث يصبح الإنسان عارياً من كل أقنعة، ليعثر هناك على جوهر مهمته الجديدة.

ظهرت أمامه قائمة طويلة من المدن، كل منها تحكي حكاية بؤسها بلغة الأرقام والإحصائيات. لكنه لم يكن يقرأ بعيني العقل، بل بعيني الحدس. توقف عند اسم واحد: كولوما.

لم يكن الاسم فقط ما استوقفه، بل الهالة التي أحاطت به وهو يقرأ التفاصيل، كأنّ خيوطاً خفية تشده نحوه من قلب المسافة. كولوما، المدينة الواقعة غرب المكسيك، تقبع على شاطئ المحيط الهادئ تماماً كما تفعل لوس أنجلوس، لكن بينما تغسل أمواج المحيط شوارع الأخيرة بالرفاهية والضوء، كانت ذات الأمواج تغمر كولوما بالفقر، و تسبغ شوارعها بدماء الجرائم اليومية.

مدينة صغيرة، لكن أرقامها أكبر من احتمال القلب. الأعلى في معدلات القتل في العالم، أفقر من أن تشتري الأمل، وأخطر من أن تطمئن فيها لقادمك. كأنها صورة مكسيكية من الجحيم، ومع ذلك، أو ربما لذلك بالذات، كانت بالضبط ما يبحث عنه ديونيسوس.

ابتسم بتأمل، كمن يعثر في الخراب على كنز روحي. نظر إلى هيكتور و همس في أعماقه : ها قد نادانا القدر مجدداً، وهذه المرة بصوت الرصاص والجوع.

لم تكن كولوما مجرد مدينة في قائمة بحث، بل صارت بالنسبة إليه سؤالاً وجودياً جديداً: هل يمكن للنور أن يولد في قلب العتمة الخالصة؟ وهل يمكن لجزء من الجنة أن يُزرع فوق أرض تحترق يومياً بالغضب واليأس ؟

كان يعرف أنّ رحلته القادمة ستكون الأخطر. لكنه كان على يقين بأنّ

الأرخبيل، لكي يكتمل، يحتاج أن يُزرع أولاً في أكثر بقاع العالم عطشاً للرحمة.

● ديونيسوس : عثرت على ضالتي يا هيكتور ..

○ هيكتور : بهذه السرعة !!

● ديونيسوس : أجل فهي مدينة مثالية تماماً كي نبدأ منها .. إنها مدينة كولياما المكسيكية .. إذ أنه إلى جانب انتشار الفقر فيها ، تعد من أخطر مدن العالم وأكثرها عنفاً .. إن كان هنالك ثمة شيء أسوأ من الفقر في هذه الحياة يا هيكتور فهو انعدام الأمان ، بذلك سأحرر الشخص المناسب الذي سأنتقيه منها من لعنتين دفعة واحدة (الحاجة و الخوف) ..

○ هيكتور : معك كامل الحق سيد ديونيسوس ، لا نعمة تعلو على نعمة الأمان سوى نعمة الصحة ، و متى قررت السفر ؟

● ديونيسوس : احجز لنا غرفة في أحد فنادق المدينة للغد مع تذاكر سفر صباحاً لخوض غمار أول مغامرة من مغامراتنا الستة القادمة ..

○ هيكتور مبتسماً : اعتبر الأمر منجزاً سيد هرقليس ..

المكسيك / كولياما ..

الساعة 11 صباحاً ..

بعد رحلة قصيرة لم تُنهك الجسد، لكنها أيقظت في الروح شعوراً دفيناً بالتقصير تجاه العالم، وصل ديونيسوس بصحبة هيكتور إلى المدينة الجديدة التي لم تكن بعيدة جغرافياً، لكنها بدت له كأنها تقع في مجرة من الألم المتواطي مع الفقر. ما إن دخلا غرفة الفندق حتى انهمكا في ترتيب أغراضهما الشخصية بصمتٍ أقرب إلى صلاة، يتبادلان النظرات أكثر مما يتبادلان الكلام، كما لو أن بينهما اتفاقاً ضمناً على ما ينبغي فعله.

كان المخطط واضحاً منذ لحظة الهبوط: استئجار سيارة والتجول بها عبر

شوارع المدينة، بحثًا عن إنسان وحيد يختصر العالم كله، إنسان يشبه فرانسوا... ذلك المتشرد الذي صادفاه في باريس وحمل في قلبه من الطيبة ما لم تحمله أفخم القصور. لكن المهمة هنا بدت أكثر قسوة، ففي الطريق من المطار إلى الفندق، رأى ديونيسيوس ما يشبه نهاية العالم، أطفال حفاة ينامون على الأرصفة، نساء بعيون ذابلة تنبش بقايا الطعام من الحاويات، وشبان يطوفون كالأشباح على أرصفة البؤس... كان يتمنى لو بوسعه أن يمد ذراعيه فيحتضنهم جميعًا، أن يحملهم واحدًا واحدًا إلى أرخبيله، إلى بيوت النور والأمان التي شيدها من قلبه لا من ماله.

لكن الحقيقة، كما أوضح له هيكتور لاحقًا بنبرة هادئة، أن الانتشال الشامل أشبه بحلم طفل في مساء عيد. فتنهد ديونيسيوس طويلاً، ثم همس لنفسه بنبرة أقرب إلى القسم : لو أن كل ثري في هذا العالم تكفل بمحتاج واحد فقط... لاجتث الظلم من جذوره.

بعد استراحة قصيرة وتناول غداء بسيط في مطعم الفندق، استدلا عبر خوسيه، موظف الاستقبال اللطيف، على مكتب لاستئجار السيارات. وبعد دقائق كان هيكتور جالسا خلف مقود سيارة بيجو حديثة، تشق شوارع المدينة وكأنها سفينة صغيرة تبحر في محيط من التناقضات.. و إلى جواره جلس ديونيسيوس و عيناه تمسحان الشوارع كسونار بغية اقتناص غايته ..

مضت ساعة ونصف، والسيارة تلتهم الطرقات دون أن تهتدي إلى وجهة. كانت العيون تفتش، والقلوب تترقب، لكن الاختيار لم يُسفر بعد عن نتيجة مأمولة .. لم يكن الأمر مجرد بحث عن متشرد، بل عن قصة. عن نفس قابلة للانبعاث من الرماد.

مع تقدم الزمن، لاحظا أن بعض الأزقة تحوّلت إلى بؤر متوترة تعج بالجماعات المسلحة. شوارع بأكملها تمشي على حد السكين، والرصيف فيها ليس ملاذًا آمنًا بل فخًا قابلاً للانفجار. وعلى وقع هذه المشاهد، انسأب صوت هيكتور كأنما يقرأ من كتاب قديم :

○ هيكتور : كما قال ابن خلدون، يا سيدي : الأمم المقهورة تسوء

أخلاقها ...

كان صوته يحمل حكمة العارف، وقد أشار بيده إلى شابٍ بعيونٍ محمومة، يحمل في إحدى يديه سلاحًا وفي الأخرى سيجارة رخيصة. تابع قائلاً :

○ هيكتور : الفقر سيدي لا يسرق الجيوب فقط... بل يسلب الطباع، يسرق الرحمة، ويزرع القسوة في الضلوع. ما نراه هنا ليس فسادًا فطريًا... بل نتيجة للقهر، للخذلان المتكرر من عالمٍ يصمّ أذنيه عن أنين الجائعين.

هزّ ديونيسوس رأسه بتأثر، وأدرك أن مهمته، وإن بدأت ببناء بيوت، يجب أن تتجاوز الجدران والطعام، لتلامس الروح، وتعيد للمقهورين شعورهم بأنهم مرئيون، محسوسون، وبأن أحداً ما، في مكانٍ ما، ما يزال يهتم لأمرهم ... ويريد أن يمنحهم فرصة ثانية.

● ديونيسوس : تماماً يا هيكتور .. و ما أبحث عنه في هذا العالم هو أشخاص حافظوا على أخلاقهم رغم القهر الذي يعيشونه .. فهو لاء يليق بهم أرخبيلي بلا شك ..

في حي جاردن ديل سول، حيث تتشابك الأزقة كعروق متعبة في جسد المدينة، وتتراقص الظلال بين المباني المتداعية كأشباح تبحث عن مأوى، تدخلت أنامل القدر مرة أخرى، بأنامل خفية لا تُرى، لكنها تُحسّ بعمق، وتصوغ المشهد بدهاء لا يُجارى.

كانت سيارة البيجو تمضي ببطء كمن يتحسس طريقه في ليلٍ موحش، يتفحص ديونيسوس وهيكتور الوجوه والملامح والأرصعة كمن يفتش عن رسالة سماوية وسط الرماد. فجأة، وكأن المشهد كُتب مسبقاً بعناية إلهية، انبثقت من مفترق زقاق ضيق مجموعة من سبعة شباب، طغت على وجوههم ملامح القسوة، وفي عيونهم تلالأ نيران التيه والغضب. كانوا كأنهم خارجون تواءً من ملحمةٍ دموية، تتدلى من أيديهم هراوات خشبية وسلاسل حديدية ثقيلة، تلمع تحت أشعة الشمس كشرائك معدنية في فخ

نصبته المدينة.

كان التوقف حتمياً. فقد خرج أضخمهم جثّةً، وسد الطريق بجسده كما تسد صخرة ضخمة مجرى نهر صغير. ضغط هيكتور على المكابح بسرعة، والسيارة أصدرت أنيناً خافتاً يشبه شهقة خائفة. تباطأت اللحظة. الزمن هنا بدأ يتثاءب بتوتر.

تقدم رجل بدا أكبرهم سنّاً، بلامحٍ محفورة من الرصاص، وعلى جبينه تجاعيد تشبه أخاديد الحرب. من حركته ونظرات أفراد العصابة، بدا واضحاً أنه الزعيم. اقترب بثقة الذئب الذي لا يخشى شيئاً، وأشار بإصبعٍ أمر إلى ديونيسوس وهيكتور بالترجل من السيارة.

تبادلا النظرات سريعاً، ثم فتحا الأبواب بخطى ثقيلة، ترجل كلُّ منهما إلى الأرض كما يترجل جندي من خندقه وهو يعلم أنه بلا سلاح. سكن الهواء من حولهم، واختفت المدينة فجأة. لم يبقَ سوى سبعة وجوه غاضبة، وسلسلة من الاحتمالات المرعبة تتدلى كالسيوف فوق رأسيهما.

اقترب الزعيم من ديونيسوس أولاً، تطلّع في عينيه برهة، ثم ثبت نظره فيهما كأنما ينقب عن شيء ما خلف القزحية. لا كلمات بعد، فقط الصمت... والصمت أحياناً أبلغ من كل تهديد.

ثم، وبنبرة حازمة تنبض فيها الوعيد، انطلق صوته كطلقة تحذيرية في ليل ساكن...

○ الشاب : من أنتما أيها الغريبان ؟

● ديونيسوس: لا نفهم الإسبانية ، هل تتحدثون الإنجليزية ؟

نظر الشاب إلى أحد زملائه و كأنه يطلب منه الترجمة .. فشرح له بالفعل بكلمات مقتضبة ما قاله ديونيسوس .. طلب منه بعدها أن يسأله عن سبب وجودهما هنا ، فطرح عليهما السؤال بإنجليزية متقنة ..

● ديونيسوس: نحن مجرد سائحين من الولايات المتحدة الأمريكية ..

ترجم الشاب كلامهما مجدداً لزعيمة الذي رمقهما بنظرات ريبة و شك ثم طلب منه ترجمة كلامه ثانية ..

○ المترجم : ناولانا محفظتيكما و هاتفيكما و اتركنا السيارة ثم غادرا من هنا بسلام و سرعة قبل أن نؤذيكما ..

نظر ديونيسوس وهيكاتور إلى بعضهما بعينين اتسعتا قلقاً وذهولاً، كمن أيقن فجأة أنه داخل مسرحية مأساوية كُتبت نهايتها سلفاً. لم تكن تلك المجموعة من الأشقياء سوى شبح داهم أملهم، ونصلاً وُضع على عنق خطتهما النبيلة. كان الموقف أشبه بانعطافة حادة لا يتوقعها عقل، كما لو أن أنامل القدر قررت تغيير الصفحة في لحظة واحدة دون تمهيد أو إنذار.

تلفتا في المكان يائسين، يبحثان عن أي بصيص من أمل على هيئة شرطي عابر، أو دورية متأخرة، لكن الشارع كان مقفراً كفجر يوم مهجور، لا حياة فيه سوى العيون المتأهبة والأرواح المتوعدة التي تحاصر سيارتهما.

في تلك اللحظة، أدركا أن لا نجاة تُرتجى إلا من السماء، وأن خيوط اللعبة خرجت من أيديهما تماماً، كعرائس خشبية قُطع خيطها العلوي فسقطت تحت رحمة المسرح. ولم يكن أمامهما بدّ إلا الانصياع، كمن سلّم أوراقه في لعبة لم تعد عادلة. مدّ كلٌّ منهما يده إلى جيبه لإخراج محفظته، آملاً أن يكون المال هو القربان الكافي للنجاة.

لكن فجأة، وفي اللحظة التي سبق فيها الخوف الفعل، انشقّ الهواء فوق رؤوسهم كأفق صاعق، ودوى صوت رجولي عميق، رخيّم وملتهب بالغضب، كأنه صوت ملاك هابط من السحاب أو قاضٍ في محكمة سماوية.

كان الصوت يصرخ، لا متوسطاً ولا متردداً، بل أمراً، كما لو أن الحقيقة نطقت أخيراً : تراجعوا فوراً...!

توقفت عقارب اللحظة.

التفتت الرؤوس دفعة واحدة نحو مصدر الصوت، و حملقت العيون نحو الأعلى، وهناك، تحت سقف أحد المباني المهيترئة، كان يقف شاب مهيب الهيئة، طويل القامة، عابس الملامح، وشعره يتطاير مع الريح كرايةٍ ثائرة. جسده مظلل ضد وهج الشمس، وكأنه ظل ملاك غاضب أو شبح خرج من كتاب مقدس ليعيد التوازن في لحظة انحراف.

في تلك اللحظة، شعر ديونيسوس وهيكتور أن شيئاً خارقاً، شيئاً لا يُفسَّر، بدأ يتحرك حولهما، وكأن مدينة كاملة توقفت لتتابع المشهد الآتي

○ صاحب الصوت الرخيم : دعهما و شأنهما يا ميغيل .. إنهما صديقان لي ..

كان مصدر الصوت شاب عشريني يقف على إحدى الشرفات يرمق الزعيم ميغيل بصرامة و جدية .. فنظر إليه ميغيل حانقاً ..

● ميغيل : هذا أنت يا أنطونيو ، لم نلتق منذ مدة .. و من أين تعرف هذين الغريبين ؟

○ أنطونيو : تعرفت عليهما منذ عام في الولايات المتحدة الأمريكية حيث ساعداني بمنتهى اللطف و استضافاني في منزلهما هناك .. إنهما هنا لزيارتي و كانا يبحثان عن منزلي ..

نظر ميغيل إليهما بشك و حقد ثم بصق على الأرض و أمر زملاءه بالمغادرة على مضض .. في حين غاب أنطونيو عن الشرفة للحظات ثم ظهر على باب المبنى القديم المتهالك كآثار هاربة من حضارة الأزتيك المكسيكية .. تقدم منهما مبتسماً مخاطباً إياهما بإنجليزية مكسرة ..

● أنطونيو : مرحبا بكما ، أنا أنطونيو ..

○ ديونيسوس : أهلاً بك ، أنا ديونيسوس و هذا صديقي هيكتور .. رغم

أننا لم نفهم حواركما السابق لكن يبدو لي أنك أنقذتنا من ورطة حقيقية فشكراً جزيلاً لك ..

● أنطونيو : لا داع للشكر .. لكن يتملكني فضول شديد عن سبب و جود سائحين أمريكيين في أخطر حي من أخطر مدينة في العالم ؟

○ ديونيسوس : في الحقيقة حكايتنا تطول و المكان غير مناسب لروايتها

● أنطونيو : إذا تفضلاً إلى منزلي المتواضع لنشرب الشاي و نتحدث إن كان لديكما متسع من الوقت فهناك كلام هام ينبغي إخباركما به كي تنجوا في هذه المدينة الخطيرة .. أنتما ضيفاي الآن و من واجبي إكرامكما .. من المؤكد أنها ليست مجرد مصادفة أن تتعرضا للسرقة أسفل منزلي بالضبط بينما كنت واقفاً على شرفته ..

نظر هيكتور إلى ديونيسوس بعينين مشدوهتين، كما لو أنه يحاول قراءة معنى خفي خلف هذه الدعوة المفاجئة إلى منزل شاب مجهول من قلب أحد أحياء المدينة القاسية. لكن ديونيسوس، الذي بات يرى في كل صدفة نفساً من أنفاس القدر، وفي كل وجه غريب احتمالاً لمعجزة، لم يتردد، بل أوماً برأسه مبتسماً كمن يُلبّي نداءً كُتب له منذ زمن، فصعد بدون تردد إلى شقة ميغيل في الدور الأخير و تبعه هيكتور مندهشاً ..

كانت السلالم ضيقة ومتهاكة، تصدر صريراً تحت وقع الأقدام كأنها تشكو التعب، لكن في الأعلى، وعلى نقيض الطريق الوعر المؤدي إليها، انفتحت أمامهم شقة صغيرة متواضعة، تتنفس رائحة الخشب العتيق والعوز، لكن فيها شيء غير مرئي، هالة دفء تسري كأنها بقايا صلاة قديمة لا تزال معلقة في الهواء.

كانت الشقة من البساطة كأنها مأوى ملاك متواضع نزل ليستريح على الأرض. جدران باهتة اللون، وسجادة منسوجة يدوياً تحمل آثار أقدام الزمان، ومقاعد لا تفتخر بشيء سوى قدرتها على الاحتمال. لكن في قلب هذا التواضع، كان هناك استثناء، كأن السماء وضعت توقيعتها وسط العراء: تمثال فخم للعدراء مريم تحتضن طفلها النقي يسوع، مصنوع من الجص لكنه يتوهج كما لو أن روحاً قد نُفخت فيه.

بدا التمثال نافذة مفتوحة على عوالم أخرى، لا تخصّ الفقر ولا الأثرياء، بل أولئك الذين يمشون في الحياة بعكاز الإيمان وحده. ولفرط جماله وسط الخراب، خُيِّل لهيكتور أن التمثال نفسه هو الذي يراقبهم، لا العكس.

ثم حدث شيء ما، صوت رتيب وهمس معدني، يشبه صوت الأمل عندما ينهض من رماده. دواليب صغيرة تدور ببطء فوق الأرضية الخشبية، تقترب. ومن عتمة الغرفة الجانبية، خرجت امرأة في الأربعين من عمرها، بلامح تغتسل كل صباح بالصبر، تجلس على كرسي متحرك كأنه عرش صغير لملكة اختارت أن لا تعلن مملكتها.

ابتسمت لهما كما لو أنها تعرفهما منذ زمن بعيد، وكأن ظهورهما ليس مصادفة بل استجابة لصلاة قديمة همست بها لتمثال العذراء ذات مساء وبقيت تنتظر. نظرت إلى أنطونيو وتكلّمت بلغة إسبانية ناعمة، فيها الكثير من الموسيقى ..

أما ديونيسوس، فظلّ صامتاً... لكنه شعر أنّ قلبه، لأول مرة، لم يعد من لوس أنجلوس ولا من نيويورك، بل أصبح هنا، في هذا الركن من العالم، حيث الألم يجاور النعمة، وحيث الفقر يخبئ في ثناياه جوهرة الإنس ..

○ السيدة : من هما ضيفاك يا أنطونيو ؟ ..

● أنطونيو : سائحان من أمريكا يا أمي أوشكت عصابة ميغيل الوغد أن تسرقهما و سيارتهما لكنني تدخلت في اللحظة الأخيرة ..

التفتت السيدة إليهما و خاطبتهما بإسبانية تكفل أنطونيو بترجمتها بجمل مقتضبة ..

● أنطونيو : هذه والدتي أليخاندرا ترحب بكما في منزلكما المتواضع و تتمنى لكما زيارة سعيدة و موفقة لبلدنا و مدينتنا ، كما أنها تنصحكما باتخاذ الحيطة و الحذر كونها تعج بعصابات المخدرات و السرقة و الإجرام كما رأيتما بأم العين..

التفت ديونيسوس إليها بابتسامة ..

○ ديونيسوس : نتشرف بمعرفتك سيدتي الفاضلة ، و نشكركما جزيل الشكر على المساعدة و النصيحة ..

ترجم أنطونيو كلامه مجدداً ، ثم تابع ديونيسوس ..

○ ديونيسوس : لماذا تجلس والدتك على كرسي متحرك يا أنطونيو ؟ ..

● أنطونيو : هذه قصة طويلة يا صديقي .. سأعدّ الشاي أولاً ثم أعود لأرويها لكما ..

غاب أنطونيو لدقائق ثم عاد بصينية فضية صفت عليها أربعة كؤوس فارغة مع إبريق شاي ضخم .. و مع كأس من الشاي لم يسبق لديونيسوس أن استطعم لذته طوال حياته شرع أنطونيو بقص حكايته المؤلمة عليهما ..

● أنطونيو : أُمي مقعدة منذ 5 سنوات بشلل سفلي تطور تدريجياً بعد ضعف عضلي و صعوبة في المشي .. راجعنا العديد من الأطباء و المشافي لأجله لكن الجميع عجزوا عن تفسيره الطبي و قيل لنا أنها بحاجة لإجراء صورة رنين مغناطيسي كامل أخير لتشخيص حالتها ، لكنها غير متوفرة في مدينتنا كما أنها مكلفة للغاية و ليس لدينا مقدرة مادية على الذهاب إلى العاصمة مكسيكو سيتي و تحمل تكاليفها .. فوالدي متوفٍ منذ كنت طفلاً كما أن أُمي لا تعمل بسبب وضعها الصحي، لذا تركت المدرسة و عملت في مهن حرة متنوعة لإعالتها ، و بسبب قسوة الحياة في هذه المدينة بانتشار الجريمة و العصابات مع فرص العمل الشحيحة ، نحن بالكاد نوفّر ثمن الطعام و إيجار الشقة لذا نستغني عن أي كماليات أخرى بما فيها الصحة التي غدت رفاهية ..

○ ديونيسوس : أنت إنسان نبيل و شهم يا أنطونيو ، و أرغب بسؤالك سؤالاً يحيرني إن لم يكن لديك مانع ؟

● أنطونيو : بالطبع ، اسأل ما تشاء ؟

○ ديونيسوس : لماذا اخترت أن تساعدنا بدلاً من الانضمام لعصابة ميغيل و سرقتنا ثم اقتسام الغنائم معها، فأنت بأمرّ الحاجة للمال كما

أرى ؟!

● أنطونيو مبتسماً : لأن والدتي المتدينة ربتني على أخلاق مخلصنا يسوع المسيح يا صديقي ، فحملت صليبي الخاص على كتفي و تبعته متجنباً الانضمام لأي نوع من العصابات تبعاً لمبادئى .. لا أخفيك سرّاً أن ذلك سبب لي الكثير من المشاكل هنا في بدايات حياتي ، فالخروج عن القطيع و التحليق خارج السرب عكس التيار السائد يجعلك في محرق الانتقاد ثم النبذ ثم الانتقام ..

قاطعه هيكتور مبتسماً بإعجاب..

○ هيكتور : فلسفة عميقة و رائعة من شاب لا يزال في مقتبل العمر ، أهنيك عليها يا بني .. لقد ذكرتني بمقولة للصحفي الإنجليزي توماس مالكولم موغريدج الملقب بعاشق الكنيسة :

((إن الأسماك الميتة هي وحدها من تمشي مع التيار))

فيحق لك الفخر و التشبث بنهجك هذا المخالف لما هو سائد في هذه المدينة من موت و خطايا ..

● أنطونيو : تماماً سيدي .. لكن مع تقدمي بالعمر و من خلال تجاربي توصلت أخيراً إلى أسلوب حياة نجوت به بنفسي في حقل الألغام هذا قائم على إظهار ما يحبه الآخرون و إضمار ما أوّمن به لأنفسي .. فقد أوهمت الجميع هنا أنني أنتمي لإحدى العصابات السرية الخطيرة و المتنفذة ، و بذلك وفرت على نفسي مزيداً من المشاكل حماية لي و لوالدتي .. كما أنني أثق تماماً أنّ يسوع المسيح لن يتخلّى عني في مساعي هذا على خطاه ..

ساد الصمت للحظات بعد الجملة الأخيرة ثم هشمه ديونيسوس بسؤال آخر..

○ ديونيسوس : كم عمرك يا أنطونيو ؟

● أنطونيو : 24 عاماً ..

○ ديونيسوس بإعجاب : أنت غريب بالفعل يا صديقي .. فوعيك و حكمتك يشعراني بأنك عجوز في الثمانين، لقد جعلتك قسوة الحياة و صعوباتها المعقدة تشيخ قبل أوانك ..

أوما هيكتور برأسه موافقاً .. في حين تابع ديونيسوس الحديث في صلب الموضوع الذي جعله يقبل دعوة أنطونيو ..

○ ديونيسوس : لقد سألتني منذ دقائق عن سبب وجودي في مدينتكم الخطيرة هذه ، وسأجيبك الآن .. أنا هنا لأنني أبحث عنك يا أنطونيو ..

نظر إليه هيكتور و أنطونيو بدهشة عارمة ..

● أنطونيو : تبحث عني ! لم أفهمك سيدي !

○ ديونيسوس : أجل عنك .. أعرفك بنفسي سيد أنطونيو .. أنا الملياردير الأمريكي ديونيسوس غالانيس و هذا مساعدي هيكتور .. أنا أملك أرخبيل جزر في وسط المحيط الأطلسي ، قررت أن أبني عليها قرية صغيرة مجهزة بكل شيء ، و حالياً أنا في جولة حول العالم لاختيار أشخاص مناسبين أرهقتهم الحياة بالفقر و الخوف لكنهم رغم ذلك حافظوا على نظافتهم الروحية و إنسانيتهم ليصبحوا في حال قبلوا عرضي سكان جنتي الجديدة بمنتهى السعادة و الرضا مع تأمين كل ما يحتاجونه هناك .. و أنا أرى فيك و في والدتك خير مثال يستحق العيش بحياة كريمة على ذلك الأرخبيل سيد أنطونيو ، فهل توافقان على عرضي هذا.. ؟

نظر أنطونيو إليه غير مصدق، كأنّ الزمن توقّف للحظة، وكأنّ الكلمات التي خرجت من فم ديونيسوس لم تُقَل بل رُسِمَت كأضواءٍ سماوية على صفحة روحه. حدّق بعينه المتّسعتين كمن رأى معجزة في وضح النهار، ثم ما لبث أن تخلّى عن صمته حين اجتاحت دموع الفرح مقلتيه، تسَلَّلت دون استئذان، دافئة، نقيّة، تحمل في طياتها ملوحة الامتنان ونشوة الرجاء.

استدار بأنفاس متقطعة نحو والدته أليخاندرأ، كمن يحمل بين يديه كنزاً لا يعرف كيف يصفه، وراح يترجم لها كلمات ديونيسوس، كأن الترجمة نفسها صلاة لا يُراد منها فقط الإفهام، بل التقديس.

لم تلبث أليخاندرأ أن اتسعت عيناها، وفي ملامح وجهها الغض المرهق ارتسمت دهشة صافية، دهشة أم لم تتوقع أن يزورها الخير من حيث لم تحتسب. تأملت هذا الرجل الغريب الذي دقّ بابهم في ساعة منسية من النهار، فوجدته لا يحمل الشر، بل يحمل طوق نجاة، يحمل ضوءاً في نفق طال سواده.

وغمرت مشاعر متضاربة، حتى ابتسمت ابتسامة مثقلة بالسنين، ابتسامة أم ذاقت من الحياة مرّها، فلم تعتد على الكرم دون ثمن. ثم أومأت برأسها، وهمست بالإسبانية، بصوت مبحوح من الدهشة والعرفان، وقد انهمرت دموعها هي الأخرى على وجنتيها موقته أن السماء لا تُرسل الملائكة بأجنحة كما يبدو... بل أحياناً تأتيهم بملامح الغرباء..

○ أليخاندرأ : أخبر السيد ديونيسوس بأننا نتشرف بعرضه الكريم و نقبله ببالغ الشكر و الامتنان ، فهذه فرصة من عطايا السيد المسيح لا تعوض لإنقاذ أرواحنا المؤمنة من مدينة مشبعة بالخطايا و الجرائم ..

ترجم أنطونيو كلام والدته لهما ، فاجتاحت السعادة قلب ديونيسوس بقبول عرضه لذا تابع في تحقيق غايته من الزيارة ..

○ ديونيسوس : هنالك شيء آخر سيد أنطونيو ..

● أنطونيو : تفضل أنا جاهز لأي خدمة .. !!

○ ديونيسوس : لقد انتهت خدماتك لنا بإنقاذنا اليوم و الآن يأتي دور خدماتنا لك .. سأمنحك يا أنطونيو مبلغاً كبيراً من المال مبدئياً تحسن فيه حالتكما المعيشية و تراجع مع والدتك أفضل مشافي المكسيك لإجراء صورة الرنين المغناطيسي أو أي إجراء طبي آخر تحتاجه ، إذ أتمنى من كل قلبي أن تطأ والدتك جزيرتكما الجديدة بقدميها و ليس على كرسيها المتحرك ، إن كتب لها الله الشفاء ..

لجمت الصدمات المتتالية و المفاجئة لسان أنطونيو لثوانٍ حتى نطق أخيراً
بنبرة مرتعشة من الحماس و التفاؤل و الامتنان ..

● أنطونيو: لا أدري كيف أعبر لك عن شكري و امتناني سيدي .. أنت
أشبه بقديس أو مخلص .. لقد آمنت طوال حياتي أن والدتي ستمشي مجدداً
ذات يوم فمعجزات يسوع المسيح لا تنتهي سيد ديونيسوس ، ألم يجعل
بنفسه مشلولاً يمشي على قدميه مجدداً في بيت الرسول بطرس في كفر
ناحوم .. إنه بالتأكيد قادر على شفاء والدتي المريضة أيضاً .. و يتملكني
شعور طاغٍ أن والدتي ستمشي مجدداً على يد إنسان نبيل كشخصك سيدي

○ ديونيسوس : لا تشكرني يا صديقي .. فأنا مجرد رجل منحه الله المال
ليخدم به أناساً صالحين من أمثالك فأنت النبيل و الشهم في هذه القصة كلها
.. إذاً موعدنا القادم على الأرخبيل بعد بضعة أشهر ..

● أنطونيو : و ليس أي أرخبيل .. إنه (أرض الميعاد للمشردين و
الفقراء) ..

ابتسم ديونيسوس بعمق وهو يشعر برضا نادر لم يختبره من قبل يملأ
صدره، وكأنّ ثقل السنوات التي حملها من إرهاق الحياة بدأ يتلاشى أمام
بريق هذا اللقاء الفريد. تبادلأ أرقام الهاتف، على وعد بأن يعاود
ديونيسيوس الاتصال بمجرد أن تكتمل تجهيزات الأرخبيل الذي ينوي
تحويله إلى ملاذ للباحثين عن الأمل. كان اللقاء قد نجح في فتح نافذة
جديدة نحو هدفه النبيل، وأضاء أمامه درب العطاء الذي أراده منذ زمن.
رغم الدعوة الكريمة التي قُدمت لهما للغداء، اعتذرا بأدب، مبررين بأنهما
تناولا غداءهما بالفعل في الفندق. لكنهما وعدا بأن يجتمعا معاً قريباً، حول
مائدة واحدة في ذلك المنزل الجديد الذي سيحتضن أحلام الأرخبيل، حيث
ستتلاقى القلوب التي وُلدت من رحم الرحمة والعطاء و تلتئم جراحات
الماضي المر ..

وهكذا، خرجا من الشقة وهما يحملان في أعماقهما شعور الانجاز، وقد
أدركا أن مهمتهما في هذه البلاد لم تكن مجرد رحلة بحث، بل بداية فصل
جديد، صفحة مضيئة في قصة حياة ستُكتب بمداد الخير والأمل ..

○ هيكتور : خيار مناسب و موفق للغاية سيد ديونيسوس ..

● ديونيسوس : بالفعل ، شاب شهم ملتزم بنهج يسوع المسيح حاملاً صليبه الخاص على كتفه وسط غابة لا أخلاقية يأكل فيها القوي الضعيف .. يرعى أمه المريضة بتفانٍ مذهل .. و يعانيان من الفقر و انعدام الأمان أشده ، إن أرخبيلي وجد لأمثالهما بلا ريب ..

○ هيكتور : إن طباعه تذكرني بالسيد المسيح كثيراً حتى هيئته السمحة بلحيته الشقراء الداكنة و عينيه السماويتين تتماهى مع ملامح المسيح أيضاً

● ديونيسوس : صدقت .. إنه كالمسيح الطبيب الذي يعتني بأمه العذراء المريضة .. الآن أصبح على قائمتنا كل من فرانسوا الفرنسي و أنطونيو المكسيكي مع والدته ..

○ هيكتور : إنها أجمل بداية ممكنة لرحلتك و خطتك سيد ديونيسوس .. و ما هي وجهتنا التالية .. ؟!

● ديونيسوس : جنوباً نحو أمريكا اللاتينية ، لكن قبل ذلك سنعود إلى كاليفورنيا لنتابع أعماله الخاصة هناك إضافةً إلى تحري سير العمل على الأرخبيل ، و هناك سنختار الدولة القادمة بالتحديد ..

الولايات المتحدة الأمريكية ..

كاليفورنيا / لوس أنجلوس ..

بعد أسبوع ..

كان مشروع الأرخبيل في قلب المحيط الأطلسي يتقدم بخطى ثابتة وحثيثة، جلس ديونيسوس وهيكتور تحت ظلال شجرة الصفصاف الوارفة، يستظلان بين وريقاتها الناعمة التي تراقصها نسائم المساء العليقة، في حديقة المنزل التي تملؤها روائح الأرض و ثقل الرطوبة ، يتبادلان الأفكار و يخططان لرحلتهما القادمة، تلك الرحلة التي ستأخذهما إلى أماكن

لم تطأها قدماهما من قبل، محملين بحلم جديد ينبض بالحياة.

و في وسط ذلك الهدوء الذي يكسوه عبق الطبيعة و حفيف أوراق الشجر، فجأة انقطع الحوار برنين جرس هاتف ديونيسوس، فتردد صدى النغمة في أجواء الحديقة وكأنه إشارة من القدر مجدداً .. خفق قلبه بدفقة مفاجأة، فقد كانت المكالمة من أنطونيو، ذلك الشاب الغامض من المكسيك، الذي لم يكن يتوقع أن يسمع صوته في هذا الوقت بالذات. أجاب بسرعة، وجاء صوت أنطونيو مفعماً بالحماس والسرعة، مستعداً لأن يقلب مجرى الأحداث بحديثه الغامض.

○ ديونيسوس : أهلاً بالشاب المكافح ..

● أنطونيو بفرحة عارمة : سيد ديونيسوس لن تصدق ما جرى ؟

○ ديونيسوس بفضول : خير أنطونيو..!؟

● أنطونيو : كل الخير سيدي ، المسيح تدخل بمعجزة جديدة .. لقد مشيت والدتي منذ دقائق خطواتها الأولى ..

○ ديونيسوس بذهول و سعادة : متأكد ! كيف جرى ذلك ؟ ..

● أنطونيو : كل التأكد ، لقد راجعنا بعد يومين من مغادرتكما أفضل مشفى في العاصمة مكسيكو سيتي و تم إجراء صورة رنين مغناطيسي لعمودها الفقري أظهر وجود ما دعاه الأطباء تشوه وريدي شرياني يضغط على النخاع الشوكي مسبباً الشلل السفلي .. بعدها بيومين خضعت لعملية جراحية و تم استئصال التشوه ، ثم بعدها بيومين آخرين بدأ العلاج الفيزيائي لها و بالفعل منذ دقائق خطت أُمي أولى خطواتها بمساعدتي وسط تأكيد الأطباء أنها ستمشي مجدداً بمفردها بعد أشهر قليلة من العلاج الفيزيائي ..

○ ديونيسوس : يا له من خبر سار أنطونيو .. لقد أثلجت صدري بالفعل

● أنطونيو : هذا كله بفضلك سيد ديونيسوس .. أنت ملاك من ملائكة الرحمة على هذه الأرض في صراع البشر مع شياطين الإغواء و الحاجة

○ ديونيسوس : الفضل كله لله و القدر يا أنطونيو ، أما أنا فمجرد إدارة

لا أكثر .. اعتن بنفسك و بوالدتك جيداً ، وسأكلّمك لاحقاً متى جهز الأرخبيل كما اتفقنا ..

● أنطونيو : إلى اللقاء سيدي و جزيل الشكر مجدداً ..

التفت ديونيسوس إلى هيكتور و أبلغه بالأخبار السارة الجديدة ..

○ هيكتور : من قال أن زمن المعجزات قد ولى ..؟!!

● ديونيسوس : لا تصدق يا هيكتور مقدار سعادتي بما أنجزناه حتى اللحظة ، هذا هو طعم الحياة الحقيقي و لاشك .. بمساعدة من هم أقل حظاً منك و تغيير حياتهم نحو الأفضل ..

○ هيكتور : بالتأكيد سيد ديونيسوس .. إنّ الدرب الجديد الذي اتخذته في حياتك هو الدرب السليم الذي ينتهي بمن سلّكه إلى السعادة الحقيقية و لا درب آخر يقود إليها بلا ريب .. إن كانت جميع الدروب تؤدي إلى روما فإن مساعدة الآخرين هو الدرب الوحيد الذي يفضي إلى السعادة و الرضا

● ديونيسوس : و هذا ما أدركته بتجربتي الشخصية .. لقد كنت أعمى تماماً في السابق يا هيكتور و جاهلاً بمتع الحياة الحقيقية .. أما الآن فأشعر بأن ثروتي ذات معنى و مغزى و بتّ راغباً بزيادتها أكثر لا لشيء سوى لمساعدة أكبر عدد من المحتاجين حول العالم .. أما مشروعي القادم الآن فهو إنشاء منظمة خيرية تعنى بالمشردين و المحتاجين في كل مكان لجمع التبرعات لأجلهم ، أريد بشدة أن تنتقل **عدوى الإنسانية و الشعور بالآخرين** التي أصبت بها بكل سرور و امتنان إلى جميع الأثرياء في العالم لقلب الموازين و اعتدال كفتي الميزان الإنساني .. و هي في نفس الوقت الطريقة الوحيدة لتخليص الأثرياء لأنفسهم من **لعنة المال و الثراء** التي تحيلك إنساناً جشعاً ، أنانياً و مادياً بشكل صرف يعيش وحده في برج عاجي دون أن يدري ما الذي يجري في قاع المجتمع من ألم ، حاجة و ظلم ..

○ هيكتور بابتسامة : تماماً .. لقد أفضت بك تجربتك الفريدة الجديدة إلى نفس النتيجة التي توصل إليها الأديب الشهير ابن بلدك اليوناني **نيكوس**

كازانتراكيس :

((الطريقة الوحيدة لتخليص نفسك هي بمساعدة

(الآخرين))

وفقك الله في مسعاك النبيل سيدي ، لم أرك سعيداً هكذا من قبل ، و هذا ما يجعلني بلا شك الشخص الأكثر سعادة في العالم بدوري ..

● ديونيسوس : أرجوك سيد هيكتور لا تنادني بعد اليوم سيدي .. بل فقط بني .. فأنت بمنزلة والدي الراحل ..

○ هيكتور و قد غصت عيناه بالدموع : يشرفني ذلك يا بني .. سأحاول القيام بذلك رغم صعوبته الكبيرة عليّ .. فلقب السيد بات يليق بك أكثر من أي إنسان آخر في هذه الحياة ..

إيكو الحورية

يحل القضية

الولايات المتحدة الأمريكية ..

نيويورك ..

مكتب التحقيقات ..

لم تكن قضية مقتل المراهق غايل — أو كما لقبه القاتل المجهول ،
فايتون الأرعن — قد هدأت بعد في أروقة التحقيق، إذ لا تزال الرسالة
المريبة ترنّ في ذهن المحقق فرانك كناقوسٍ من عالم آخر، حين تلقّى
بلاغًا جديدًا، هذه المرّة أكثر غرابة من سابقتها : رجلٌ وُجد مقتولًا في قبو
منزله الكائن في ضواحي نيويورك، دون أي علامات تدل على كسر أو
اقتحام.

تحرك فرانك بسرعة برفقة مساعده نوح، وكان قدميه تعرفان الطريق قبل
أن يُملئها عقله، فشيءٌ ما في داخله كان يخبره أن هذه الجريمة ليست
سوى فصلٍ آخر من الرواية الغامضة التي بدأت بجثة غايل.

وصلت السيارة إلى المنزل المنعزل، وكان الضباب يزحف برفق على
عتبات المكان كما لو أنه يحاول إخفاء سر قديم نسيه الزمان. أمام القبو،
كانت الشرطة قد طوقت المكان، والإضاءة الصفراء الخافتة من مصابيح
الفرق الجنائية كانت تلمع كأعين مفتوحة في الظلام.

نزل فرانك من السيارة ببطء، وبخطى واثقة اقترب من المدخل، وقبل أن
يعاين الداخل، تلقى موجزًا سريعًا من الضابط المسؤول :

((الضحية هو جاشوا جوهانسون 63 عاماً اعتاد على الاجتماع
بأصدقائه الثلاثة كل يوم مساءً في أحد بارات المدينة ، لكنه تغيب عنهم
منذ يومين و عندما حاولوا الاتصال به كان هاتفه مغلقا ، كذلك الأمر فهو
لا يرد على هاتفه الأرضي .. أتوا إلى منزله لتفقدته لكنه لم يفتح الباب
أيضاً ، و عند هذا الحد بلغوا على الفور دورية شرطة في الجوار و
شرحوا لها الموقف بدقة ، فقامت بخلع الباب ثم فتشت المنزل عنه خشية
أن يكون قد توفي بذبحة صدرية دون أن يعلم به أحد كونه يعيش بمفرده ،

لكنهم عثروا عليه ميتاً في قبو بمنزله بطريقة تؤكد أنها جريمة ..))

أما مسرح الأحداث فكان غريباً للغاية ، إذ تضمّن 4 أمور غير مفسرة ..

أولاً : الضحية نفسه كان مقيداً إلى كرسي ، مكّم الفم و معصوب العينين دون آثار للتعذيب أو العنف على جسده .. سبب الموت كما يبدو هو طلقة في الرأس بانتظار رأي الطبيب الشرعي سيكونيا ..

ثانياً : بين جسد الضحية و الحبال التي قيد بها ثبتت ورقة مطوية ذكرت فرانك على الفور بالجريمة السابقة بخصوص فايتون الأهوج .. و بالفعل عندما فتحها انتقل ببصره مباشرة إلى التوقيع في نهايتها و كان باسم : (أطلس العدالة) فجمد في مكانه من هول الصدمة .. ما الذي يفعله الطبيب بنجامين بحق السماء ؟

كان نص الرسالة غريباً تماماً كحال سابقتها :

اربطوا الدوائر بالمنزل المجاور

عندها إيكو الحورية سيحل القضية

فكلامها المسجل هو الدليل الأول ..

إنّ الغنى السريع نجم عن عمل مريع

و اليوم

الجاني يموت في نفس التابوت ..

أطلس العدالة

هز المحقق فرانك رأسه بدهشة فهذه دوامة جديدة من الأحاجي و الألغاز المبهمة !!! ناول الورقة إلى نوح كي يقرأها ثم تابع فحص المكان ..

ثالثاً : رُسمت دائرة أولى بخط أحمر عريض حول هاتفٍ موضوع على طاولة صغيرة ..

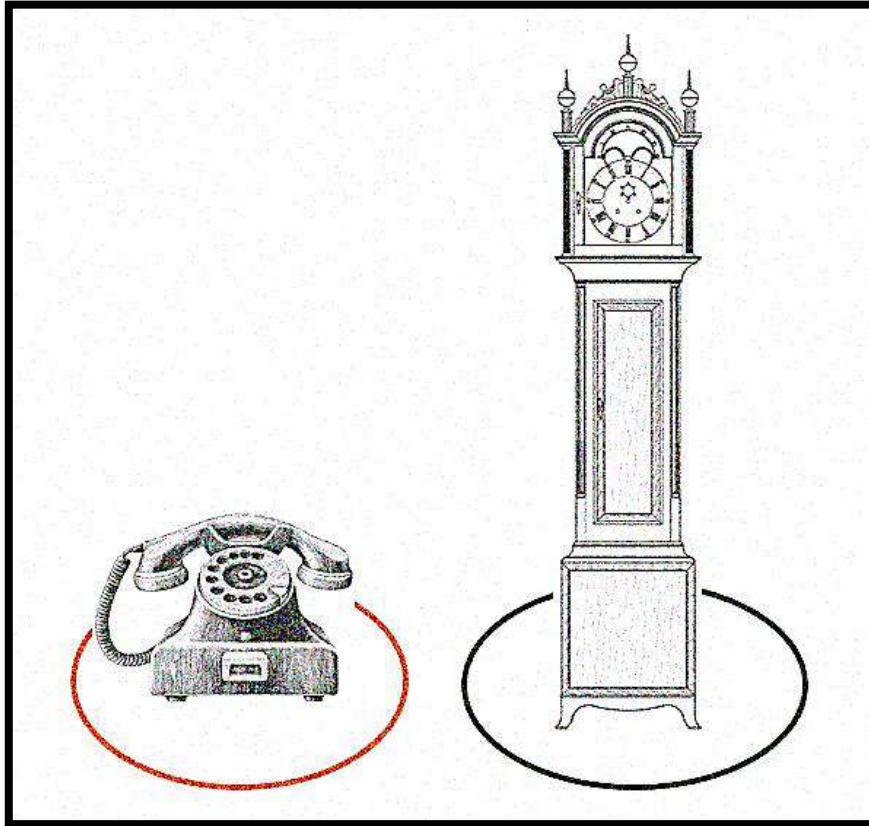
رابعاً : رُسمت دائرة ثانية بخط أسود عريض أيضاً حول ساعة شاقولية ذات بندول في صدر القبو ..

كان هذا و لاشك أغرب مسرح أحداث يصادفه فرانك في حياته المهنية .. انشغل الطبيب الشرعي سيكوياف فحص الجثة بحرص في حين كان فرانك و نوح يتهامسان حول هذه الأدلة الغامضة ..

● فرانك : يا لها من جريمة ملغزة كسابقتها ، إن لم تكن أعقد منها .. !!

○ نوح : بكل تأكيد ، و الرسالة الغامضة تحوي مصطلحات عجيبة كإيكو الحورية و نفس التابوت و الدوائر !!

● فرانك : بالفعل أغلبها غريب ، باستثناء الدوائر فهي موجودة في مسرح الجريمة حول الساعة ذات البندول و الهاتف ..



○ نوح : لكن إلام تشير ؟!

● فرانك : لا أدري بعد يا نوح ، تقول الرسائل أن علينا ربطها بالمنزل المجاور ، فهل يقصد الجاني بها جيران الضحية جاشوا ؟!

○ نوح : على الأرجح .. إذ لا تفسير منطقي آخر لها .. و النقطة الأهم في كل ذلك هي ظهور الطبيب بنجامين مجدداً على نحوٍ غريب و مريب للغاية .. فهل بدأ العمل كقاتل متسلسل .. و لماذا ؟ كذلك الأمر ما علاقته بكل هؤلاء الضحايا ؟

● فرانك: إنها متاهة من الأسئلة الكثيرة و المنطقية بدون أجوبة !! لنرى نتائج التحليل الشرعي و الجنائي عليهما يقدمان فائدة و يلقيان الضوء أكثر على حيثيات الجريمة الجديدة ..

انتهى الطبيب سيكويما من الفحص و بلغ المحقق فرانك بنتيجته الأولية ..
○ سيكويما : سبب الوفاة هو عيار ناري في الرأس ، ليس انتحاراً بالطبع بغياب أداة الجريمة و وضعية الضحية المقيدة.. زمن الوفاة المقدر منذ **48 ساعة** .. لا آثار للعنف أو الاعتداء .. و كالعادة سأكمل التشريح في المشفى كي أعدّ التقرير النهائي ..

● فرانك : جزيل الشكر لجهودك حضرة الطبيب ..

التفت فرانك إلى عناصره و أعطى تعليماته بإجراء ثلاثة أمور بأسرع وقت ممكن : التحقيق مع سكان المنزل المجاور المذكور في الرسالة و معرفة علاقتهم بالضحية و إعداد تقرير عن ذلك .. إعداد تقرير عن مصطلح إيكو الحورية الغريب .. إعداد تقرير مفصل عن الحياة الشخصية للضحية جاشوا ..

ثم انصرف مع مساعده نوح إلى مكتب التحقيقات ..

بعد ساعتين من وصولهما إلى المكتب استلم فرانك أول تقرير طلبه بخصوص مصطلح (إيكو الحورية) و لدهشته الشديدة فقد كان يتحدث

كما في الجريمة السابقة عن أسطورة إغريقية أخرى على نحو يؤكد ضلوع الطبيب بنجامين فيما يجري .. و كانت التقرير كالتالي :

((كانت إيكو، الحورية الجبلية، تجسيدا للجمال البري والصوت العذب، تعيش بين تجاويف **جبل كيثايرون**، حيث النسيم يتراقص بين الصخور، والضوء ينكسر كما لو أنه يهمس للأرض أسرار الآلهة. كانت لا تُرى بسهولة، كأنها ظل نسمة أو طيف حلم، لكن صوتها؟ كان يسكن الذاكرة، يُغني الريح ويوقظ الحجر.

كان زيوس، سيد الأولمب، مولعا بمطاردة النساء والحوريات، يمارس فتنه القديمة بأسلوب لا يشيخ. وكانت هيرا، زوجته الغيورة، تحوم كعاصفة تبحث عن البرق قبل أن يضرب. هنا تدخلت إيكو، لا عن خبث، بل بدافع من شقاوة الحوريات ورغبة دفينية في اللهو، فأصبحت لسانا يُشغل هيرا، تملأ أذناها بكلمات لا تنتهي، وقصص متشابكة لا توصل إلى شيء، فقط لتسرق انتباهها عن تحركات زوجها خلف الاناث ..

لكن لا سرّ يبقى مستورا أمام عينين تغليان بالغيرة. اكتشفت هيرا الحيلة، فاشتعلت نار غضبها كما يليق بالهة، وصبت لعناتها فوق لسان إيكو، لا بأن تُخرسها تماما، بل بما هو أسوأ: أن تبقى سجينة أصوات الآخرين، تُكرّر الكلمات التي تُقال لها، دون أن تنبس بكلمة من ذاتها. وهكذا، سُلبت إيكو قدرتها على التعبير، على البوح، على البكاء حتى ، إذ لا بكاء حين يكون الصوت مرآة لا نبعا.

ومنذ ذلك اليوم، كانت إيكو تجوب الجبال، بين الصخر والشجر، تردد ما يُقال لها، لا أكثر. ومن تلك اللعنة، وُلد الصدى، الذي نسميه اليوم باسمها، دون أن نلتفت كثيرا إلى مأساته: أن تسمع كل صوت، وتعيده، لكنها لا تملك شيئا من نفسها لتقوله.

وهكذا، تحولت إيكو من كيان ينبض بالحياة إلى فكرة، إلى انعكاس دائم، إلى أنين خفي في قلب الطبيعة، يذكرنا أن العقاب في الأساطير لا يكون بالموت دائما... بل أحيانا، يكون بالحياة الناقصة.))

نظر فرانك إلى نوح بدهشة .. فهذه الأسطورة و إن كانت مثيرة وشيقة ، لكنها لا تفسر شيئا بحد ذاتها ، بل تضيف ألغازاً جديدة على القضية ..

مع وصول التقرير الآخر بخصوص جيران الضحية جاشوا بعد ساعتين إضافيتين فُسرت الرسالة المشفرة و الأسطورة أكثر ..

نصّ التقرير الثاني على ما يلي :

((المنزل المجاور لمنزل الضحية يعود لعائلة السيد **ويليام ديفيز 53** عاماً و المؤلفة منه و من زوجته **هيلين** و ابنته **أريل** ، النقطة المثيرة في التحقيق أن الابنة **أريل** قتلت منذ عامين بجريمة غامضة بدأت باختطافها و هي بعمر **26** عاماً من قبل شخص غريب اتصل بعائلتها و طلب فدية بقيمة مليون دولار .. الغريب أكثر في الموضوع أن العائلة كانت قد ربحت قبل شهر بالضبط من عملية الخطف مبلغ مليون دولار في إحدى المسابقات التلفزيونية في إنجلترا .. مما يؤكد أن الخاطف يعرف العائلة جيداً و على علم بموضوع الجائزة .. بحسب كلام العائلة فهم أخفوا موضوع الجائزة عن معارفهم تجنباً للطلبات المالية التي ستنهال عليهم منهم .. و إن كانوا يجهلون إن كانت ابنتهم الراحلة **أريل** قد سربت الخبر لأحد ما .. و بالرغم من انصياع العائلة لطلب الخاطف و دفع الفدية فإنه قام بقتل **أريل** رغم ذلك ولف جثتها في سجادة ثم رمى بها في نهر هدرسون شرقي الولاية حيث عثر عليها أحد الصيادين فبلغ الشرطة على الفور ليتبين بعد فحص الجثة أنها تعرضت لطلق ناري في الرأس .. لم يتوصل أفراد الشرطة إلى أي شيء هام يخص المجرم و كان الدليل الوحيد في القضية هو كلام مسجل لـ **أريل** مع والدها من مكان خطفها بعد أن طلب الوالد التحدث إليها ليتأكد من سلامتها و هو مرفق مع التقرير و مدته **10** ثوانٍ فقط ، لكنه لا يحوي معلومات قيمة بعد الفحص ، و كان الاتصال من رقم هاتف خلوي غريب تبين لاحقاً أنه مسروق منذ **6** أشهر .. عائلة **أريل** لم تشك بأي أحد على الإطلاق .. و المثير مجدداً في القضية أنّ الضحية **جاشوا** هو أقرب صديق للسيد **ويليام** و قام بمساعدته بشكل هائل في كشف قاتل ابنته دون جدوى لتتحول القضية بعد عام إلى قضية باردة بانتظار ظهور أي شاهد أو دليل جديد))

نظر فرانك إلى نوح بذهول طاغ ..

● فرانك: لقد تذكرت على الفور قضية الشابة **أريل** ، إنها أيضاً واحدة من

القضايا الأربعة التي لم نصل إلى حلها منذ باشرت العمل هنا منذ 3 سنوات .. أمر مريب للغاية و يطرح عشرات الأسئلة ..

○ نوح : و هذا ما يعيد إلى واجهة الحديث الطبيب بنجامين مجدداً فهو على اطلاع بكل هذه القضايا إذ قام بنفسه بتشريح جثث الضحايا و يعلم جيداً أنها حولت إلى قضايا باردة دون حل ..

● فرانك: بالفعل .. هل يشير الطبيب هذه المرة أيضاً إلى ضلوع الجار جاشوا في قضية مقتل الفتاة أريل ديفيز ؟ ..

○ نوح : هكذا يبدو .. ومما يعزز ذلك هو اسم الفتاة (أريل) فهو سيدي إن لاحظت على اسم الشخصية الكرتونية الشهيرة حورية البحر أريل و لابد أن الطبيب لاحظ هذا التشابه فربط بين الشخصيتين ..

● فرانك : ملاحظة ذكية نوح .. لكن ما الذي يقصده بعبارة ((إيكو الحورية يحل القضية)) ؟ ..

○ نوح : هذا يُفسّر بدوره بالجملة التي تلتها في الرسالة وهي ((كلامها المسجل هو الدليل الأول)) لابد أنه يقصد به المكالمات المسجلة لأريل عندما طلب والدها التأكد من سلامتها ..

● فرانك: منطقي للغاية ، لنستمع إلى التسجيل على الفور ..

○ نوح : هذا هو الإجراء المنطقي حالياً ..

وصل إليهما القرص المضغوط بعد دقائق من الأرشفة ، فقم نوح بتشغيله على الفور ، لحظات وانبعث من الحاسوب صوتٌ خافتٌ مرتجفٌ، كأنه قادم من قاع بئر مظلم. ساد الصمت في الغرفة بينما صدحت عبر السماعات كلمات أرييل ، محمّلة برعبٍ طفوليٍّ لم يُلطّفه الزمن :

(أبي... الظلام دامس هنا، لا أرى شيئاً... وأنا مقيدة بقوة...)

وخائفة للغاية... أنقذني... أرجوك...)

انتهى المقطع كما بدأ، فجأة، تاركاً في الهواء ذبذبة من ألم يتعدّر احتواؤه.

نظر نوح إلى فرانك، وعيناه تبحثان عن شيء ذي قيمة في ذلك الصوت القصير الباكي، لكنه لم يجد. مجرد توسلات من فتاة مرعوبة، لا تحمل أي معلومات واضحة عن المكان أو الأشخاص.

غير أن فرانك، بخبرة الذئب العجوز، لم يرم التسجيل جانباً كما توقع نوح. بل على العكس، استدار ببطء ناحيته وابتسم بتلك الابتسامة التي تعرف جيداً طريقها حين تُحلّ عقدة صغيرة في نسيج كبير.. فاجأه المحقق بنقطتين هامتين لم ينتبه لهما نوح بقلة خبرته و ملاحظته و أثارتا إعجابه بشدة ..

○ نوح : لا شيء غريب في هذا المقطع سيدي !

● فرانك: كلا نوح هنالك دليلان هامان للغاية فيه .. أصغ إليه جيداً ..

أعاد فرانك تشغيل المقطع ثم قال ..

● فرانك: لا حظ أن لصوت أريل صدى يتكرر ..

○ نوح : إيكو الحورية !!

● فرانك: بالضبط و هذا يذكرنا بالأسطورة الإغريقية مجدداً .. كما يؤكد أن أريل كانت محتجزة في مكان مغلق ككهف عميق أو قبو ..

○ نوح بذهول : قبو منزل الضحية جاشوا !

● فرانك : منطقي جداً .. و قد قتلت أريل في نفس القبو و بنفس طريقة قتل جاشوا أي بغيار ناري كما كان مقيداً و مكماً و معصوب العينين مثلها تماماً أثناء خطفها كما شرحت لوالدها في التسجيل .. أي كما نصت الرسالة :

((الجاني يموت في نفس التابوت))

○ نوح : مدهش ! و الدليل الثاني ..؟

● فرانك: الدليل الثاني يؤكد استنتاجاتنا .. و هو صوت بندول الساعة في خلفية المقطع و هذا يتماشى بدوره مع الساعة التي وجدناها في قبو جاشوا
○ نوح : الساعة المحاطة بدائرة كالهاتف تماماً ..

● فرانك: تماماً كما نصت الرسالة ((اربطوا الدوائر بالمنزل المجاور))
فربط الهاتف بالساعة بجريمة خطف و مقتل الحورية أريل يعطينا نتيجة واحدة مؤكدة أن جاشوا هو الخاطف و القاتل و قد احتجزها في قبو منزله
○ نوح : يا لعبريتك سيدي ! أنت لا تنفك تذهلني يوماً بعد آخر ..

● فرانك مبتسماً : و يبقى أن نعرف سبب قيام جاشوا بقتل ابنة أقرب صديق له ؟

○ نوح : و هذا يعني انتظار التقرير الأخير بخصوص الحياة الشخصية لجاشوا ..

● فرانك: بالضبط ..

لم يتأخر التقرير الأخير سوى نصف ساعة أخرى و كان بين يدي فرانك فقرأه بصوت عالٍ على مساعده نوح ..

((جاشوا جوهانسون **63** عاماً ، أرمِل منذ **15** سنة و لديه ابن و ابنة يقيمَان في ميامي و تكساس على الترتيب بحسب ما ذكره الجيران .. لا يعمل منذ **7** سنوات ، عانى منذ سنتين من ضائقة مادية كبيرة بحكم أنه عاطل عن العمل و بلغت ديونه **300** ألف دولار و رفعت عدة قضايا عليه في المحكمة .. لكنه و على نحو فجائي قام بسداد جميع ديونه بعد شهر واحد فقط من مقتل الفتاة أريل ابنة صديقه وجاره ويليام ، كما أنه قام بعد **3** أشهر أخرى بتجديد منزله و حديقته و شراء سيارة جديدة .. و هو ينفق بسخاء منذ ذلك الوقت و يدفع المال مباشرة .. هذه المعلومات الجديدة لم تذكر في تقرير مقتل الفتاة أريل لأن جاشوا كان خارج محيط الشبهات تماماً بحكم جهله المفترض بموضوع الجائزة و صداقته القوية بعائلة الفتاة و عمره المتقدم و سمعته الجيدة في الحي .. لكنها قد تطرح

أجوبة مقنعة حول قضية الخطف و القتل السابقة))

● فرانك: حسمت القضية بهذا التقرير يا نوح .. فبعد تأكيد هوية الخاطف من خلال مكالمة أريل المسجلة .. حصلنا الآن على الدافع وهو الديون الكبيرة و الحاجة للمال بسبب عدم وجود عمل راهن للجاني .. كما نصت الرسالة مرة أخرى : ((الغنى السريع نجم عن عمل مريع)) .. فالمال الجديد الذي حصل عليه جاشوا هو من الفدية التي طلبها بعد خطف أريل قبل أن يقتلها ..

○ نوح : و يبقى هنالك سؤال هام لا أظن أننا سنحصل على جواب له بعد مقتل جاشوا ..

● فرانك : و ما هو ؟

○ نوح : كيف علم جاشوا بموضوع الجائزة ..؟؟

● فرانك : سؤال هام بالفعل ، لكن ذلك ليس عسيراً عليه .. ربما شاهد بنفسه برنامج المسابقات الذي شاركت فيه عائلة ويليام أو قرأ الخبر في الجرائد أو سمع من أريل نفسها أو من شخص أخبرته أريل بالقصة أو حتى من ويليام نفسه بينما كانا يشربان مع وصول ويليام لحالة السكر .. أو أي طريقة أخرى .. هذه ليست معضلة يا نوح ، لكن السؤال الأهم فعلياً هو : ما الذي يريده الطبيب بنجامين من عمليات الانتقام هذه ؟.. و لماذا يكلف نفسه العناء و يضع عنقه تحت مقصلة القانون .. فهذه رغم كل شيء جرائم وفق القانون و سيحاسب عليها لا محالة !!

○ نوح : معك حق سيدي .. سؤال غريب و محيرّ ..!!

ساد الصمت للحظات ثم قال فرانك بشروود و كأنه يحدث نفسه ..

● فرانك : أعتقد أن الطبيب بنجامين وفق مجريات الأحداث لن يكتفي بما فعله .. فمن الواضح أنه مقدم على حل لائحة الجرائم الأربعة التي عجزنا نحن عن حلها و ربما جرائم أخرى أيضاً ..

○ نوح : و أقرّ أنه ينجز ذلك بمنتهى البراعة و الدقة و الإتقان كعاداته ..

نظر إليه فرانك و أما برأسه بقوة ..

● فرانك : صدقت .. إنه ليس مجرد طبيب بارع .. بل محقق فذّ أيضاً ..
إنه أطلس العدالة كما لقب نفسه ذات يوم .. ينتقم من الجناة الذين ظنوا
أنفسهم قد هربوا من ميزان القانون و مطرقة القاضي بجرائم ظنوها كاملةً
ليعيدها من قضايا باردة بلا حل إلى قضايا مكتوية بلهيب الانتقام و العدل
بحلول مؤكدة .. فيحمل بذلك فوق كتفيه سماء العدالة بمنتهى الاقتدار ..

ثروة من

الشرف

الولايات المتحدة الأمريكية ..

كاليفورنيا ..

عقب اتصال الشاب أنطونيو المكسيكي و زفه للأخبار السارة بشأن تعافي والدته من جديد ، شرع ديونيسوس بحماسة بالتخطيط للخطوة التالية من مغامرة احتضان المحتاجين تحت سقف أرخبيله ..

○ هيكتور : إذاً وجهتنا التالية بني هي أمريكا الجنوبية ..

● ديونيسوس : بالضبط ..

○ هيكتور : و هل هنالك دولة معينة في ذهنك ؟..

● ديونيسوس : لا .. لكنني سأبحث مجدداً على هاتفي عن الدولة الهدف لمغامرتنا الثانية ..

بحث ديونيسوس على هاتفه لدقائق فوجد أن القارة اللاتينية تعج بالفقراء و المحتاجين و يمكن لأي دولة فيها أن تشكل هدفاً مثالياً لخطته ..

● ديونيسوس : إن قارة أمريكا اللاتينية تترشح بمعظمها تحت وطأة الفقر و العوز يا هيكتور !؟

○ هيكتور : أعلم ذلك ، لهذا كانت هذه القارة ولادة على الدوام للمناضلين الذين ثاروا على الظلم و حلموا بتحقيق العدالة و المساواة و الحياة الكريمة كأمثال الثائر الأرجنتيني الكوبي الشهير إرنستو تشي غيفارا الذي تحضرني الآن مقولته الشهيرة :

((لا يهمني أين ومتى سأموت، لكن ما يهمني بحق أن يبقى

الشوار صاحين، يملؤون الكون ضجيجاً حتى لا ينام العالم بكل

نقله فوق أجساد البائسين والفقراء والمظلومين))

● ديونيسوس : كلام بليغ أتفق معه بشدة .. إن هذا التأثير يشاطرنى نفس الأحلام حالياً و مقولته هذه تلخص فلسفتي الجديدة في الحياة ..

○ هيكتور مبتسماً : أما من جهتي فأنت يا بني تذكرني حالياً ببوذا الحكيم ، إذ أنكما نهجتما ذات المسار في حياتكما .. فيروى عن بوذا أنه كان ابناً لشخص ثري للغاية و ذو سلطة واسعة .. لكنه تخلص عن كل ذلك في شبابه و اتخذ قراراً بالسفر بعيداً لمساعدة الناس على العيش بطريقة صحيحة قائمة على السمو بأرواحهم و مساعدة الغير .. كما تفعل أنت اليوم بالضبط .. و هذا ما لخصه بوذا الحكيم بمقولته الشهيرة ..

((إنكم تجعلون من ذواتكم سجوناً ضيقةً مظلمةً قاتلةً ، حين

تعكفون على أنفسكم وحدها ، وتعيشون لأنفسكم وحدها))

● ديونيسوس : يا لها من مقولة رائعة و دقيقة أخرى .. إنّ لقب الحكيم يليق به بالفعل .. إنّ شغفك بالقراءة يا هيكتور جعل منك أشبه بمحرك بحث بشري !! ..

سأتابع بحثي على الهاتف على كل حال ..

بحث لدقائق أخرى، كمن ينقب في غبار العالم الرقمي عن شرارة قد توقظ شيئاً في داخله. كانت عيناه تجوبان الكلمات بلا هدف ظاهر، لكن قلبه كان يبحث عن شيء لم يُسمّه بعد. ثم توقّف فجأة، كأن الزمن علق بين سطرين.

مقالة، لا تختلف عن سواها في الظاهر، لكن شيئاً فيها بدا له وكأنه كُتب خصيصاً له، وكأنّ أنامل إله القدر دسّتها بلطف بين زحام الاحتمالات، ووضعها أمامه لا لتقرأ فحسب، بل لتُعاد قراءتها بشغف العارف أن ثمة باباً سيُفتح.

كانت تتحدّث عن الفافيل... تلك الأحياء العشوائية المترامية في خاصرة ريو دي جانيرو، حيث تتشابك الأرواح كما تتشابك الأسلاك بين الجدران،

وحيث يتكىء الفقر على جدران منسية، ويُرصف الحرمان في الأزقة كما تُرصف الحكايات القديمة التي لا يجرو أحد على روايتها كاملة.

هناك، حيث المنازل تصطف كأسرار خجلة، بعضها فوق بعض، تقف على ما تبقى من شمس، وتستحم بماء المطر إن رضي أن يزور.

شيء في وصف المقالة أيقظ في داخله حنيناً غامضاً، كما لو أن جزءاً منه سبق أن سار في تلك الأزقة، وتلمس بيده تلك الجدران، واستنشق هواءها المليء بصخب الحياة ورائحة القهوة الرخيصة الممزوجة بالتراب.

لم يكن يعرف ما الذي جذبه بالضبط: أهو الفقر الموشوم على الوجوه؟ أم الكرامة التي تشبثت بعناد في زوايا النسيان؟ أم لعلها تلك النار الخاملة في صدره والتي وجدت أخيراً شرارتها؟

كل ما كان يعرفه أنه لم يعد بحاجة إلى التفكير. ففي تلك اللحظة، لم يكن القرار قراراً، بل قدراً استيقظ من نومه الطويل.

حزم أمره نهائياً، لا على طريقة المسافرين الذين يخططون، بل على طريقة الحالمين الذين يقفزون، كمن يسمع نداءً لا يُرد، ويعلم أن عليه أن يذهب، حتى لو لم يعرف تماماً إلى أين سيصل.

○ هيكتور : اختيار موفق .. لقد سمعت عنها من قبل .. إن درجة البؤس الذي يعشعش في حناياها يدمي القلب بحق ..

● ديونيسوس : هذا ما كتب عنها تماماً في هذه المقالة .. احجز لنا تذاكر السفر و غرفة في إحدى فنادق المدينة للغدا يا هيكتور ..

○ هيكتور : أظن أننا بحاجة لمترجم يرافقنا في هذه الرحلة فنحن لا نعرف شيئاً عن اللغة البرتغالية و من المؤكد أن سكان تلك الأحياء لا يعرفون اللغة الإنجليزية بدورهم ، يجب ألا نقع في خطأ المكسيك ثانية ..

● ديونيسوس : محق كعادتك .. أنت المساعد الذي يحلم به أي رجل أعمال يا هيكتور .. اتفق إذاً مع مترجم خاص هنا ليسافر معنا ..

○ هيكتور مبتسماً من الإطراء : على الفور بني ..

البرازيل / ريو دي جانيرو ..

الساعة 7 مساءً ..

نزل ديونيسوس وهيكتور في إحدى غرف فندق معروف يتربّع على قلب المدينة، حيث الأنامل البرازيلية تنبعث من كل زاوية كأنّها موسيقى صامتة تعزفها الجدران بأوتار من رخام. أما المترجم أوتافيو، فقد استقرّ في غرفة مجاورة، تاركًا الرجلين ليُدونا معًا أول سطور المغامرة.

وبعد أن نظّما أمتعتهما بفتور المسافرين المعتادين على الترحال، اتّجها إلى شرفة الغرفة في الطابق العاشر، حيث تبدأ الحكاية الحقيقية للمدن من الأعلى.

هناك، وقفًا بصمت، كأنّهما لا يريدان أن يُفسدا بجملة واحدة روعة المشهد المتدلّي أمامهما. ريو دي جانيرو انكشفت لهما بكل عنفوانها وغموضها، تنهّدى بين البحر والجبل كراقصة سامبا قديمة نسيت أن تشيخ.

بدت التلال التي تنبثق من قلب المياه كأنّها رؤوس بشرية مرفوعة، تبتهل في صمت إلى تمثال المسيح الفادي المنتصب فوق أعلى القمم، ذراعاه مفتوحتان لا كتهديد، بل كحضن أبدي يبارك المدينة ويمسح على جبينها المثقل بالضجيج والحلم.

وفي الجهة الأخرى، انبسط شاطئ كوبا كابانا تحت أنظارهما مثل سبيكة ذهبية خالصة، سقطت من يد الزمن على حافة المحيط. المصطافون تناثروا فوقه، ومظلاتهم الملونة تومض كأحجار كريمة بعثرها طفل فوق رمال الكنز.

أما الأفق، فكان يلفظ آخر أنفاس النهار، متوهّجًا بلون أرجواني يقطر من بين أهداب الغروب كالحبر الذي يسيل من ريشة فنان عاشق. بدت الشمس

وكأنها تُغرق نفسها طواعية في حضن الأطلسي، في طقس وداعٍ بطيء لا يخلو من التراجيديا.

وقف ديونيسوس وهيكتور مشدوهين، يتنفسان المشهد كما لو أنه صلاة مرئية، لوحة خالدة أفلتت من خيال **كلود مونيه** وهربت من إطارها لتستقرّ على هذه الشرفة، في هذه اللحظة، لهذين الغريبيين اللذين لم يخطّطا سوى للنظر... فوجدّا الجمال يحدّق فيهما.

● ديونيسوس : يا له من منظر خيالي..

○ هيكتور : بالفعل ، يبدو كمشهدٍ هاربٍ من روايات ألف ليلة و ليلة !!

● ديونيسوس : غداً و في تمام الساعة التاسعة صباحاً بعد الإفطار سننطلق مباشرةً إلى أحياء الفايفلا لنختار من سكانها لؤلؤة جديدة تنضم إلى الطوق الذي سيزين عنق الأرخيل ..

○ هيكتور : على بركة الله بني.. سأبلغ المترجم أوتافيو بذلك على الفور

صباح اليوم التالي ..

انطلقت سيارة الأجرة تشقّ قلب المدينة كنصل في صدر الزحام، تقلّ الثلاثة: ديونيسوس، وهيكتور، وأوتافيو. بدا المشهد من النوافذ الخلفية للفندق أشبه بفصلٍ أنيق من كتاب مصوّر، لكن كلما توغّلت السيارة نحو الأطراف، أخذت صفحات المدينة تتبدّل شيئاً فشيئاً.

تقلّصت الأرصفة، وبهتت ألوان الواجهات، ثم انبثقت من التلال المحيطة هياكل منازل عشوائية، متراسة كأنها لا تجرؤ على السقوط لأن لا أحد هناك سيتكفل بإعادة بنائها. سقوف من الصفيح، نوافذ خجولة، جدران تتن تحت وطأة الزمن، لكنها متساندة كما أهلها: لا يملكون إلا بعضهم، ومع ذلك يكفيهم ذلك ليبقوا واقفين.

كانت الفافيلّا تمتد أمامهم كخلفية نحلٍ عملاقة، خيوطها من الإسمنت والتعب، ودبيبها من بشر حوّلهم البؤس إلى حكماء بالفطرة، وجعل من الضحكة لديهم سلاحًا لا يُهزم.

توقّفت السيارة أخيرًا عند مدخل الحيّ، فترجّلوا بخطى حذرة، كمن يدخل مكانًا لا ينتمي إليه لكنه يتوق إلى فهمه. أخذوا يشقّون طريقهم بين الأزقة الضيقة، الملتوية كأنها تتعمّد تضليل كل من لا يعرفها. كانت العيون تلاحقهم بصمتٍ مستفهم، عيون أنهكها الزمن لكنّها لم تفقد قدرتها على قراءة النوايا من النظرات.

وجوه جلدية، نحتها الفقر كما تنحت الريح الصخور، لا تخلو من تجاعيد كثيفة تُنبئ عن شيخوخة مبكرة، لكنها - لدهشتهم - لا تخلو من ابتسامة أيضًا.

ابتسامة مشرقة، متحدية، تسخر من واقعٍ هشّ، وتنتصر عليه كل صباح.

كانت تلك المفارقة سحرية بحق. شيءٌ في هذا الفقر كان يسمو بأصحابه لا يُذلّهم. لم يكن الحيّ كما تخيّل ديونيسوس؛ كان أوسع، أعمق، وأشد امتلاء بالحياة مما تستطيع الخرائط أن تُدوّنه.

وبينما كانوا يسيرون، قادتهم الضوضاء إلى ساحة صغيرة نُصبت بين البيوت كقلب يخفق في صدر المدينة المنهكة. هناك، كانت الصرخات والضحكات ترتفع في السماء كأنها صلاة لا تحتاج إلى معبد.

عشرة أطفال يلعبون كرة القدم بكرة رثة، مهترئة، لا تصلح لشيء في عُرف المحترفين، لكنها عندهم أغلى من الذهب. نصبوا أعوادًا خشبية كمرميين افتراضيين، وجعلوا من الأرض غير المستوية ملعبًا حقيقيًا لا يعرف الملل.

وفي تلك اللحظة، و كما يُقال: السعادة معدية ، شعر ديونيسوس بشيء دافئ يتسرّب إلى صدره، إحساس غريب يشبه البكاء بلا دموع. كانت الضحكات التي تملأ الساحة تخترق حصون الكآبة بداخله، وتعلّمه درسًا

جديدًا: أن البؤس قد يحتل البيوت، لكنّه لا يعرف طريقه إلى قلوب الأطفال حين يركلون كرة بحماسة النجوم.

إنها البرازيل، بعد كل شيء.

عرّابة المجد الكروي، وولادة الأساطير، حيث وُلد بيليه من رحم حيّ مثل هذا، وحيث تتحوّل الأزقة إلى ملاعب، والصبية إلى سحرة.

لكن عين ديونيسوس توقفت فجأة.

كان هناك طفل مختلف. طفلٌ شدّه إليه كأن إله القدر قد أخرج إصبعه من السماء وأشار إليه قائلاً: هذا هو ..

كان الطفل يحرك الكرة كأنها امتداد لجسده، تتراقص بين قدميه كأنها عرفت موطنها، ثم ينسل كنسمة بين اللاعبين، يتلوّى كالزئبق، ويصنع الأهداف وكأنه يرسم القصائد. صفق له الكبار الذين تحلّقوا حول الساحة، بعيون فيها من الإعجاب أكثر مما في الملاعب الاحترافية من أضواء.

أشار ديونيسوس إلى أوتافيو، وهمس له :

● ديونيسوس : تعال يا صديقي، أريد الحديث مع ذلك العجوز هناك.

كان العجوز يتكئ على عكاز يبدو أكبر عمراً منه، حتى لتحتار العين أيهما يساند الآخر. ملامحه مهذومة بعض الشيء، لكن عينيه... كانتا مشعتين، تتابعان الصبي كما يتابع المرء شمسّه الخاصة.

اقتربا منه بهدوء، وباحترام، ودار بين الثلاثة الحديث التالي، تنقلّه أوتافيو من البرتغالية إلى الإنجليزية كمن يترجم قصة من كتاب الحياة نفسه...

● ديونيسوس : يبدو أنك عاشق لكرة القدم سيدي ..

○ الرجل : بالطبع .. أنا برازيلي سيدي و كما يقول أسطورتنا بيليه :

((البرازيل تأكل و تشرب كرة القدم و تنام عليها .. بل هي

تعيش على كرة القدم))

و في جو الفقر الذي نعيشه هنا فإن كرة القدم متنفسنا الوحيد و مصدر
البهجة و الطاقة و الأمل لنا ..

● ديونيسوس : من اللافت و الغريب أن شغفك بها لم يقل رغم تقدمك
بالعمر ، إن شغفك يشبه شغف هؤلاء الأطفال بكرة القدم تماماً ..

○ الرجل بابتسامة : يقول الكاتب الأمريكي مارك توين سيدي :

((سر العبقرية هو أن تحمل روح الطفولة إلى

الشيخوخة، ما يعني عدم فقدان الحماس و الشغف

أبدا))

هز ديونيسوس رأسه معجباً بمقولة هذا العجوز الحكيم و مندهشاً من
اطلاعه على أقوال العظماء في هذه الأحياء البائسة ..

○ الرجل : يبدو عليك التعجب من ثقافة عجوز مثلي يعيش في هذه
الأحياء الفقيرة ..

● ديونيسوس : في الحقيقة .. أثرت دهشتي بالفعل !

○ الرجل : ربما نحن لا نملك المال سيدي .. لكننا نملك عقولاً تواقّة و
أرواحاً مرهفة ..

أوماً ديونيسوس برأسه موافقاً ثم أشار إلى ذلك الطفل البارِع ..

● ديونيسوس : طفل موهوب بلا شك ..

○ الرجل مبتسماً : بالطبع .. إنه تياغو جوهره الفافيل الكروية .. و
الجميع يتنبأ له بمستقبل عظيم كخليفة لبياليه ..

صمت الرجل للحظات ثم قال بأمل طاغ ..

○ الرجل : هل أنت من مكتشفي المواهب الكروية ؟

● ديونيسوس : شيء من هذا القبيل .. و من هي عائلة الطفل تياغو سيدي ؟

○ الرجل : والده **رودريغو** هجر العائلة منذ **7** سنين و انتقل إلى **ساو باولو** ثم انقطعت أخباره لذا فأمه **بيتريز** تهتم به و بأخوته الثلاثة الأكبر منه ، حيث تعمل بالخياطة و حياكة الثياب بينما يقوم ابنها البكر **غوستافو** بنقل الملابس إلى قلب المدينة يومياً لبيعها على أرصفة الطرقات على نحو يسد رمقهم نوعاً ما ..

● ديونيسوس : و هل يمكنني الحديث مع تياغو ؟

○ الرجل : بالطبع ..

نادى الرجل على تياغو بصوت عالٍ ، فترك الطفل زملاءه و اتجه إليه على الفور و قال باحترام ..

● تياغو : أهلاً عمي **بابلو** .. كيف أخدمك ؟

○ بابلو : هذا هو السيد ..

● ديونيسوس : ديونيسوس .. أدعى ديونيسوس ..

○ بابلو : السيد ديونيسوس من مكتشفي المواهب و أعجب بأدائك للغاية، لذا يريد الحديث معك ..

نظر تياغو إلى ديونيسوس بلهفة و أمل ..

● تياغو : تحت أمرك سيدي ..

○ ديونيسوس : كم عمرك يا تياغو ؟

● تياغو : **10** سنوات سيدي ..

○ ديونيسوس : و في أي صف مدرسي أنت ؟

● تياغو بابتسامة : لا مدارس هنا سيدي .. لكن هنالك الأستاذ إيفيرتون يتبرع بتعليم الأطفال القراءة ، الكتابة ، الحساب و بعض العلوم الأخرى ..

○ ديونيسوس : و لماذا لا تتعلم الآن ، إنها العاشرة صباحاً !!؟

● تياغو : اليوم هو الأحد سيدي .. عطلة من كل واجب و أتفرغ فيه لممارسة كرة القدم عشقي الأبدي..

○ ديونيسوس بابتسامة : و ما الذي تعنيه لك الكرة يا تياغو ؟

● تياغو : كرة القدم هي كل شيء في حياتي سيدي.. أنا أتنفس كرة القدم !

دهش ديونيسوس من هذه المقولة الصادرة عن طفل صغير ..

○ ديونيسوس : تتنفسها ؟!

● تياغو : أجل .. كرة القدم هي وسيلتي للسعادة و إسعاد الآخرين على حد سواء و السعادة كما تعلم سيدي هي غاية الإنسان و أثمن كنز قد يمتلكه و كما تؤمن والدتي أيضاً فهي طريقنا للخلاص من الفقر.. إنها تخبرني دوماً أنني سأصبح لاعباً مشهوراً و غنياً ذات يوم ..

○ ديونيسوس : أنت طفل ذكي للغاية يا تياغو .. و لا أشك أبداً بأنك ستصل إلى ذلك المقام الذي تتنبأ به والدتك .. هل يمكنني لقائها بالمناسبة..؟

نظر تياغو إلى العجوز بابلو يستفهم منه كيف يجيب فهزّ بابلو رأسه بالموافقة ..

● تياغو : بالطبع سيدي تعال معي ..

انطلق الأربعة — ديونيسوس، وهيكتور، وأوتافيو، وتياغو — في أزقة الفافيل الضيقة التي كانت تلف حولهم كأفعى منسية، متشابكة، ملتوية، كأنها مصممة عن قصد لتضلّل الزائر وتختبر نيّته. كانت الأزقة أشبه

بشرايين حيّ قديم ينبض بالتحديّ، حيث كل زاوية تُخبئ حكاية، وكل جدار يحمل وشماً من الزمن.

كانوا يسIRON تحت أسقف متداخلة، بعضها من الصفيح، وبعضها الآخر من خشب قديم، يعاني من التعب كما يعاني سكّانه من الانتظار. هنا رائحة طعام تقليدي تتسلّل من نافذة مفتوحة، وهناك صوت مذياع يبث أغنية حزينة من سنوات الستين.

الألوان على الجدران كانت باهتة، لكنها باقية، تماماً كأحلام هؤلاء الناس.

خلال عشر دقائق من السير، بدت الطريق وكأنها تطول بعمر الحياة، حتى بلغوا منزلاً متهاكاً يربض في أحد المنعطفات كأنّه يخشى السقوط لكنه ما زال يقاوم. سقفه من الصفيح الصدئ، وجدرانه تحمل خدوش الزمن وذكريات كثيرة لا تُروى إلا بالصمت.

تقدّم تياغو وطرق الباب عدة مرات، بنقرتين خفيفتين ثم واحدة أقوى، كإشارة يعرفها من الداخل.

لحظات قليلة مرّت كأنها دهر، ثم فُتح الباب ببطء، وكأنّه لم يُفتح منذ زمن.

ظهرت فتاة مراهقة، لا تتجاوز السادسة عشرة من العمر، بملامح تحمل مزيجاً من البراءة والحذر. كانت عيناها واسعتين، تغلفهما الدهشة، ووجهها يتأرجح بين الترحيب والريبة.

نظرت إلى الجمع الواقف أمامها، ثلاثة رجال غرباء، أحدهم أشقر قليلاً، لامع كأنه خرج تَوّاً من بوستر أوروبي، وآخر بعينين تشي بأنّه رأى أكثر مما ينبغي في هذا العالم.

ارتبكت للحظة، لكن تياغو كان قد ابتسم، تلك الابتسامة الطفولية التي لا تزال تقاوم داخله، وقال بلطف مفعم بالبراءة :

● تياغو : مرحباً كاميليا .. هؤلاء السادة هم مكتشفوا مواهب كروية و

يرغبون بقاء والدتنا ..

○ كاميليا بابتسامة عريضة : بالطبع تفضلوا ..

كان المنزل غرفة وحيدة، واسعة نوعًا ما، لكنها خالية من كل ما يوحي بالراحة الحديثة. لا كراسٍ، لا طاولة، لا خزانة. فقط جدران تنقش صامتة، كأنها ملّت من التجلّ، وسقفٌ يئنّ من الصفيح في سكون ما قبل العاصفة.

على الأرض، امتدّت بُسط ملونة، مهترئة الأطراف، لكنها تشعّ بروح لم تنكسر. ألوانها باهتة، نعم، لكنها ما زالت تروي شيئًا من الدفء، شيئًا من الحنين.

في ركن من الغرفة جلست سيدة أربعينية، ظهرها مستقيم رغم السنين، تلوّن أناملها على آلة خياطة قديمة إيقاعًا يشبه نغمة أمل تتكرر بعناد. كان ثوبٌ نصف مكتمل يرتاح على ركبتيها، خيط أزرق ينساب من الآلة، وعينان غائرتان لا تعرفان سوى التركيز والكّد.

كان هناك شيء في حضورها لا يمرّ عابرًا... شيء يوحي بالخلود. وجهها الغضّ المجهد، ويدها المتقرحتان، وتلك السكينة الصارمة التي تُشبه تمثالًا فرعونيًا سكن الزمان دون أن يهتز.

ديونيسوس، في اللحظة الأولى التي وقع نظره عليها، شعر وكأنه أمام شخصية خرجت من زمن آخر. ربما كانت الهيئة، أو القدم العارية الصامتة، أو التجاعيد التي تروي سيرة حياة دون أن تنطق بحرف... أو لعلها تلك المهابة الغامضة التي لا تُفسّر.

وما إن تنأهى إلى سمعها صوت تياغو عند الباب وهو ينطق بعبارة : (مكتشفي المواهب) ، حتى توقّف الخيط عن الركض، وتوقّفت معه عقارب الغرفة.

نهضت واقفةً بسرعة لا تليق بجسد أنهكه التعب، واقتربت منهم بخطى

تحمل شيئاً من الرجاء وشيئاً من الترقّب، وكأنّها تعرف أنّ تلك اللحظة قد لا تتكرّر أبداً.

مدّت يدها لتحبيّهم، بوجه تتراقص فيه مشاعر لا تُحصى: امتنانٌ مبهم، دهشة خافتة، وبهجة مكبوتة تُخفيها عن الزمن لكنها لا تستطيع إخفاءها عن الزائرين.

وتولّى أوتافيو الترجمة، يتنقّل بين اللغات كجسر حيّ بين العوالم. كان صوته يحمل نبرة من يعرف أن كل كلمة تُقال الآن قد تغيّر مجرى حياة.

قالت، بعينين تلمعان كما لا تلمع إلا في لحظات المعجزة:

● بيتريز : أهلاً بكم أيها السادة .. أنا بيتريز والدّة تياغو .. أعتر عن ضيق المكان و بساطته .. لكنه الحال هنا في الفافلا ..

○ ديونيسوس : المكان يحدد بقاطنيه و ليس باتساعه و أثاثه .. نتشرف بمعرفتك سيده بيتريز .. سمعت أن والد تياغو هاجر المدينة منذ سنين ..

ارتسمت علامات الأسى و الألم على وجه الأم ..

● بيتريز : للأسف هذا صحيح .. لقد ضاق لوكاس من الفقر في هذه البلدة و بأعباء عائلته لذا عندما تعرّف على راقصة تعرّي من ساو باولو هنا في ريو دي جانيرو اتفقا معاً على العودة إلى ساو باولو و العيش هناك .. لم نسمع أخباره من ذلك اليوم ..

○ ديونيسوس : يا له من أب نرجسي و غير مسؤول .. لابد أن تربية 4 أولاد بمفردك أمر شاق للغاية خاصة في ظروف هذه الأحياء القاسية ..

● بيتريز : أجل إنه شاق للغاية ، فأنا أعمل 14 ساعة يومياً على آلة

الخيطة هذه التي هي هدية أبي الراحل لي بمناسبة زواجي و هي معيلنا الوحيد في هذه الحياة .. إنها لا تحيك الثياب فحسب بل تحيك ما يستر حياتنا كلها .. أحياناً أشعر باليأس و عدم القدرة على المواصلة و الرغبة

بالاستسلام تماماً لكنني أتذكر مباشرةً مقولة الأم تيريزا المباركة :

« أحيانا أجدني أقول : لا أستطيع التحمل أكثر من هذا ،

لكنني في نفس اللحظة أقول : آسفة إلهي ، افعل بي ما تشاء »

إنها مقولة تمدني بالقناعة بقسمة الله و التحمل على الدوام متألمةً به خيراً

صمتت بيتريز للحظات و قد بدأت الدموع تغزو عينيها في حين سارع ديونيسوس المندهب من هذين اليومين المليئين بالمقولات و الحكم المذهلة بتغيير الموضوع أمام دموعها ..

○ ديونيسوس : هنيئاً لك بولدك تياغو إنه جوهرة كروية بحق ..

● بيتريز : و هل تودون حقاً تبني موهبته ؟ ..

○ ديونيسوس : في الحقيقة أنا لست من مكتشفي مواهب ..

بدت علامات الخيبة واضحة على محيا الثلاثة ، تياغو و كاميليا و والدتهما .. فسارع ديونيسوس بالمتابعة ..

○ ديونيسوس : لكنني سيدتي ملياردير أمريكي أعجبت للغاية بموهبة تياغو و بعد سماعي لقصتكم كاملة اليوم لديّ عرضان لأقدمهما لكم ..

عاد الأمل مجدداً ليجتاح وجه بيتريز ..

● بيتريز: تفضل ! ..

○ ديونيسوس : العرض الأول هو بخصوص تياغو .. فقد قررت أن أتواصل مع عدة أندية أوروبية عريقة و أطلعها على موهبته الفريدة فإن أعجبت إحداها بها و هذا ما لا أشك به سيتبنون موهبته بأنفسهم ليتنقل عبر الفئات العمرية حتى يصبح لاعباً مشهوراً على مستوى العالم ..

● بيتريز و الدموع في عينيها : أشكرك سيدي .. اشكرك .. لتحملك

العدراء من كل شر و مكروه ..

○ ديونيسوس : أفهم من ذلك أنك موافقة على العرض .. رائع .. إذاً ننتقل إلى العرض الثاني ..

صمت ديونيسوس للحظات ثم صب كلماته المنتقاة بعناية ليملأ بها دلو الأمل و الفرج الفارغ في حياة تلك العائلة ..

○ ديونيسوس : لقد اشتريت أرخبيل جزر في وسط المحيط الأطلسي كان ذات يومٍ تابعاً لبلدكم البرازيل لذا فهو ليس ببعيد عنكم .. ثم قررت انتقاء مجموعة من الناس حول العالم للسكن فيها بحياة كريمة مؤمن فيها كل شيء .. فهل توافقين على الانتقال مع أولادك إليها .. إنها فرصة من السماء للخروج من حالة الفقر التي تعيشونها على ما أعتقد ..

قفزت ابنتها كاميليا تصفق فرحةً في حين نظرت إليه بيتريز غير مصدقة لما سمعته ..

○ ديونيسوس : هل ثمة خطب ما بالعرض الثاني سيدتي ؟

تمالكت بيتريز نفسها و صاحت بصوت مخنوق بالدموع ..

● بيتريز : أبداً أبداً .. موافقة بالطبع .. من أنت سيدي بحق السماء ؟.. قديس جديد ؟!

○ ديونيسوس : أبداً ، أنا مجرد إنسان منّت عليه السماء بالمال فوضع نفسه في خدمتها لمساعدة الآخرين الأقل حظاً .. على كل حال هذا رقم هاتفي و سأتصل بكم خلال أشهر قليلة عندما أنتهي من تجهيز الأرخبيل للانتقال إليه .. أما تياغو فسأضع كل إمكانياتي لأقنع أحد الأندية العريقة بتبني موهبته ثم أبلغكم بالنتيجة .. هل لديكم هاتف هنا ؟

● بيتريز : للأسف لا ، لكن هنالك هاتف في منزل السيد فابيان و لدي رقمه ..

○ ديونيسوس : سيفي ذلك بالغرض .. أعطني رقم فابيان و أخبريه أنني

سأتواصل معه لأخبركم بمصير تياغو و موعد انتقالكم إلى الأرخبيل ..

قام ديونيسوس بحفظ الرقم ثم أخرج رزمة مال من حقيبته ..
○ ديونيسوس : هذا بعض المال سيدتي لتحسين معيشتكم مبدئياً ريثما
تنتقلون إلى منزلكم الجديد في الجزيرة ..

● بيتريز : كيف أشكرك سيدي .. أعذرنى فلا شيء لدي هنا لأقدمه لك
○ ديونيسوس : سأكتفي بحياكة ثوب جديد لي من يديك المكافحتين ، لكن
ليس الآن بل بعد الانتقال إلى الأرخبيل .. هل هذا مناسب لك ؟
● بيتريز : بالطبع .. هذا شرف كبير لي سيدي ..

○ ديونيسوس : اتفقنا إذاً .. نلتقي ثانية على تلك الجزر بإذن الله .. أما
الآن فعلينا المغادرة سيدتي الفاضلة ..

غادر الثلاثة منزل تياغو البسيط و غمامة من الحبور و الرضى تحوم
فوق رؤوسهم .. لقد اكتمل حتى الآن نصف العقد الفريد الذي سيزين عنق
الأرخبيل

الولايات المتحدة الأمريكية ..

كاليفورنيا / لوس أنجلوس ..

بعد أسبوع ..

تمكّن ديونيسوس، بعد اتصالات مكثّفة قادها بدهاء رجل يعرف كيف
يربّت على أبواب القدر، من التواصل مع أحد أعظم الأنديّة الأوروبية
على الإطلاق : بايرن ميونخ، النادي الألماني العريق الذي لا يراهن على
الحظ بل على الموهبة الصافية، تلك التي لا تحتاج إلى مصابيح كهربائية
كي تُضيء، لأنها مشتعلة من الداخل.

لم يحتج الأمر إلى كثير من الإقناع، فديونيسوس أرفق في رسالته مقاطع مصوّرة لطفل يرقص بالكرة لا يلعب بها، يختفي بين المدافعين كظلّ، ويظهر فجأة ليضع الكرة في الزاوية المستحيلة، كأنّه يوقع لوحة لا هدفًا.

وبالفعل، لم تمضِ أيام معدودة حتى وصل مندوب النادي الألماني إلى ريو، حاملاً عيونًا خبيرة وقلبًا يعرف كيف يميّز النبوغ عن ضوضاء الصدفة. شاهد الطفل، تياغو، في مباراة صغيرة بين أزقة الفافيل، فلم ينطق بحرف واحد... فقط ابتسم تلك الابتسامة النادرة التي لا تراها إلا عندما يلتقي القدر أخيرًا بمن اختاره.

وفي اليوم ذاته، اتخذ القرار : نريده... اليوم قبل الغد.

وهكذا، تبنّى النادي تياغو رسميًا، وضمه إلى مراحل العمرية، ليبدأ بذلك فصلٌ جديد من الحكاية.

لكن، ما لم يكن يعلمه أحد — لا ديونيسوس، ولا المندوب الألماني، ولا حتى تياغو نفسه — هو أنّ ما كان إله القدر يخبئه لذلك الطفل يتجاوز حدود التوقع.

فعشرة أعوام فقط كانت كافية ليُصبح تياغو ليس فقط أفضل لاعب برازيلي في جيله، بل أسطورة كروية ستتردد باسمه المدرجات لعقود. في بايرن ميونخ، غدا الرقم الأيقوني، والاسم الذي يُكتب أولاً في قائمة المباريات.

أما عالميًا، فقد تجاوز كل المعايير: كسر الأرقام، وحطّم القلوب، وجعل الكرة تبدو وكأنّها وُجدت لأجله وحده.

ومع المجد، جاءت الثروة، كما تنبأت والدته بيتريز ذات مساء حين كانت تحيك فستانًا قديمًا على آلة خياطة متهالكة، وقالت :

(سيصبح غنيًا... غنيًا جدًا. أنا لا أحتاج إلى دلائل، فقلبي يعرف، وقلب الأم لا يكذب.)

وهكذا، من غرفة وحيدة في فافيليا منسية، إلى أكبر ملاعب الأرض، شقّ تياغو طريقه... لا لأنّ العالم أراد له ذلك، بل لأنّ السماء كانت قد كتبت اسمه مسبقاً على نجمة لا تنطفئ ..

● ديونيسوس: حلمنا يقترب أكثر يا هيكتور .. لدينا الآن فرانسوا من فرنسا ، أنطونيوا و والدته من المكسيك و بيتريز و أبناؤها من البرازيل ..

○ هيكتور : خيارات مفصلة بالمقاس على أرخبيلك بني .. إن قصة تياغو و عائلته أسطورة بحد ذاتها .. عندما تشكل الموهبة و الشغف أملاً مشعاً في رحم الظروف الصعبة من الفقر و الحرمان لتتمخض في النهاية عن انفراج هائل يقلب الموازين و يغير المعادلة جذرياً إلى واقع ملموس من الحياة الكريمة و السعيدة ..

● ديونيسوس: صدقت يا هيكتور .. إن أرخبيلي خلق لأمثال هذه العائلة المكافحة .. فقد آن الأوان لهذه الأم المضحية أن تنعم بسنين هادئة و سعيدة بعد عمر من البؤس و الشقاء ، تخيل مثلاً أن تتعطل آلة الحياكة خاصتها .. ربما ماتت عندها العائلة من الجوع .. إنها تعيش على حافة الهاوية و أي هبة ريح خفيفة قد تلقي بهم في وادٍ سحيق من العجز و المعاناة ..

○ هيكتور بابتسامة : بالفعل .. إن أرخبيلك سيدخل التاريخ من أوسع أبوابه بعد اكتمال طوقك الفريد .. إنك تذكرني بالسيد المسيح الذي جمع تلامذته الاثني عشر بدقة و عناية من مدن مختلفة ليكون في النهاية طوقه الخاص من أناس مجبولين بالمعاناة و الإنسانية كي يحملوا الراية من بعده و ينشروا رسالته حول العالم .. و طوقك الذي تجمعه بحرص و بمعايير دقيقة تجمع المعاناة مع الروح النبيلة بحد ذاته حكاية خيالية أقرب ليميثولوجيا إغريقية .. بلاد المشردين التي يحكمها إله القدر ..

و كلي قناعة أن هذا الطوق سيحمل رسالتك الإنسانية السامية لقرون من بعدك لتستمر مساعدة المحرومين و المشردين حول العالم ..

● ديونيسوس: هذا هو الحلم يا هيكتور .. هذا هو الحلم ..

بروميثيوس سارق

النار لأجل الأفيار..

الولايات المتحدة الأمريكية ..

نيويورك ..

منزل المحقق فرانك ..

رنّ جرس الهاتف الخلوي للمحقق فرانك فجأة، كصاعقة كهربائية مزّقت
سكون ليلته العميق ، فأفاق من نومته الهانئة كمن يُقلق سلامته في معركة
لا تنتهي.

فتح عينيه الثقيلتين، تلمّس نظارته المعلقة على الطاولة، ونظر إلى ساعة
الحائط بتثاقلٍ واضح، عيناه تعكسان التعب المُتراكم؛ كانت العقارب تشير
بنبات إلى الثالثة صباحًا.

تلك الساعة التي تعلن عن بداية كابوس جديد، عن فجر يحمله معه صراخ
وجريمة لا تزال طازجة في دماء المدينة.

قال في سرّه، بصوت يكاد يكون همسًا متهاكًا:
(لا بدّ أنها جريمة جديدة... ألا تهدأ هذه المدينة أبدًا.)

أمسك الهاتف بيدٍ ترتعش قليلاً و أجاب . في الجانب الآخر، جاء صوت
المساعد هاري حادًا ومستعجلًا، حاملاً معه أجواء القلق والضغط
المتواصل الذي يعيشه مكتب التحقيقات.

● فرانك : أهلاً مساعد هاري .. ماذا هناك ؟..

○ هاري بتوتر : اختراق كبير سيدي .. لقد هرب أحد السجناء من غرفة
الاحتجاز ..

اعتدل فرانك في جلسته على السرير و هو يهمس كي لا يوقظ زوجته
سالي بجانبه ..

● فرانك : هرب ! كيف ؟ ومن هو ؟ ..

○ هاري : أجل لقد هرب الموقوف ويسلي شيلابيرغر من غرفة الاحتجاز منذ حوالي الساعتين بمساعدة شخص مجهول ضرب الحارس كيفن على رأسه فأغمي عليه ثم فتح له غرفة الاحتجاز ليرتدي ملابس كيفن و يهرب معه..

هز فرانك رأسه غير مصدق لما يسمعه ، هل هذا مجرد حلم ؟! ..

● فرانك: سأرتدي ملابسني و آتي على الفور ..

○ هاري : بانتظارك سيدي ..

ارتدى فرانك ملابسه بخفة، حركاته محسوبة كراقص بارع يعرف كيف يتسلل خارج المسرح دون أن تلاحظه العيون.

أغلق باب غرفة النوم ببطء مفرط، كأنّ الهواء نفسه قد يتأمر على سكون المكان، ثم مرّ بجوار غرفة ابنته سامنتا، حيث نامت على فراشها الصغير، متشبثة بدمية محشوة كأنها تطارد حلمًا ورديًا لا علاقة له بعالم أبيها المليء بالدم والدهشة والندم.

ابتسم بحزن عابر، ثم انسلّ من الباب الأمامي كظلٍ خائف من الفجر، يجرّ وراءه صمتًا ثقيلًا كقلب مشتبه.

قاد سيارته بسرعة متصاعدة في طرقات الليل شبه الفارغة، أضواء الشوارع تلمع على الزجاج الأمامي كوميض عيون يقظة تراقبه من عمق المدينة.

الأسئلة لم تترك له فرصة للتفكير المنطقي، بل كانت تندفع إلى ذهنه كأنها انهيار ثلجي لا يعرف الرحمة :

كيف ؟!

كيف اخترق المجهول المبنى رغم الحراسة والتقنيات ؟

كيف أسقط الحارس كيفن أرضاً دون مقاومة ؟

ثم... هذا الشاب المدعو ويسلي!

كيف غادر صحبته دون أن ترصده كاميرات، أو تُسمع لهما حتى همسة ؟
هل هناك يد من الداخل؟ هل خان أحدهم القسم؟ أم أن شيئاً أكبر يُنسج
خلف الكواليس ؟

عند وصوله، ترحل من السيارة بخطوة حاسمة، وقف للحظة ينظر إلى
المبنى كما لو أنه يتحدّاه، كأنه يحاول انتزاع سرّه بنظراته قبل أن يعبر
عتباته.

دخل بخطى سريعة، لا يلقي التحية على أحد، ولا يلتفت للممرات المعتمة
التي يحفظها عن ظهر قلب.

صعد الدرجات كأنّ الأرض تُسرّع تحت قدميه، حتى بلغ الطابق الخامس
حيث كانت الأضواء الخافتة تلمع من نهاية الردهة، هناك... مكتب
التحقيقات الخاص، حيث الأجوبة دائماً أكثر غموضاً من الأسئلة.

فتح باب مكتبه فوجد مساعده نوح جالساً على مكتبه، أكواب القهوة تحيط
به كحلقات كواكب حول نجم ساهر. عيونه متعبة، لكن يقظته تشبه يقظة
من سمع لتوّه إطلاق نار.

● فرانك : ما الذي يجري يا نوح ؟ ما هذا الاختراق الخطير ؟! ..

○ نوح بارتباك : لا أدري ما الذي أقوله لك سيدي ، حدث الأمر بسرعة
دون أن ينتبه أحد له ..

● فرانك : أريد التفاصيل يا نوح ..

○ نوح : منذ حوالي الساعتين سمع الحارس كيفن جلبة في آخر رواق
القبو أسفل القسم حيث توجد غرف الاحتجاز فاتجه إلى مكانها ليكتشف
مصدر الصوت و هناك تعرض لضربة بأداة حادة على رأسه من الخلف
فأغمي عليه .. عندما استيقظ وجد نفسه بملابسه الداخلية و كان باب غرفة

احتجاز السجين ويسلي مفتوحاً و الغرفة فارغة .. دخل الغرفة جزعاً ليجد على الأرض في وسطها ملابس ويسلي مع ورقة مطوية بجانبها سيدهشك مضمونها ولا شك كما أدهشني سيدي ..

أخرج نوح الورقة و ناولها لفرانك الذي شرع يقرأها و عيناه تتسعان من الدهشة .. فقد كانت رسالة جديدة كسابقاتها و نصها :

بروميثيوس سارق النار

سيغادر ظلام الزنزانة

مع أولى أنفاس النهار

فقد أقسمت اليمين أن أحرر هذ السجين

في مجتمع يترك الظالمين و يقيد المظلومين ..

لتواصل شعلته الأمل بمواظبة العمل

على استرداد حقوق الفقراء من الأغنياء ..

أطلس العدالة

نظر فرانك إلى نوح بذهول ..

● فرانك: الطبيب بنجامين كان هنا ؟! ..

○ نوح : هذا ما تشير إليه الرسالة سيدي !! ..

● فرانك: و ما هي قصة السجين ويسلي ، لقد كنت في إجازة لثلاثة أيام و لم أسمع به من قبل ..؟

○ نوح : إن قصة هذا السجين شبيهة بمضمون هذه الرسالة سيدي :

((ويسلي شاب بعمر **25** عاماً ابن أحد رجال الأعمال الأثرياء .. ألقى عليه القبض أول أمس و هو يحاول سرقة سيارة فخمة لأحد المراهقين الأغنياء عندما فوجئ بدورية شرطة تمر بالجوار انتبهت لما يفعله فألقت القبض عليه .. لقد استجوبته بنفسه لأعرف السبب الغريب الذي يدفع شاباً ثرياً للسرقة لأدهش بشخص هادئ للغاية وساخر بطبعه اعترف مباشرة دون ضغط ليس فقط بمحاولة سرقة السيارة بل بسرقات أخرى كثيرة قبلها و صرّح بأن غايته من ذلك ليست المنفعة الشخصية بل مساعدة الناس الأقل حظاً ممن يتقاسمون المعاناة في قاع المجتمع .. فهو يبيع جميع المسروقات في السوق السوداء و يوزع المال الذي يقبضه على المشردين و الفقراء ، كما أكد أنه لا يسرق سوى الأغنياء المتغترسين الذين يحتقرون الفقراء و يتفخرون بأموالهم أمامهم ليشعروا بالسعادة و الفوقية تجاه فقرهم .. إذ أنه كما يدعي إما يعرفهم مسبقاً من طبقته الاجتماعية أو يراقب أهدافه لفترة و يدرس سلوكهم قبل أن يقرر إن كان سيسرقهم أم لا .. و أكد أنه و إن حوكم و سجن سيعود إلى نفس النشاط عندما يخرج من السجن .. لذا وضعته في السجن ريثما تعود من إجازتك لتحقق معه بنفسك و يحال إلى القضاء))

● فرانك : مدهش ! يبدو أن ويسلي هذا متأثر للغاية بقصة روبن هود الشهيرة.

○ نوح بابتسامة : يبدو ذلك ! ..

● فرانك : و من المؤكد أنك تفحصت بنفسك مكان الاعتداء على الحارس كيفين و غرفة الاحتجاز ؟ ..

○ نوح : بالطبع ، و لا يوجد أي أثر أو دليل هناك باستثناء الرسالة ..

● فرانك: و هل استجوبت حرس البوابة الخارجية ؟ ..

○ نوح : بالطبع و المدهش أنهم اكدوا أن ما من أحد غريب دخل مكتب التحقيقات منذ **6** ساعات ، و كأن الطبيب كان مختبئاً داخل القسم من النهار دون أن أعرف أين بالضبط أو كيف ؟ لكن المدهش أكثر أن الحرس أكدوا أنه لم يخرج أحد من البوابة أيضاً خلال تلك الفترة ..

● فرانك : مدهش !! لكن تفسير ذلك بسيط يا نوح ، فلا تنس أيضاً أن ثمة باب جانبي خاص بالعاملين في مكتب التحقيقات عند الضرورة يفتح بالبطاقة الالكترونية و الطبيب يملك واحدة بقيت معه عند اختفائه .. و ذلك غاب عن ذهنك لأننا لا نضطر لاستخدامه ..

○ نوح : صحيح .. لقد غاب ذلك بالفعل عن ذهني .. لا بد أن هذه هي الطريقة التي اتبعها الطبيب و السجين ..

● فرانك : و ما قصة بروميثيوس سارق النار المذكور في الرسالة ؟! ..

○ نوح : لا أدري بعد ، و إن كنت أتوقع بناءً على الرسائل السابقة أنها أسطورة إغريقية أخرى ..

● فرانك : عمّم مواصفات السجين ويسلي على جميع الدوريات مع أمر باعتقاله أينما وجد، و أطلب لنا إعداد تقرير مفصل عن بروميثيوس هذا ..

○ نوح : في الحال سيدي ..

بعد حوالي الساعة كان التقرير جاهزاً بين يدي المحقق فرانك فأخذ يقرأ بصوت عالٍ أمام نوح ..

((في زمنٍ سحيق من عصرٍ ذهبيٍّ خيالي، قبل أن يُولد التاريخ وتكتب الحضارات سطورها، كان الجبابرة التايتن هم سادة الأرض. ومن بين هؤلاء، بزغ نجم حكيمٍ منهم، لا يُشبههم في طيشهم ولا في طغيانهم. اسمه: بروميثيوس، ومعناه (بعيد النظر) .. كان يرى ما لا يراه غيره، ويُبصر ما هو آتٍ كأنه ماضٍ، ولهذا لم يكن غريباً أن يضع يده في يد زيوس، إله العواصف والسماء، في حربه الشرسة ضد أبيه كرونوس، سيد الزمن القديم.

بروميثيوس لم يُقامر بولائه؛ لقد رأى بعينه القدر، وتنبأ أن زيوس سيكون المنتصر في النهاية، وهو ما حدث. ولشكره، جعله زيوس مستشاره، وقلّده مع أخيه إبيميثيوس مهمةً سامية: خلق الكائنات التي ستسكن الأرض.

لكن، بينما اندفع إبيميثيوس ينفخ الحياة في أجساد الحيوانات ويمنحها الفرو والمخالب والقرون والسرعة والسمع الحادّ، كان بروميثيوس منهمكاً في

مهمة أكثر دقة وجمالاً: خلق الإنسان.

لكنه حين أنهى صنعته، لم يجد شيئاً يقدمه لهم، فقد استنفدت الهبات كلها. وقف بروميثيوس يتأمل مخلوقه الأعزل، شعر برقة غريبة تسري في قلبه، بمحبة لم يُعرف أن الآلهة قد شعروا بها نحو البشر من قبل. فصعد إلى الأوليمب، مقر الآلهة، وسأل زيوس أن يمنحه شيئاً إضافياً للبشر... لكن كبير الآلهة رفض.

زيوس أراد الإنسان كائنًا هشًّا، لا تهديد فيه ولا طموح، وأي هبة جديدة قد تخرجه من عبادة الضعف، وهذا ما لم يكن بروميثيوس مستعداً لقبوله. فكانت الخيانة الأولى... لصالح الإنسان.

سرق من آلهة الأوليمب فنوناً ومهارات وجِرْفًا: الهندسة، النجارة، علم الفلك، الحروف، التداوي، الملاحة، ترويض الحيوانات، واستخراج المعادن...

أغدق على البشر عطايا تتجاوز الخيال، وبذلك صنع منهم قومًا قادرين على الوقوف على أقدامهم، لا الركوع.

لكن ما كان ينقصهم ما يزال الأعظم: النار.

النار لم تكن مجرد وسيلة إشعال؛ بل كانت رمزًا للسيادة، مفتاح الحضارة، طاقة الخلق والتدمير. وكانت محفوظة في كهفٍ على جبال الأوليمب، يحرسها هيفاستوس، إله الحدادة والنيران.

فتسلل بروميثيوس خلسةً، وسرق شعلة صغيرة، وأخفاها في عصًا مجوفة، وهبط بها إلى الأرض، ليُشعل بها فتيل الحضارة.

ومنذ تلك اللحظة، تغير كل شيء.

تعلم الإنسان الطبخ، وارتفعت أعمدة الدخان من الأكواخ الأولى، فوصلت إلى أنف زيوس، ومعها وصلت رائحة العصيان.

في البداية، حاول بروميثيوس التفاوض: أن يُقدّم البشر القرابين للآلهة مقابل النار. قبل زيوس على مضض.

لكن الزمن أثبت ما خشيه كبير الآلهة: البشر تطوروا، تعلّموا، أنشأوا حضارات، وبدؤوا بتهديد عرش الآلهة الخالدين.

فكان العقاب محتومًا، وصارمًا.

استدعى زيوس هيفاستوس، وأمره بصنع سلاسل لا تنكسر، وقيد بها بروميثيوس على صخرة نائية في جبال القوقاز، حيث كل صباح يأتي نسر عملاق يُدعى آثون، ليأكل كبده حيًا.

وكبده كان يعود لينمو كل ليلة... لتبدأ المأساة من جديد.

لم يكن عقابًا، بل دهرًا من العذاب الأبدي.

وذنبه؟

أنّه أحبّ الإنسان أكثر مما أحبّ الآلهة.

لكن بروميثيوس، برؤياه التي لا تخطئ، لم يفقد الأمل قط. كان يعلم أن بطلاً خارقًا سيولد ذات يوم — هيركليس — ليأتي إليه، ويُحرّره من سلاسله، ويُعيد له كرامته، ويُبدد الألم.

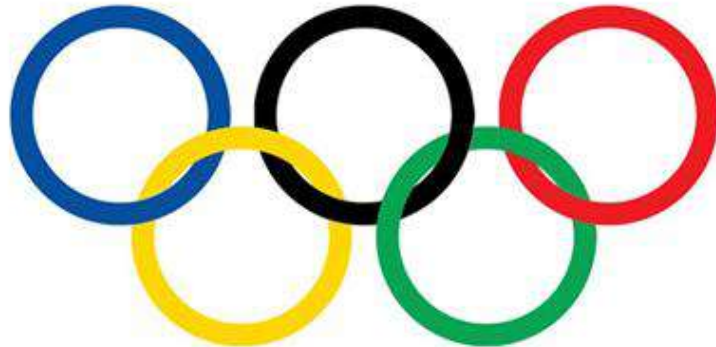
وهذا ما حدث.

زيوس، بمرور الزمن، رقّ قلبه، فعفا عنه، لكن أمره بارتداء حلقة حديدية في إصبعه، صُنعت من شظية من تلك السلاسل، حتى يظل يتذكر... لا خطيئته، بل عظمته البشرية التي سبقت عصرها.

ومنذ ذلك اليوم، ارتدى الإغريق الخواتم تكريمًا لبطلهم.

وأصبحت شعلة النار الأولمبية رمزًا للضوء الذي سرقه بروميثيوس من جبل الآلهة، ليمنحه للبشر.

أما الحلقات الأولمبية الخمس، فهي ليست فقط رموزًا للقارات، بل تُمثل أيضًا حلقات سلسلة بروميثيوس... التي كُسرت من أجل الإنسان. ((



ابتسم فرانك بعد أن انتهى من القراءة ..

● فرانك: إن الطبيب بنجامين مذهل على نحو غير معقول .. و لعب دور هركليس الذي أنقذ بروميثيوس نصير البشر بمنتهى الإتقان .. حتى أنني تعاطفت بدوري مع ذلك السجين ويسلي رغم جهلي الكامل بطريقة تعرف الطبيب عليه و على طبيعة حياته أو الآلية التي اخترق فيها مكتب التحقيقات ثم حرره و غادر معه بعدها و كأن شيئاً لم يكن ..

○ نوح : إنه مدهش بالفعل .. و ماذا سنفعل بخصوص السجين الهارب ؟

● فرانك : للأسف و رغم إيماني بوجهة نظر الطبيب بنجامين فإنه ليس بمقدورنا فعل شيء سوى محاولة القبض عليه مجدداً .. إن الحياة ساخرة في مواقف كثيرة .. فم منذ أشهر كنا نعمل مع الطبيب في خندق واحد .. و اليوم نعمل ضد بعضنا في خندقين متقابلين .. و لا أخفيك سرّاً يا نوح بأن خندقه هو خندق العدل و الصواب و كما قال في رسالته ((هذا مجتمع يترك الظالمين و يقيد المظلومين)) ، و القضايا السابقة تؤكد ذلك بإفلات المجرمين من العقاب لولا تدخل الطبيب أطلس العدالة ليرفع سماء القانون فوقهم .. إنني سعيد للغاية بنجاة الطبيب من براثن المليونير جيمس تاجر المخدرات .. و أكثر سعادة بما يقوم به الآن من نصرة المظلومين ..

○ نوح : و هل تتوقع أن يستمر الطبيب في هذه المهمة الصعبة ..؟

ابتسم فرانك ابتسامة غامضة ..

● فرانك: هذا ما أتمناه من كل قلبي يا نوح .. عسى أن نلتقي به أخيراً في نهاية مهامه الهرقلية ..

سيفونية

الحياة

الولايات المتحدة الأمريكية ..

كاليفورنيا ..

عقب اكتمال نصف طوق اللآلئ الذي سيزين عقد أرخبيل جزر سانت بيتر و سانت باول في المحيط الأطلسي ، باشر الملياردير اليوناني ديونيسوس بمنتهى الحماسة باختيار الدولة الهدف في مغامرته التالية و هي قارة أوقيانوسيا .. كان قد قرر مسبقاً أن تكون أستراليا هي الهدف بحكم كونها أكبر دول القارة و أكثرها سكاناً مما يفترض وجود نسبة كبيرة من الفقراء و المحتاجين فيها ..

و بينما كان هيكتور يجري بعض الاتصالات بخصوص شركات السيد ديونيسوس و بشأن سير العمل على الأرخبيل ، كان ديونيسوس يبحث على هاتفه عن معلومات أكثر بخصوص فقراء أستراليا .. و كانت النتائج على النحو التالي :

((أفقر الولايات الأسترالية هي ولاية تسمانيا و هي جزيرة كبيرة تقع جنوب شرقي البلاد ، عاصمتها هوبارت .. و بسبب ضعف اقتصادها و قلة فرص العمل فيها فالفقر شائع هناك ..))



لقد صار الأرخبيل مشروعه الظاهري، أما مشروعه الحقيقي، فهو نفسه.
رحلة نحو المعنى، محفوفة بوجوه الغرباء، وأصوات الجياح، ولمسات
الشفاء الصغيرة التي يصنعها حين يُخرج إنساناً واحداً من الظلمة إلى
النور.

وهكذا، بقرار بسيط على لسانه، تحركت ترس آخر في آلة القدر...
وتراءت من بعيد، عبر الضباب، ملامح المعجزة التالية.

● ديونيسوس: بينما كنت مشغولاً باتصالاتك يا هيكتور قمت أنا بتحديد
هدفنا القادم ..

○ هيكتور : و علام رست أفكارك بني ؟

● ديونيسوس: على ولاية تسمانيا الأسترالية و بالتحديد عاصمتها
هوبارت فهي من أفقر الولايات الأسترالية .. أنا على ثقة بأنني سأعثر
هناك على أولوتي الجديدة في طوقي النفيس .. فقد اكتشفت متأخراً يا
هيكتور أنّ الفقراء هم جواهر هذه الأرض بطهارتهم و إنسانيتهم و
إحساسهم بالآخرين و معاناتهم ..

○ هيكتور بابتسامة : إن إله القدر يزرع لك اللآلئ في محارات من قسوة
الظروف في أعماق الحياة و أنت تصطادها بحرفية عالية يا بني ..

● ديونيسوس : و يا لها من مهام معجونة بالمتعة و مثيرة للبهجة يا
هيكتور ..

○ هيكتور : و هل السفر غداً ؟

● ديونيسوس: إن شاء الله .. قم بالحجوزات المعتادة .. و لا حاجة
للمترجم هذه المرة فأستراليا الخاضعة للتاج البريطاني تشاطرنا اللغة
نفسها ..

○ هيكتور : كالعادة اعتبر أن الأمور أنجزت بني ..

أستراليا / جزيرة تسمانيا ..

الساعة 6 صباحاً ..

بعد أن ابتلعتهم السماء عشرين ساعة متواصلة على أجنحة الطائرات العابرة للمحيطات، نزل ديونيسوس وهيكاتور أخيراً على أرض تسمانيا، الجزيرة المنسيّة على أطراف العالم، كمن يصل إلى شرفة الحلم بعد صعود طويل في ليل التاريخ.

الفندق كان صغيراً، لا يمتاز بالفخامة، لكنّه يحتفظ بعطر المدن العتيقة وهدونها الحذر. دخلاه بخطى المتعبين، وسكنا الغرفة كما يسكن شاعر في قصيدة لم تُكتب بعد. ومع أول فنجان قهوة على شرفة الطابق العلوي، بدأ يتأملان وجه المدينة، يقرآن نبضها، ويخططان لحركة القدر التالية.

كان القرار محسوماً منذ الليلة الماضية، حين هبط على قلب ديونيسوس يقينٌ لا يُرد: هوبارت تخفي لؤلؤة جديدة في صدفة منسية. لذا، رغم السهاد والإرهاق، قرّرا أن يبدأ مهمتهما على الفور. وبعد مكالمة سريعة مع مكتب تأجير السيارات، انطلقت بهما سيارة جيب حديثة تمخر شوارع العاصمة بهدوء، أشبه بسفينة تتلمّس دربها في ضباب روحاني.

لم يكن البحث سهلاً. فالوجوه على الأرصفة كثيرة، لكنّ ديونيسوس لم يكن يبحث عن وجه فحسب، بل عن رعشة قدر، عن تلك اللحظة التي تنكمش فيها الروح ثم تنبسط فجأة كأنها عثرت على ضالتها.

وبعد نحو ساعة من القيادة، توقفت أنفاسهما قبل أن تتوقف السيارة. فعند حافة الحديقة المركزية لهوبارت، سمعا نغمًا يتسلل من بين الأشجار كضوءٍ يتسرّب من كوة صغيرة في جدار الكون. اقتربا أكثر، ليجدا الناس متحلقين في صمتٍ مذهول حول رجلٍ مُسنٍّ يعزف على الساكسفون، كمن يُخرج موسيقى العالم من ضلوعه.

كانت أنامله تتحرّك برفق شاعرٍ يُضمد جرحاً قديماً. القطعة التي يعزفها لم

تكن غريبة — الفصول الأربعة لفيالدي — لكن العجوز ألبسها صوتاً لم يُعرف من قبل، كأن الشتاء صار حزناً نبيلًا، والربيع دعاءً مبللاً بالدمع.
إلى جانبه، كان كلبان — أحدهما أبيض كالسلام، والآخر أسود كلغزٍ قديم — يرقصان على إيقاع الموسيقى في تناغم عجيب، يرفع الشعر في الجسد، ويُسكت ضجيج العالم لثوانٍ لا تُنسى .. و بين الفينة و الأخرى كان أحد المشاهدين يقترب من الرجل و يضع بعض النقود في علبة الساكسون الفارغة ..

تبادل ديونيسوس و هيكتور نظرةً طويلة، كانت أشبه بعهدٍ صامت. لم يقولوا شيئاً، لكن السماء فهمت، والريح فهمت، وتمثال فيالدي نفسه، لو كان حاضراً، لهرّ رأسه موافقاً.

لقد وجدا الرجل.

ربما لا يكون فقيراً كالبقية، و لا يحمل لافتة تشكو، لكن قلبه كان صفحةً بيضاء تنتظر قصة، وموسيقاه كانت دعوة مفتوحة لحياة جديدة، كأنما يقول بلا كلمات :

(خذوني إن كنتم تسمعون .. فوراء النغمات أهات مكبوتة)

مال هيكتور على ديونيسوس و همس في أذنه ..

○ هيكتور : أشعر بأنني أقرأ فصلاً من الرواية الشهيرة (بدون عائلة) للكاتب الفرنسي الشهير **هيكتور مالو** .. فهذا الرجل يشبه على نحو غريب السيد **فيتاليس** فيها بفرقة الموسيقى المبهرة من الكلاب و لا ينقصه سوى القرد الصغير بملابس الجنرال مع الطفل المشرّد **ريمي** الذي يبحث عن عائلته الحقيقية ..

ابتسم ديونيسوس ابتسامة عميقة كأنها توقيع القدر على اتفاق غير مكتوب، ثم هزّ رأسه موافقاً، وقد بدأ يشعر بأن كل خطوة في هذه المدينة لم تكن عشوائية، بل مرسومة بحبرٍ غير مرئي في دفتر الغيب.

ظلّ العازف المسنّ غارقاً في نغماته، يغزل من الزمن نسيجاً حريراً يلفّ أرواح السامعين. أصابعه كانت تعزف كما لو أنها تُتمم طقساً سماوياً، لا مجرد مقطوعة موسيقية. ولم يكن الصوت فقط ما يأسر القلوب، بل وقار الرجل نفسه، كأن سنوات عمره تحوّلت إلى نوتات، وكل تنهيدة من رنّته كانت درساً في الجمال الذي يأتي بعد الألم.

وبعد أن انقضت نصف ساعة من هذا العزف المسحور، خفت الصوت شيئاً فشيئاً، إلى أن نزل السكون على المكان مثل ستارة مسرح تُسدل على نهاية عرض خالد. أنزل الرجل ساكسوفونه بحنان الأب لطفله، ثم رفع قبعته العتيقة وانحنى أمام الجمهور في حركة مسرحية مهيبّة، لا تخلو من النبل، كأنه يعتذر للعالم عن النهاية ويشكره على الإصغاء.

تفرّق الحضور تدريجياً، كمن يستفيق من حلم جميل لا يريد مغادرته. لكن ديونيسوس لم يتحرك. بقي واقفاً، مشدوهاً. ثم اقترب بخطى بطيئة، حذرة، كأنه يقترب من مقام مقدّس لا يليق الاقتراب منه إلا بخشوع. انحنى بدوره، ووضع في علبة الساكسوفون ورقة نقدية بقيمة ألف دولار، دون أن ينطق بكلمة.

لم تكن هذه مجرد صدقة. كانت تحية. كانت عرفاناً موسيقياً، وكان في نظر ديونيسوس، أقلّ ما يمكن تقديمه لفنان يعرف كيف يعزف على أوتار الروح.

رفع العازف عينيه ببطء، ونظر إلى ديونيسوس نظرة من أدرك أنّ المال ليس سوى غلاف لشيء أثمن. تبادلا لحظة صمت طويلة، صمت من النوع النادر الذي لا يُشعر بالحرج بل يبعث على الطمأنينة، ثم جلسا معاً على أقرب مقعد خشبي يطلّ على الحديقة، وهناك بدأ الحوار، لا من فم إلى فم، بل من روح إلى روح.

سأله ديونيسوس عن اسمه، عن حكايته، عن الموسيقى التي تنبع من قلبه كالنبذ المعتق، فتكلّم الرجل بصوت هادئ مبجوح كمن يروي سيرة وطن

ضائع. لم يكن يتفاخر، ولم يكن يشكو. كان فقط يُحدثه كمن يُخرج صندوقاً قديماً من تحت سريره، يفتحه لأول مرة منذ سنوات، ليُريه لضيف لا يشبه أحداً.

وفي كل جملة نطقها، كان ديونيسوس يزداد يقيناً بأنّ هذا الرجل — بهذا الوجه المجعد الذي تُزيّنه الكرامة، وبهذه الألحان التي تشفي، وبهذين الكلبين الراقصين على نغمه — هو جوهرة تسمانيا التي جاء يبحث عنها، دون أن يعلم أنّها كانت تنتظره هي أيضاً.

● ديونيسوس مصفقاً بحرارة : رائع .. مذهل .. يا لبراعتك سيدي .. إن مقطوعتك هذه تحفة موسيقية ..

○ الرجل بخجل : أشكرك أيها السيد .. إنها ثمرة 50 عاماً من التدريب و العزف .. هذه المقطوعة تدعى الفصول الأربعة و تشير بتغير إيقاعها إلى مراحل الحياة المختلفة فالربيع يشير إلى الطفولة الغضة و الصيف إلى الشباب القوي كحالك سيدي ثم الخريف إلى الكهولة و بدء الانكسار و أخيراً شتاء العمر القاسي و البارد كحالتني الراهنة .. لذا فهي تلامس جميع القلوب من مختلف الأعمار .. و بسبب ذلك فأنا أدعوها (سيمفونية الحياة) ..

● ديونيسوس : اسم معبر للغاية .. أدعى ديونيسوس .. و أنا سائح من الولايات المتحدة الأمريكية ..

○ الرجل : و أنا أدعى فيردي .. و هذان كلباي بين و يانغ أسميتهما تيمناً بشعار التاو الشهير ذو النصفين الأبيض و الأسود كلونيهما بالضبط .. تشرفت بمعرفتكَ سيدي .. يظهر لي أنك ثري على نحو مدهش و كريم على نحو أكثر إدهاشاً .. فمبلغ ألف دولار سخاء كبير منك سيدي .. أشكرك ..

ابتسم ديونيسوس من ملاحظة الرجل الثاقبة بحكم التجربة و العمر ..

● ديونيسوس : إن عزفك يستحق أكثر من ذلك .. هذا مساعدي هيكتر .. وقد لفت انتباهي إلى التشابه الغريب بين فرقتك الموسيقية و فرقة السيد

فيتاليس من رواية بدون عائلة .. هل قرأتها من قبل ؟ ..

○ فيردي مبتسماً : بالطبع قرأتها .. إن ملاحظة السيد هيكتور ذكية للغاية ، فأنا في الحقيقة أسست فرقتي هذه و انتهجت هذه المهنة بناءً على أحداث تلك الرواية بالضبط فهي ملحمة أدبية تفيض بالمشاعر الإنسانية و تنقل صورة المشردين في العالم ومعاناتهم للجميع .. و أنا بحكم حياتي كمتشرد بدوري أثنى عالياً تلك الرواية ..

● ديونيسوس : رجل بموهبتك هذه متشرد !؟ ..

○ فيردي : أجل .. فقد كنت أعيش سابقاً في منزل بالإيجار مع زوجتي الراحلة **فيفيان** .. و كنا نعتمد على عملها كمحاسبة في أحد البنوك لدفع إيجار المنزل .. في حين كنت أعزف مجاناً في الكنيسة المجاورة لمنزلنا معتقاً مقولة قرأتها في شبابي للفيلسوف **ديكارت** :

((الموسيقى هي الفن الوحيد الذي يتحد مع الدين اتحاداً

وثيقاً))

إذ أنّ الموسيقى هي بالفعل غذاء الروح و تسمو بها إلى السموات العلا ليستشعر الإنسان عظمة و إبداع الخالق ..

و بحكم كوني من السكان الأصليين للبلاد و يتيم الأبوين منذ عمر ٩ سنوات لم أحظُ بفرصة للتعليم ، كذلك لم أتلق أي دعم من أحد إذ لم ترغب أي عائلة بتبني شخص من عرق **الأسترليود** المشرف على الانقراض و المختلف بلونه و دماؤه عنها ، و بما أنني لا أتمتع بأي موهبة أخرى في الحياة باستثناء العزف ، لذا لا مهنة ثانية لدي .. بسبب ذلك و بعد وفاة زوجتي **فيفيان** جرّاء سرطان الثدي اضطررت لإخلاء المنزل لعدم قدرتي على سداد أجرته ثم باعت سيارتنا الوحيدة و أثاثنا كي أشتري مقطورةً صغيرةً أعيش فيها في محيط المدينة ، وكما ترى سيدي فأنا أوفر قوت يومي من خلال العزف أمام المارة و أعيش على ما يجودون علي به كما فعلت حضرتك منذ قليل ..

تدخل هيكتور ذو البشرة السمراء في الحديث لأول مرة ..

○ هيكتور : العنصرية هي نفس الداء في كل مكان و زمان .. أنت تذكرني سيدي الآن بمقولة لرئيس بلادي الأسبق ريتشارد نيكسون :

((إذ أردت صنع موسيقى جميلة فعليك أن تعزف النغمات

البيضاء و السوداء معاً))

كآلة البيانو بالضبط .. و من الرائع أنك لم تقابل عنصرية الناس لك في مدينتك بعنصرية أخرى فأنت تعزف مقطوعاتك فيها بجميع الألوان و أمام جميع ألوان الناس .. أنت إنسان رائع سيد فيردي ..

● ديونيسوس : بالفعل أنت إنسان نبيل للغاية.. لقد خدمت الكنيسة مجاناً لسنوات و من العار على هذه المدينة ألا تقدر ذلك و تساعدك ! ..

○ فيردي : هذه حال الدنيا ، على كل حال أنا خدمت السماء برحابة صدر دون أن أنتظر أي رد من أي أحد .. و كما ترى فالله لا يتخلى عني و يرزقني قوت يومي ..

● ديونيسوس : أليس لديك أبناء ؟ ..

○ فيردي : للأسف زوجتي كانت عاقراً ، و لأنني كنت متيمماً بها فضلتها على الأبناء و قبلت بما قسمه الله لي .. و اليوم بعمرى المتقدم و قد ناهزت السبعين ناهيك عن وضعي المادي الصعب لا يمكنني الزواج و الإنجاب أبداً .. على كل حال أنا موسيقي محترف و أولف بنفسى مقطوعات موسيقية كل فترة و هذا لا يختلف عن الإنجاب أبداً ، فأنا مع كل مقطوعة جديدة أشعر أنني أنجبت إلى الوجود ابنةً جديدةً خاصةً بي ..

● ديونيسوس : و من الجلي أن عائلتك هذه مذهلة ..

○ فيردي : أشكرك ..

● ديونيسوس : لكن ما الذي تفعله في حالات المرض سيدي ؟ ..

تنهد الرجل تنهيدة عميقة ..

○ فيردي : لقد تأقلمت مع الحرمان و الكفاف في جميع جوانب الحياة باستثناء الوضع الصحي فأنا أعجز مادياً تماماً عن زيارة الأطباء أو ارتياد المشافي بحكم أنني لا أملك تأميناً صحياً .. و لقد أنهكني داء الروماتيزم كما ترى من أصابع يدي التي بدأت تنتشّوه و هو يزحف على مفاصلي واحداً تلو الآخر مخلفاً آلاماً عميقة و عجزاً متدرجاً و كل ما أخشاه أن أصل إلى يوم أعجز فيه عن العزف على ابني الغالي (الساكسفون) فأصبح بلا أي دخل و أحرم من متعة العزف التي تبقيني على قيد الأمل ..

اغرورقت عينا فيردي بالدموع بعد هذه الجملة .. فربت ديونيسوس على كتفه بحنان الابن الذي حرم منه ..

● ديونيسوس : سيد فيردي أنا في الحقيقة ملياردير و لدي عرض لك قد يغير حياتك القاسية الراهنة جذرياً إن تكرمت عليّ و قبلته ..

التفتت الرجل إليه بدهشة ..

○ فيردي : عرض ! بأي خصوص ؟

● ديونيسوس : لقد اشتريت مؤخراً أرخبيل جزر في المحيط الأطلسي و أنا أقوم حالياً بجولة على قارات العالم لانتقاء مجموعة أشخاص يستحقون الحياة هناك ، و في هذه الأثناء يتم تجهيز الأرخبيل بمجموعة منازل مع تزويدها بخدمات الغذاء ، الاتصالات ، الكهرباء و الصحة ، إضافةً إلى تأمين رواتب ثابتة .. و أرى فيك بلا شك الشخص المثالي القادم ليقطن هذا الأرخبيل بمنتهى السعادة و الرضا .. فهل توافق على عرضي ؟

○ فيردي مذهولاً : و هل من عاقل على هذه الأرض يرفض مثل هذا العرض السخي .. موافق بكل تأكيد .. أشكرك سيد ديونيسوس .. أنت هبة من الله ستنتشلني بلمسات ملائكية من حياتي المؤلمة ..

● ديونيسوس بسعادة عارمة : أنا من يشكرك على تشريفي بقبول العرض ، سنتبادل أرقام الهاتف و سأتصل بك مجدداً متى ما انتهيت من تجهيز الأرخبيل .. و ثمة شيء آخر ..

○ فيردي : تفضل سيدي ..

● ديونيسوس : لا تنادينني بسيدي أرجوك .. بل بني ..

○ فيردي بابتسامة امتنان : كما تشاء بني ..

● ديونيسوس : سأمنحك الآن مبلغاً محترماً من المال لتحسن به نوعية حياتك وتعالج مرضك الراهن بينما تنتقل إلى الأرخبيل ..

○ فيردي : هذا كثير يا بني .. أخشى أنني لا أستطيع قبول كل هذا الكرم !

● ديونيسوس : و ما فائدة الأبناء إذا لم يعتنوا بأبائهم .. أرجوك اقبل .. أريدك أن تصل الأرخبيل بأتم الصحة و العافية لتطربني بأخوتي من معزوفاتك ..

○ فيردي و الدموع في عينيه : حسناً بني .. يبدو كل هذا أشبه بحلم .. فأنا لا أصدق ما يحدث لي اليوم !

● ديونيسوس : إن القدر و على خلاف ما صور في الميثولوجيا الإغريقية هو إله رحيم لا يتخلى عن أبنائه .. و كما خدمته في الكنيسة لسنوات سيرد لك المعروف بأكثر منه ..

صمت ديونيسوس للحظات ..

● ديونيسوس : هنالك فكرة خطرت ببالي الآن .. و أرجو منك أن تأذن لي بتنفيذها ..

○ فيردي : طبعاً ، بكل سرور..

● ديونيسوس : سأقوم بإنشاء منصة خاصة بك على قناة اليوتيوب أنشر فيها بناتك الحسنات من المقطوعات المذهلة التي ألفتها ليسمعها الجميع حول العالم .. و مردودها المادي سيصل إليك أينما كنت ..

○ فيردي بذهول : ما أروعك يا بني .. إنك أقرب ما تكون إلى قديس منه

إلى ملياردير ..

● ديونيسوس : لا لست كذلك ، أنا فقط مثلك أبتى نتشاطر الرغبة في خدمة السماء دون مقابل ..

○ فيردي : الآن أشعر بشعور ريمي في رواية (بدون عائلة) حينما التقى

بعائلته الحقيقية أخيراً .. أنت بمثابة عائلة جديدة لي يا بني ..

● ديونيسوس : هذا يشرفني ، و بانتظارك عائلة أجمل هنالك في الأرخبيل عندما تقابل غيرك من المحتاجين الذين صادفتهم في رحلتي .. إنهم أناس رائعون مثلك تماماً و ستشكلون عائلة فريدة أو كما يحلو لي أن أدعوها (طوق اللآلئ الذي سيزين عنق الأرخبيل) ..

○ فيردي : أنت الجوهرة الحقيقية في كل هذا .. إنك بدورك عازف محترف بنيّ فكما يقول الأيقونة الموسيقية مايكل جاكسون :

((هنالك نوعان من الموسيقى ، الأول يعزف على أوتار الآلات ، و

الثاني يعزف على أوتار القلوب))

و أنت بنبلك و سعيك الإنساني تعزف أجمل المقطوعات على أوتار قلوب الناس لتجعل كل من يعرفك يحبك من أعماق قلبه ..

ابتسم ديونيسوس ..

● ديونيسوس : هذا لطف بالغ منك أبتى .. و رجائي من الله أن تكتمل مقطوعتي المسماة أرخبيل جزر سانت بيتر و سانت باول على أجمل و أكمل وجه ..

○ فيردي : سأصلي من أجل ذلك .. لكن عليك أن تسميها مقطوعة أرخبيل المشردين فهذا الاسم يليق بها و بتوجهها أكثر و ستكون أنت قائد الأوركسترا فيها ..

انحنى ديونيسوس بانحناء تشبه صلاة صامته، كأنّ تواضعه في تلك اللحظة لم يكن خُلُقًا فقط، بل وعيًا بأنّ العظمة لا تكتمل إلا حين تركع أمام الإنسان البسيط العميق في أن .. مدّ يده إلى حقيبتة الجلدية ببطء، واستخرج منها رزمًا من المال، لا كمن يمنّ، بل كمن يردّ دينًا قديمًا في رقبة الإنسانية.

ناولها إلى فيردي، لا على استحياء، بل على يقين، كأنّه يقول له : أنت تستحق، لأنك لم تبع موهبتك بثمن، بل عزفتها حتى اهتزّت الأرواح. لم تكن الأموال وحدها ما منحه، بل بارقة أمل، ودعوة صامته إلى العناية بالذات التي أرهاقها الزمن ولم تُطفئها الحياة بعد.

ثم، كأنّ الوداع بينهما لا يليق به الكلمات، ضمّه ديونيسوس إلى صدره بقوة، احتضاناً يشبه اعتذار العالم عمّا سبّبه له من تجاهل طويل. واحتضنه فيردي كمن يعانق آخر حلم له لم يمت بعد.

غادرا بعد ذلك الحديقة مع هيكتور، تتبعهما خطوات من ضوء، وكأنّهما يبتعدان عن معزوفة مقدسة كتبتها الأقدار على نوتة الحياة. وفي داخلهما، كان فيردي قد تحول من عازف متجول إلى نغمة خالدة في أرشيف الرحمة.

الهواء كان نديًا، والسماء تنحني قليلاً لتمرّ بينهما دعوات لا تُسمع، لكنها تُستجاب.

○ هيكتور : إن الأرخبيل مفصل بالمقاس بيدي خياط إيطالي ماهر على السيد فيردي .. اختيار موفق للغاية بني ..

● ديونيسوس : أشاركك الرأي .. و أشعر بسعادة عارمة لمنحي إياه إحساس الأبوة الذي افتقده في حياته ..

○ هيكتور : إنكما تذكراني بقصة النبي زكريا الذي ناجى ربه في المحراب بيأس أن اشتعل الشيب في رأسه و زوجته عاقر و هو يرغب بطفل من أعماق قلبه فبشرته الملائكة بآبن سيأتي لا شبيه له يدعى يحيى أو يوحنا .. و أنت سيد ديونيسوس بلا شك الابن الذي لا مثيل له بالنسبة للسيد فيردي ..

● ديونيسوس : أتمنى أن أكون على هذا القدر من المسؤولية .. فهو يذكرني بأبي الراحل بشكل غير اعتيادي ..

○ هيكتور : و وجهتنا التالية بني ؟ ..

● ديونيسوس : قارة آسيا بالطبع فهي الأقرب إلى هنا .. و سنسافر إليها مباشرة دون العودة إلى أمريكا فلا داع للسفر لمسافات أطول أكثر .. سأبحث في الفندق عن البلد الهدف القادم ..

في شرفة الفندق، و بينما كانت شمس ما بعد الظهيرة تقبل الأفق ووتودعه تاركة على خده أحمر شفاه لازوردي ، جلس ديونيسوس وهيكتور متقابلين يتبادلان الصمت وفنجاني شاي يعكسان بخارهما في الهواء كأنهما يحاولان التحدث بلغة لا تحتاج إلى كلمات. كان النسيم خفيفاً، يحمل في طياته دفء الأرض ونبض المدينة. وفي حين بدا هيكتور مسترخياً، يتأمل حركة الناس في الشوارع البعيدة، كان ديونيسوس منشغلاً بهاتفه، يتنقل بين الصفحات، يبحث كعادته عن نقطة جديدة في خارطة قدره المتفرّدة.

كان يبحث هذه المرة في آسيا. قارة الغموض والضوء، والتاريخ المكتظ بالأرواح والقصص. لم يكن اختياره عشوائياً، بل كخطوة قبل أخيرة من نبوءة داخلية غامضة، فهي القارة القادمة التي تنتظر مقامها كلؤلؤة في طوق الأرخبيل ..

ظهرت أمامه قائمة طويلة من الدول ذات معدلات الفقر المرتفعة، أغلبها في جنوب القارة: بنغلادش، كمبوديا، ميانمار، لاوس... لكن ما أوقف إصبعه كان اسم الفلبين. لم يكن الاسم غريباً عليه، لكن مقالاً جذب انتباهه بقوة، كأن الكلمات نُسجت خصيصاً لتلامس عاطفته الإنسانية.

مصانع الفلبين السوداء.

هكذا كان عنوان المقال الذي غاص فيه ديونيسوس بكلّ جوارحه.

تحدث المقال عن الأطفال والمراهقين الذين يعملون في ورش خفيّة ومصانع غير قانونية و أخرى قانونية لا مبالية، محرومين من حقّ الطفولة والتعليم، يعيشون في ظروف بائسة مقابل أجور لا تكفي لشراء وجبة محترمة.

كانت الصور المرافقة صادمة:

أيدي صغيرة سوداء من الشحم والغبار، أعين نصف مغلقة من التعب، وأجساد نحيلة تحمل أثقالاً أكبر من أحلامها.

ثم جاءت الإشارة إلى إقليم باسيلان، ذاك الاسم الذي بدا وكأنه مفتاح جديد في رحلته الرمزية.

إقليم صغير يتبع منطقة الحكم الذاتي الخاصة بمسلمي مندناو، يقع جنوب الفلبين، وعاصمته لاميتان، مدينة بسيطة، لكن تنبض بكثافة روحية وتاريخية.

يُقال إن باسيلان يغصّ بالفقر، لكنه يفيض أيضاً بالكرامة والصمت الصلب.

هو مكان لا يراه السياح، ولا يمر به المستثمرون، لكنه حاضر في كل خريطة كتبها الألم الإنساني.

أغلق ديونيسوس هاتفه ببطء، ثم نظر إلى هيكتور، وقال بصوت واثق وهادئ، كمن قرأ لتوّه رسالة مكتوبة من السماء :

● ديونيسوس : اخترت هدفنا يا هيكتور .. إنها مدينة لاميتان عاصمة

إقليم باسيلان الفلبيني حيث تنتشر شركات تستغل القاصرين في أعمال شاقة مقابل أجور زهيدة للغاية منتهزةً وضعهم المادي الصعب الذي يدفعهم لقبول أي فرصة عمل متاحة كما هو حال أغلب المقاطعات الفلبينية الأخرى .. لذا سأسافر بنفسي إلى هناك لاستقصاء حقيقة الأمر .. فأطلع على وضع هؤلاء القاصرين و أتحرى شخصياً إن كان الأمر صحيحاً ..

○ هيكتور : أحسنت الاختيار كالعادة ، فهذه الظاهرة معروفة عالمياً عن

الشركات الفلبينية .. و متى الحجز ؟

● ديونيسوس : الآن مباشرةً .. احجز لنا للغد غرفة في أحد الفنادق و تذاكر للطيران و هناك سنتفق مع مترجم خاص يساعدنا ..

○ هيكتور : على الفور بني العزيز ..

مفتدة أوييب ..

والعشق الخريب ..

الولايات المتحدة الأمريكية ..

نيويورك ..

الساعة 12 ظهراً ..

في ركن مكتبه المتواضع، وبين عبق الأوراق المتراكمة وهمس ساعات الليل الخافت، أعلن جهاز الفاكس عن وصول برقية جديدة، مشتتة بإشعارها الخافت. قبل أن يمد فرانك يده نحوها، انهمر رنين الهاتف، وكأن القدر يُشهر سيفه في تلك اللحظة. رفع فرانك السماعة بثباته المعروف، فكانت الصوت في الطرف الآخر هو صوت ويلتون، رئيسه الذي لا يعرف سوى لهجة الصرامة والضغط.

تتابعت كلمات ويلتون كعاصفة من الاستفسارات الممزوجة بالتهديد، عن مستجدات التحقيق في مقتل الشاب غايل، ووفاة الكهل جاشوا، وهروب السجين ويسلي، وغياب أي أثر للغموض الذي يحيط بشخصية أطلس العدالة .. أجابه فرانك بهدوء مدروس، شارحاً أن التحقيق ما زال يتعثر في دهاليز الغموض، وأن العمل يمضي بوتيرة بطيئة لكنها متصاعدة ..

زاد ويلتون من لهجته حدّة، معاتباً الفريق بأكمله على التقاعس، متوعداً بالعقاب لكل من يعرقل العدالة، ثم أغلق الخط بعنف، تاركاً الصمت يهوي على فرانك كحجرة ثقيلة على صدره.

عاد نظر فرانك إلى جهاز الفاكس، وأمسك بالبرقية بيدٍ مرتجفة تحمل عبء الصبر والقلق، فتحها كمن يفتح باب مصير مجهول، وقرأ سطورها التي دقّت في صدره كجرس إنذار ينذر بعاصفة لم تهدأ بعد. كانت كلمات البرقية، على عتبة الغموض، تشتعل بكلمات لم يكن يتوقعها، لتزيد من تعقيد القضية وتلهب نيران الأسئلة في ذهنه المضطرب...

((حضرة المحقق فرانك سيمونز المحترم ..

نحن مكتب تحقيقات مدينة فوينيكس عاصمة ولاية أريزونا ..

حدثت لدينا جريمة مروعة ليل أمس قُتل فيها الشاب فيكتور نيفيز **29** عاماً و السيدة تيفاني هيرنانديز **53** عاماً اللذين يقيمان معاً ، و قد تمت الجريمة في منزلهما بإطلاق الرصاص على رأسيهما دون ترك أي دليل باستثناء رسالة ملغزة ..

ربما تسأل نفسك ما علاقتك بالجريمة .. ؟

في الحقيقة لقد ذكر القاتل في رسالته الغريبة التي عثرنا عليها في مسرح الجريمة اسمك و بأن حل القضية يكمن عندك ، إذ تنص الرسالة على ما يشبه الشعر :

من مدينة فوينيكس في أقاصي البلاد

ينهض طائر الفوينيكس من تحت الرماد

بعد مقتله بيد ابنه العاق أوديب

من أجل عشقه الغريب

فينتقم لنفسه المظلومة من تلك المنظومة ..

الدافع الدفين هو شهادة التأمين ..

و ستصلون في نيويورك إلى الدليل

عند المحقق فرانك سيمونز النبيل ..

أطلس العدالة

لذا نحن نطلب تعاونكم معنا على حل لغز الجريمة و الرسالة التي تدعي معرفتكم بحديثات القضية ، رجاءً زودنا بالتفاصيل المتوفرة لديكم ..

ولكم جزيل الشكر

مكتب تحقيقات فوينيكس / أريزونا))

تجمد المحقق فرانك في مكانه كصخرة شامخة تواجه عواصف الغموض، ثم اندفع نحو مكتبه كمن يسابق الزمن بحثاً عن مفاتيح تختبئ بين أوراق الماضي البعيد. فتح درجاً قديماً تملؤه رائحة الغبار والسر، وأخرج ملف القضايا الأربعة التي تحولت إلى أرشيف بارد يحوي أسراراً مغمورة، رافقها صدى تساؤلات لا تنقطع.

وقعت عيناه على ملف السيد إيفان نيفيز، الرجل الذي حمل على كتفيه ستة عقود من الزمن، ووجد في اسمه صدى كنية الشاب المقتول، فانتابه شعور غريب بأن خيوط القدر تحيك شبكة معقدة تربط بين هذين المصيرين. استمر في التصفح، فتكشفت له قصة حزينة: فيكتور، الابن الوحيد لإيفان، قد تربى على يد زوجة أبيه تيفاني بعد أن فقد والدته يولاً في طفولته، لكن لم تكن هناك دلالات واضحة على هوية القاتل.

مع ذلك، أضاعت صفحة واحدة على سر دفين: إيفان كان قد أبرم عقد تأمين على حياته بمبلغ ضخم، قيمته ثمانمئة ألف دولار، مخصصة لفكتور وتيفاني، الأمر الذي وضعهما في دائرة مظلمة من الشك والريبة. لكنهما استندا إلى حجج غياب دامغة أبعدتهما عن دائرة الاتهام، تاركين الغموض يلف القضية كستار من الظلال.

تداخلت أفكار فرانك كما أعاصير ليلية، فهل كانت يد الطبيب بنجامين تمتد لتوجه الضربات القاضية؟ هل حقاً يحمل المال دافع القتل، أم أن ثمة طبقات أعمق من الألم والانتقام تتكشف في الظلام؟ لم تعد الرسالة الغامضة مجرد كلمات عابرة، بل تحولت إلى لغز معقد بين أيدي فرانك، حيث يلتقي أسطورة أوديب المأساوية بفينيكس الأسطورة التي تنبعث من الرماد، رمز الولادة بعد الموت.

وسط غياب مساعده نوح، تحرك فرانك بسرعة، وطلب من العنصر جان إعداد تقرير موسع عن هاتين الأسطورتين، في محاولة لاستجماع شتات

الحقائق المتناثرة، وفتح أبواب جديدة تقوده إلى قلب الحقيقة التي تقبع في ظلمات الماضي.

وبعد ساعة، وصل إليه التقرير، محملاً بشذرات نور تنسج من الأساطير عباءة جديدة تغلف الغموض وتعد بفصل جديد من المطاردة في متاهات القدر. بعد حوالي الساعة وصله التقرير و كان ينص على التالي :

((طائر الفينيق، أو كما يعرف بالفوينيكس في الأساطير الإغريقية، هو كائن أسطوري يفوق الخيال بجلالته وروعة قصته التي تتراقص بين رماد الموت ونور الحياة. يُصوّر هذا الطائر العملاق، المهيّب، كرمز خالد للنار المتجددة، تتوهج ريشاته بألوان اللهب الأحمر والبرتقالي، وكأنها نار صاعدة من قلب الشمس نفسها.



تبدأ أسطورة الفينيق حين يقترب من نهايته، عندما يشعر بالآلام الفناء، يطير إلى عُشٍّ من الأعشاب العطرية والعود، هناك يشعل نفسه بلهب لا يُخمد، وينطفئ كل ما هو منه، ليترك خلفه كومة من الرماد. لكن الموت هنا ليس نهاية؛ فالأسطورة تُخبرنا أن من بين تلك الرماد تتولد حياة جديدة، ينبعث الفينيق من نفسه، أقوى، أكثر إشراقاً، كأنه يتحدى قوانين الزمن والمصير.

هذا الطائر العجيب ليس مجرد رمز للحياة المتجددة، بل هو تمثيل حي للإرادة التي لا تنكسر، للأمل الذي يتحدى اليأس، وللقوة التي تستمد قوتها

من النهاية لتبدأ رحلة جديدة، لا تنتهي أبداً. في كل مرة ينهض فيها من رماده، يعلن الفينيق بداية جديدة، ويهمس للبشرية بأن الخلود ليس حلمًا بعيد المنال، بل حقيقة متجددة في أعماق الروح.

بهذا، يصبح الفينيق أكثر من مجرد أسطورة؛ يصبح مرآة تعكس قدرة الإنسان على النهوض من الصعاب، والتحول من رماد الفشل إلى نور النجاح، من ظلمة الهزيمة إلى إشراقة الانتصار الأبدي.))

ابتسم المحقق فرانك بإعجاب .. إن هذا يفسر تماماً معنى القسم الأول من الرسالة الذي يلمح إلى شخص تعرض للقتل من قبل لكنه نهض كطائر الفوينيكس من رماد قبره و بالتحديد من مدينة فوينيكس لينتقم ، تابع قراءة بقية التقرير لفهم الجزء الثاني منها ..

((أما أوديب فهو أسطورة إغريقية أخرى ذات حكاية مطوّلة و سنوردها كاملة بناءً على طلبك بتفصيل الشرح حضرة المحقق ..

تدور أحداث أسطورة أوديب في مدينة طيبة مع ملكها لاويوس الذي تزوج ولم ينجب ، فذهب لمعبد دلفي ليستعين بعزّافة دلفي الراهبة العجوز الشهيرة بيثيا التي تتنبأ بالمستقبل ليعرف إلام ستؤول حالته فأخبرته بأنه سينجب ولداً بالفعل ، لكنه سوف يقتل أباه ويتزوج أمّه .. انزعج لاويوس من هذه النبوءة للغاية فعاد إلى منزله و هجر زوجته لفترة طويلة حتى لا ينجب منها .. لكن ذات يومٍ أسكرته الخمرة فأقام علاقة مع زوجته و حملت منه مما أثار رعبه مجدداً من النبوءة ، لذا انتظر حتى أتمت ولادتها ثم أعطى الطفل لحارسه كي يقتله، فذهب به الحارس إلى الجبل وهو مقيد بالأغلال من قدميه ، وهذا يفسر سبب تسميته : (أوديب) التي تعني باليونانية القديمة المصفد بالأغلال أو الأرجل المتورمة ،

لكنّ قلب الحارس لم يطاوعه على قتله و بدلاً من أن يلقيه من الجبل ليموت تركه لراعٍ قابله في ذاك الجبل ..

أشفق الراعي على الطفل بدوره و أخذه لملك وملكة كورنثة (بوليبيوس و بريبيويا) اللذين لا ينجبان و منحهما إياه، في حين أعتقد الملك لاويوس بأنه قد تخلص من ابنه ومن النبوءة إلى الأبد ..

كبر الطفل أوديب مع الملك والملكة وهو معتقد بأنهما أبواه حتى شب وأصبح يافعاً، و تركت جراح قدميه علامات من الأصفاد التي سلسل بها وليداً ..

ذات يوم كان أوديب يلهو مع أصحابه فسمعهم يتهايمسون بشك أنهم ليس الابن الحقيقي للملك و الملكة ، فانزعج للغاية ورحل في طريقه لاستطلاع الأمر .. بطريقة ما سمع بنبوءة (ستقتل أباك وتتزوج من أمك) ، فخاف أوديب أن يقتل أباه الملك بوليبيوس الذي يحبه للغاية و رحل عن بلده تاركاً وراءه أبواه الملك و الملكة الذين لا يعرف غيرهما أباً وأماً حتى ينجو من قتل أبيه و الزواج من أمه، و مضى بعيداً حتى وصل إلى طيبة مدينته التي ولد فيها ..

قبل دخوله طيبة التقى بعربة الملك لايوس فدار بينهم شجار عنيف قتل أوديب جراه كامل الطاقم بمن فيهم الملك دون أن يعرف أنه الملك أو أنه أبوه الحقيقي.

عندما وصل إلى مداخل طيبة التقى مجدداً بوحش كبير عملاق مروع يطلق عليه الإغريق سفنكس أو أبو الهول يجثم على جبل فيكيوم بمدخل طيبة و يسأل كل من يدخل أو يخرج من المدينة سؤالاً غامضاً فيقتل كل من يعجز عن الجواب عليه مما أثار الرعب في قلوب جميع سكان المدينة .. عندما وصل أوديب إليه سأله سؤالاً كعادته : من هو المخلوق الذي يكون له قدمان أحياناً وثلاثة أقدام أحياناً أخرى وأربعة أقدام أحياناً ثالثة وكلما زاد عدد أقدامه ضعفت قوته الجسمانية ؟

ابتسم أوديب و أجاب على الفور أنه الإنسان، في البداية يكون طفلاً يحبو على أربع ثم شاباً يافعاً يسير على قدمين ثم يهرم فيمشي على عصا بجانب قدميه فيبدو بثلاثة أقدام ..

انهار الوحش عقب معرفة أوديب حل اللغز الرهيب، وألقى بنفسه من قمة الجبل فمات ..

لم يأبه أهل طيبة لخبر موت ملكهم لايوس ما دام أن المدينة تحررت من الوحش أخيراً ، و لشدة فرحهم بالخبر أخذوا أوديب ونصبوه ملكاً عليهم ليتزوج بعدها من أرملة الملك السابق التي هي أمه الحقيقية دون أن يعلم كلاهما ذلك .. لينجب منها أربعة أولاد ..

بعد مضي سنوات على اعتلائه العرش حدث طاعون تفشى بين الشعب حتى امتلأت الأرض بالجثث وسادت الفوضى والدمار في كل مكان فبعث أوديب عراف المدينة تيرسياس لاستطلاع نبوءة العرافة بيثيا عرافة دلفي بخصوص هذا الطاعون، فأى وباء نتج بالضرورة عن تقصير ما تجاه الآلهة ..

غاب تيرسياس لفترة ثم عاد ليبلغ أوديب أن سبب الطاعون وجود قاتل الملك لايوس في المدينة .. غضب أوديب و أخذ يتوعد ويهدد ويصب لعناته على هذا القاتل كائناً من كان .. و وعد أهل المدينة بالعثور على قاتل الملك ليضع حدا لهذا الطاعون المتفشي ، فاستعان بالعراف تيرسياس مجدداً ليكشف له عن هوية قاتل الملك بنعمة الاستبصار لديه ..

كان العراف على علم بأن أوديب هو القاتل لذا كان يتهرب من الجواب بلباقة وذكاء و ينصحه ألا يصب لعناته على القاتل فاتهمه أوديب بالجهل و الشعوذة ، مما أغضب العراف جداً لكنه اكتفى بالقول أن الإله أخبره بأن أوديب وحده يستطيع أن يعرف من هو قاتل الملك ؟ ..

تمضي الأحداث و يصل بعد فترة رسول من كورنثا ينقل نبأ وفاة الملك بوليوبوس راجياً من الملك اوديب أن يعود ليحكم كورنثا بصفته الوريث الشرعي للملك .. هنا سخر أوديب من الآلهة وأفصح عما كان يخفيه اعواماً طويلة .. لقد أخبرته الآلهة أنه سوف يقتل أباه و يتزوج أمه و يموت أبوه الملك ضمن بأن الآلهة فشلت بنبوءتها ، لكن هنا أخبره الرسول الكورنثي بأنه في الحقيقة ليس ابن الملك بوليوبوس ..

في هذه الأثناء يلتقي الشاب الذي حمل اوديب وليداً إلى الجبل ليقتله هناك بأوديب ليكتشف بأن أوديب ما هو إلا ذلك الوليد من آثار الأصفاة على قدميه المتورمتين .. فيدرك أوديب الذي هجر كورنثا كي لا يقتل أباه ويتزوج أمه ، أن العكس قد حدث فقد قتل أباه الذي هو الملك لايوس عن طريق الصدفة و تزوج أمه التي هي يوكاستا .. فلم تستطع أمه تحمل الأمر وانتحرت ، أما أوديب فأخذ يفقأ عينيه حتى لا يرى شقاءه وجرائمه وأفعاله وحتى لا يرى ابتسامات السخرية على أفواه الناس و الآلهة ..

نفى أوديب نفسه من طيبة حتى ينتهى الوباء، ليعيش طريداً من الأرض والسماء ..

ملاحظة : يشيع في الطب النفسي الحديث مصطلح **عقدة أوديب** الذي أطلقه **سيجموند فرويد** و يشير به إلى غيرة الابن الذكر على أمه من أبيه لدرجة الكره و يرجعها فرويد إلى الطاقات الجنسية المكبوتة عند الطفل و هي مستوحاة من قصة الأسطورة أوديب السابقة ((

ابتسم المحقق فرانك ابتسامة مشوبة بالمرارة، ثم أسند ظهره إلى الكرسي بخشوع فكري عميق. لقد تبين له أخيرًا أن المقصود بأوديب في الرسالة الغامضة ليس إلا فيكتور نيفيز، الابن الذي سقط في فخ النبوءة القديمة، فاغتال والده الحقيقي، ليس بسيف القدر، بل بيد مدفونة في الظلام، تحركها شهوة المال والتورط العاطفي الملتبس.

لكن السؤال الأثقل ظلّ معلقًا كغمامة لا تمطر: هل ارتكب فيكتور الجريمة وحده، أم أن هناك شريكًا له في الدم، امرأة لم تنجبه، لكنها رعته، كبرت فيه هشاشته، ثم شاركته جريمته؟ هل كانت تيفاني هيرنانديز حقًا بمقام الأم، أم أن الحكاية كانت أكثر انحرافًا مما بدا على السطح؟

راح فرانك يحدق في الفراغ، مسترجعًا تفاصيل تقرير القضية القديمة: إيفان نيفيز، رجل ستيني مقتول بطلقة نارية دقيقة، لا دلائل على اقتحام، لا كسر، لا سرقة. كل شيء كان يوحي بجريمة داخلية، منظمة بعناية، تُشَمّ فيها رائحة من يعرف زوايا البيت وقلب الضحية. لكن الحُجج التي قدّمها فيكتور وتيفاني حينها، كانت دامغة، لا يمكن اختراقها. أو هكذا ظنّ الجميع.

كان فيكتور في ملهى ليلي، هكذا قالوا .. ترددت الجملة في ذهن فرانك كصدى بعيد.. لكنه اختفى خلال ساعات من الليل، وظهر مجددًا مرارًا .. أليست هذه الفجوات هي اللحظات التي خُطط فيها للجريمة؟ خصوصًا وأن الملهى لم يكن يبعد عن منزل الأب إلا مسافة قصيرة، تُقطع مشيًا على الأقدام!

شهادة الأصدقاء لا يمكن اعتبارها حاسمة، إذ كانوا غارقين في الصخب، يفتقرون إلى الإدراك الزمني. أما تيفاني، فكانت في المنزل الجديد في

الولاية الأخرى، كما زعمت، لكن لا شيء كان يمنعها من القدوم سرًا، وتنفيذ الجريمة ثم العودة. من يراقب زوجة أرملة؟ لا أحد.

كان السيناريو الذي ارتسم في ذهن فرانك قاتلاً في دقته. كأن الطبيب بنجامين، ذلك الرجل الغامض الذي شقَّ طريقه خارج سلطة العدالة الرسمية، قد رسمه له بفرشاة جراحية، وقلبٍ يرفض النسيان. اغتيالٌ بطيءٍ للماضي، عبر القصاص المُتقن من القتل.. ابن و زوجة أب يتأمران لقتل الأب و تحصيل مبلغ التأمين على حياته ، بل هناك ما هو أكثر من ذلك .. علاقة محرمة شاذة تجمع بينهما ..

لكن الآن، ماذا عساه أن يفعل؟ إن ذكّر اسم الطبيب بنجامين في تقريره، فإن عاصفة من الجدل الأخلاقي والقانوني ستتدلع. رجلٌ خارج على القانون، يحقق العدالة من تلقاء نفسه؟ ذلك ما لن تقبله المؤسسة، حتى وإن صقّ له المظلومون.

قرر أن يكون ذكيًا، كعادته. أعد تقريرًا مموّهاً إلى مكتب تحقيقات مدينة فوينيكس، يشرح فيه أن الضحيتين – فيكتور نيفيز وتيفاني هيرنانديز – هما في الحقيقة ابن وزوجة رجلٍ قُتل قبل عام في نيويورك في جريمة غامضة لم تُحل، وأنه سيرسل لهم الملف الكامل للتحقيق في أوجه الترابط المحتملة. وتجنّب بمهارة أي ذكر للطبيب بنجامين، تاركًا لهم أن يسبحوا في عمق الغموض الذي يعرفه هو وحده.

ضغط زر الإرسال، ثم رفع سماعة الهاتف متأهبًا لمكالمة لا يريدّها، لكن لا مهرب منها. كان رئيسه، ويلتون، ينتظر بشراسة أنباء جديدة منذ ساعات. لم يخيب فرانك توقّعاته، إذ أبلغه أن جريمة رابعة قد أضيفت إلى الملف المفتوح، لتكتمل بذلك رباعية الهاوية، وتشتعل القضية مجددًا، لكن دون أي دليل رسمي على وجود المجرم.

وكما توقّع، صرخ ويلتون غاضبًا، متهمًا الفريق بالتقصير والعجز. لكن فرانك لم يُظهر أدنى انفعال. كان ذهنه مشغولًا برجلٍ لا يظهر في

السجلات، لكنه يترك خلفه بصماتٍ من نارٍ على وجه العدالة. الطبيب بنجامين... أو كما يسميه هو في سرّه: أطلّس العدالة، ذلك الذي يحمل على كتفيه أوزار العالم، رافضاً أن تنكسر السماء فوق رؤوس الأبرياء.

تبَقَّت قضية واحدة فقط، تلك الأخيرة من بين القضايا الأربع الباردة التي أعادها بنجامين إلى لهيب العدالة. ترى... هل يحلّها هو أيضاً؟ وهل بعد ذلك سيتوارى عن الأنظار، كما جاء؟ أم أن أطلّس الجبّار سيظهر مجدداً في زمن آخر، بمدينة أخرى، ليعيد رسم حدود الجريمة والعقاب بطريقته الخاصة؟

فرانك، رغم خبرته الطويلة، لم يعد يثق بالقانون وحده. لقد بدأ يؤمن، خلّسة، بعدالةٍ بديلة... تُشبه تلك التي كتب عنها الإغريق منذ آلاف السنين.

استنزاف الحياة
من أجل الحياة ..

الفلبين ..

لاميتان عاصمة إقليم باسيلان ..

الساعة 2 ظهراً ..

نظم ديونيسوس و هيكتور أغراضهما الشخصية في غرفة الفندق الرحبة
ثم نزلا لتناول الغداء .. توجه بعدها ديونيسوس مباشرةً إلى موظف
الاستقبال جوريس ..

● ديونيسوس : هنالك موضوع أتمنى لو أمكنك مساعدتي به سيد
جوريس بحكم أنك ابن هذه المدينة ..

○ جوريس : بالطبع .. أي خدمة سيدي ؟

● ديونيسوس : هل بوسعك أن تدلنا على عنوان أشهر شركة في مدينة
لاميتان ..؟

صمت جوريس للحظات يفكر ..

○ جوريس : بحسب معلوماتي فإن شركة ميبا لصناعة البلاستيك هي
الأشهر هنا ، حيث أنها معروفة على مستوى البلاد قاطبةً ، و سأؤمن لك
عنوانها خلال ثوانٍ ..

بحث جوريس في كتاب ضخّم أمامه للحظات ثم كتب العنوان على ورقة و
ناولها لديونيسوس ..

○ جوريس : هاك العنوان سيدي .. أي خدمة أخرى ؟ ..

● ديونيسوس : أجل معروف صغير آخر .. إننا نبحث عن مترجم خاص
يرافقنا إلى تلك الشركة مقابل أجر مادي سخّي ..

ابتسم جوريس عن أسنان متهاكة لا تتماشى مع عمره ..

○ جوريس : في الحقيقة لا أعرف أحداً معيناً يتقن اللغة الإنجليزية جيداً ،
لكن ورديتي هنا تنتهي على الساعة الثالثة و أنا تحت أمرك إن شئت ..
سأقوم بدور المترجم بكل سرور ..

● ديونيسوس : ممتاز .. سنعود إليك بتمام الثالثة ..

صعدا إلى غرفتهما مجدداً و أخذا يتناقشان حول مهمتهما القادمة و عن
الطبيعة الاستغلالية لبعض شركات البلاد ريثما يحين الموعد ..

○ هيكتور : إنّ هذه الشركات تذكرني بشخصية فلاد المخوزق
(دراكولا) فهي تمتص جهد الفقراء حتى آخر قطرة كما يمتص دراكولا
الدماء .. مستغلة حاجتهم لكسب قوتهم اليومي .. و عمل القاصرين فيها
يبدو كاستنزاف الحياة لمجرد البقاء على قيد الحياة .. حيث يلقون بطفولتهم
و تعليمهم و حقوقهم عند أبواب الشركات ليدخلوا إليها عجائز شاخوا قبل
الأوان ..

● ديونيسوس : صدقت .. إنها مفارقة عجيبة .. التضحية بحياتك لتحافظ
على حياتك !!!

عند الثالثة تماماً، كانت الشمس قد بدأت تميل برأسها ناحية الغروب، ترشّ
غباراً ذهبياً خفيفاً على الطرق، كأنها تبارك الرحلة القادمة بنور خافت لا
يخلو من الهيبة. انطلقت سيارة الأجرة تقلّ ديونيسوس، وهيكتور،
وجوريس، تشقّ الطريق كقافلة صغيرة متوجّهة إلى قدرٍ خفيّ، غير
مدركين بعد أنّ الغابة التي يقصدونها ليست مجرد أشجار بل سرداب
أخضر إلى مكاشفة كبرى.

في البداية، عبرت السيارة المدينة النابضة كقلب متعب، تتزاحم فيها
الأرواح و الاسمنت، ثم بدأت الملامح الحضرية تتلاشى رويداً، لتفسح
الطريق أمام عالم آخر، أكثر وحشية، وأكثر شاعرية. هنا لم تعد العيون
تري إلا الطبيعة: أشجارٌ عتيقة تتعانق في الأعالي، ودوالي كثيفة تُخبئ
السماء، وأصوات طيورٍ غريبة تصرخ من بعيد كأنها تنبّه الزوّار إلى أنّ
ما ينتظرهم ليس عابراً.

كلّ شيء من حولهم بدا مسحورًا، حتى الهواء تغيّر، صار أثقل، وأعمق، وكأنهم يتنفسون من رئة الأرض نفسها، لا من رئة المدينة. غمرتهم رائحة رطبة من الطين والأوراق المتساقطة، ونسيم يحمل بين طياته نُذُر الحكاية القادمة.

ثم ظهرت الشركة.

مبنى رماديّ هادئ وسط خضرة هائجة، كصرح بشريّ متردد في إعلان وجوده داخل هذا الفردوس الفوضوي. لم تكن شركة ميبا مجرد مقر صناعي، بل بدت كأنها طوّقت نفسها بين الأشجار لتحتمي من نظرات البشر. شيء ما فيها أوحى بأن في أعماقها أسرارًا لا تُقال، وأن زيارتهم لها ليست مصادفة، بل اختيار سماوي دقيق.

ترجّل الثلاثة من السيارة، ودبيب أقدامهم فوق الأرض كان أشبه بقرع ناعم على باب زمنٍ قديم. تقدّم ديونيسوس بخطوات ثابتة نحو البوابة، وطلب من جوريس أن يتحدث إلى الحارس باسم رجل أعمال أمريكي جاب البحار والمحيطات لا ليجمع الثروات، بل لينثرها في قلوب المستحقين كمن يزرع الزنابق في صحراء.

وقف الحارس أمامهم كجدار من الصمت، ثم انزلق إلى مقصورته ليتحدث عبر جهازه اللاسلكي، وكأن عليه أولاً أن يستأذن روح الغابة، لا المدير. دقائق مرّت، لا تسمع فيها سوى هديل طائر غريب، ووقع قطرات الندى التي ما زالت تتشبث بأوراق السرخس.

ثم عاد الحارس ووجهه مشرق بنورٍ غير مألوف، وقال بصوتٍ فيه شيء من الدهشة وشيء من الاحترام :

المدير **أرنولفو** يرحّب بك، سيد ديونيسوس. لقد قرأ عنك، وتأثّر بما قرأ. ويشرفه أن تستكشف أروقة شركته، قبل أن يجتمع بك شخصيًا لمناقشة احتمالات الشراكة.

ابتسم ديونيسوس، لكن في قلبه لم تكن تلك الابتسامة موجهة للحارس، بل للقدر نفسه، الذي قاده مرّة أخرى إلى منعطفٍ جديد، حيث الأشياء العظيمة

تبدأ بصمت... في مكانٍ لا يُكتب فيه التاريخ بالحبر، بل بأقدام من يعبرون الغابات لينثروا نورًا في العتَمات.

● ديونيسوس : هذا مثالي و واعد ..

بعد دقائق أخرى، انفتح الباب الداخلي للمصنع بصريه المعدنيّ كأنّه يُنبئ ببداية طقسٍ سريّ. دخل الموظف بخطى واثقة، رجل أربعينيّ بلون البشرة الذي تلوّنه الشمس لا السلالة، وقَدّم نفسه بصوت جاف كالصقيع قائلاً:

● الرجل : اسمي باسيليوس، أنا المشرف العام على سير العمل في شركة مييا. سيسرّني أن أرافقكم في هذه الجولة.

أوماً ديونيسوس بلطف، و انطلق أربعتهم بجولة تحمل في انعطافاتها مفاجآت كثيرة مؤلمة ..

سار الثلاثة خلف باسيليوس عبر ممرٍ طويلٍ خائق، تمتدّ فوقه أنابيب متشابكة كأمعاء وحش صناعيّ قديم، تصدر همسات متقطّعة وكأنّ المكان يتنفس من خلالها. عند نهاية الممر، استداروا إلى اليمين، حيث فتح باسيليوس باباً حديدياً ضخماً انزلق بانسيابية مذهشة إلى الداخل، كاشفاً عن عالمٍ أشبه بمعبد من معابد الآلة.

كانت الصالة شاسعة، واسعة، بلا أعمدة، كأنّ سقفها معلّق بخيوط غير مرئية تشدّه من السماء. وُزّعت في فضاءها أقسام متجاورة يفصل بينها سياج معدني، كأنّها مناطق في جسد كائن حيّ يعمل بلا كلل.

وفي كل قسم، آلات ضخمة، بعضها يشبه الحيتان المتضخّمة، وأخرى كالعناكب المعدنية تدور بلا رحمة. هديرها يملأ الأذنين، لكنّه يذوب بعد دقائق في خلفية السمع، كمن يعتاد دويّ العاصفة.

ما شدّ انتباه الزائرين أكثر من الآلات، هو العمّال. عشرات من الفتيان والفتيات، لم يتجاوز معظمهم عتبة الثامنة عشرة، وجوه صغيرة بأعين

كبار، يحملون على أكتافهم أكثر ممّا يُفترض أن يحمله المرء في عمرٍ يافع. كانت أجسادهم تنحني، ثم تستقيم، ثم تنحني ثانية، بإيقاع ميكانيكيّ يشبه حركة الآلات التي يعملون حولها، كأنّهم جزء منها.

بقي ديونيسوس صامتاً وهو يتنقل، يشاهد، يلح من وراء كل وجه قصة، ومن كل يد ترتجف خيطاً خفياً من المعاناة. أما باسيليوس، فكان يشرح ببراعة، وكأنه يُرشدهم في متحف، لا في مسرح تعبٍ يوميّ.

عند الآلة الأخيرة، آلة ضخمة تُشبه كرةً حديدية تتنفس ناراً، توقّف الموكب. كانت هذه الآلة تُحوّل كتل البلاستيك المنصهرة إلى عبوات متناسقة، وكأنها تصنع أشكالاً من الطين في فرن الخلق.

لكن أكثر ما لفت انتباه ديونيسوس لم يكن الآلة... بل كانت هي.

فتاة صغيرة، لا تتجاوز السادسة عشرة، ترتدي حجاباً باهت اللون، تقف قرب الآلة. كانت تتناول كل عبوة تُنتجها الماكينة، تمسحها بقطعة قماش، وتضعها بعناية في صناديق كرتونية مصنّفة. يدها تعمل بإيقاع ثابت، بينما جبينها يلعب تحت ضوء المصابيح بعرقٍ يتصبّب كما لو أنّ الأمازون فاض فوق ملامحها الرقيقة.

في عينيها سكون متعب، لكنه ليس استسلاماً. كان فيها شيء آخر... صبر الأنبياء، أو لعلّه حوارٌ صامت مع السماء. تخيلها ديونيسوس حينها، كما يفعل دومًا، ليست مجرد عاملة، بل نقطة التقاء بين العرق والقداسة. وكأنّ إله القدر يقف خلفها، يربّت على كتفها، يمسح جبينها، ويقول لها همساً : اثبتي... كلّ شيء قادم.

اقترب منها قليلاً، بينما كان الموظف باسيليوس يشرح بعض تفاصيل عمل الآلة. التفت إليه ديونيسوس بصوت خفيض، أشار إليها بإيماءة رقيقة وهمس للمترجم جوريس :

● ديونيسوس : من هي هذه الفتاة سيد باسيليوس ؟

○ باسيليئو: هذه فاطيما سيد ديونيسوس ..

● ديونيسوس : و كم عمرها ؟ ..

○ باسيليئو: **14** عاماً ..

● ديونيسوس : و هل يمكنك إطلاعي على راتبها الشهري إن لم يكن ذلك
تطفلاً ؟

○ باسيليئو: بالطبع .. العاملون هنا لا يتقاضون أجوراً شهرية بل يومية ..
و فاطيما تتقاضى **5** دولارات في اليوم ..

● ديونيسوس : و ذلك مقابل كم ساعة عمل يومية ؟

○ باسيليئو: **12** ساعة سيد ديونيسوس ..

نظر إليه ديونيسوس غير مصدق ..

● ديونيسوس : أليس ذلك أجر قليل للغاية مقابل هذه الساعات الطويلة
المجهددة و الشاقة في هذا الجو الحار و المخنوق ؟!

○ باسيليئو ببرود : هذه هي الأجور هنا سيد ديونيسوس .. و نحن لا نجبر
أحداً على العمل .. بالعكس نحن ننقذ عشرات العائلات من الموت جوعاً
بتأمين فرص العمل هذه .. نحن نخدم المجتمع قبل أنفسنا ..

انحنى هيكتور إلى ديونيسوس و همس في أذنه بامتعاض ..

○ هيكتور: صدق كارل ماركس عندما قال :

((كي يضمنوا السلطة و الهيمنة جعلوا مصالحهم الشخصية

تبدو كأنها المصلحة العامة))

أوماً دونيسوس برأسه مستاءً ثم تابع الحوار مع باسيليئو ..

● ديونيسوس : و متى تنتهي وردية عملها ؟

○ باسيليوس: بدأت الساعة 5 صباحاً و تنتهي على الساعة 5 عصراً ..

● ديونيسوس : لقد أخذت كفايتي من الزيارة سيد باسيليوس ، يمكننا الآن زيارة المدير أرنولفو قبل انصرافنا ..

كانت زيارة المدير مجرد طقس شكلي، استجدي خلاله كلمات مألوفة وخطابات مجاملة، بينما كان في أعماق ديونيسوس عاصفة من الغضب و الاشمئزاز، ذلك الغضب الذي ينبع من مشاهدة استغلال الطفولة وتلويث البراءة تحت ستار العمل والرزق. كان يسير بين كلمات المدير الجافة، كأنه يمر من فوق جثث بلا صوت، تستصرخ الإنسانية في صمت.

أنهى المدير لقائه بكلمات ممجوجة، يلبسها ثوب البروتوكولات الباردة، وشكر ديونيسوس بشفاه متماسكة، لم تفصح عن ذرة وعي تجاه الألم الذي يعاينيه ذلك المكان. خرج ديونيسوس مع هيكتور وجوريس إلى الهواء الطلق، يطاردهم ظل الألم والمرارة، وقد تصاعد في صدره شعور بالعزيمة التي لا تلين.

وقفت عينا ديونيسوس تتلاقى مع شجرة وارفة تلوح على مقربة، غصونها المتشابكة تتمايل برقة كأنها تحاكي أنفاس الأرض التي لم تننث بعد، تداعب قلبه بحكايا الصمود والأمل المختبئ بين الأوراق. كان في تلك اللحظة أكثر من مجرد رجل يحمل آماله على عاتقه؛ كان رمزاً لصراع دائم بين الظلمة والنور، بين الاستسلام والتمرد، بين اليأس والرغبة الملتهبة في إنقاذ ما تبقى من نقاء البشرية.

● ديونيسوس : سننتظر في ظل هذه الشجرة حتى انتهاء وردية فاطيما فلديّ كلام خاص معها .. و سأعوضك سيد جوريس عن وقتك الخاص بمبلغ محترم فلا تقلق ..

هز جوريس رأسه موافقاً ..

○ هيكتور : هل هي اللؤلؤة القادمة في طوقك سيد ديونيسوس ؟

● ديونيسوس : هذا ما أتمناه .. يا لها من فتاة مسكينة تستهلك طاقتها و

تستنزف طفولتها و حياتها في هذا المصنع البائس ..

○ هيكتور : بالفعل ، إنه يذكرني برواية هانزل و غريتل الألمانية . عندما تعثر هذان الولدان بكوخ مصنوع من الحلوى التي تغري الأطفال فسارعوا للدخول إليه دون أن يعوا أن مالك هذا الكوخ هو عجوز شريرة تصطاد الطفولة و تتغذى عليها ، كما وقعت فاطيما بدورها في شرك مصنع أرنولفو الذي سرق طفولتها و يتغذى عليها كي يزيد حجم ثروته ..

في حوالي الساعة الخامسة و الربع بدأ العاملون بمغادرة الشركة واحداً تلو الآخر حتى ظهرت فاطيما بدورها على باب الشركة فاتجهوا مباشرةً إليها ليقوم جوريس بلعب دور المترجم ثانيةً ..

● ديونيسوس : آنسة فاطيما ..

التفتت إليه الفتاة بدهشة ..

○ فاطيما : نعم سيدي ؟

● ديونيسوس : أريد الحديث معك لدقائق لو سمحت ..

○ فاطيما : لكنني سأأخر على باص نقل الموظفين فهو سينطلق بعد ربع ساعة ..

● ديونيسوس : لا تقلقي سأوصلك بنفسي إلى منزلك ..

○ فاطيما : شكراً على هذا العرض ، لكن ديني يمنعني من قبول ذلك .. كما أنكم غريبون عليّ و ليس من المنطق أن أذهب معكم كما تقتضي الحكمة سيدي

فكر ديونيسوس للحظات ..

● ديونيسوس : أنا ملياردير أمريكي أدعى ديونيسوس و هذا مساعدي هيكتور و مترجمي جوريس ، أرغب بمساعدتك و عائلتك مادياً فكيف أتواصل مع العائلة ؟

نظرت إليه فاطيما و الدهشة و السعادة تجتاحان محياها ، كأنها لا تصدق ما يحدث ، فمن أين يعرفها هذا الغريب ؟ و لماذا يريد مساعدتها هي بالذات .. ؟ سرعان ما تماكنت نفسها فابتسمت له مخرجة ورقة من حقيبتها ثم كتبت عليها شيئاً ما ..

○ فاطيما: هذا هو عنواني سيد ديونيسوس .. يمكنك تشريفنا بزيارة في منزلنا في أي وقت بعد الخامسة عصراً لنحدث .. و جزيل الشكر لك مقدماً على هذا العرض النبيل ..

ثم اعتذرت منهما و غادرت مسرعة لتلحق بالباص .. في حين التفت ديونيسوس إلى جوريس و أخرج من جيبه ورقة من فئة ألف دولار و ناولها له ..

● ديونيسوس : هذا ثمن وقتك الخاص سيد جوريس ، و لك مثلها إن رافقتنا لزيارة منزل فاطيما كمترجم مرة أخرى على الساعة الثامنة مساءً ○ جوريس مذهولاً بالمبلغ الضخم : تحت أمرك سيدي ..

في حوالي الساعة الثامنة مساءً، كانت الشمس قد انزلقت بهدوء خلف أفق مدينة لاميتان، تاركة السماء بلون خمريّ تتخلله خيوط بنفسجية كالحرير المحروق. هناك، وسط حيّ مكتظ بمنازل من الصفيح تنوء تحت وطأة الفقر، وقف ديونيسوس وهيكتور وجوريس أمام العنوان المدون على القصاصة الورقية، يشاهدون بأعينهم الوجه الحقيقي للعوز، لا في التقارير، بل في صدى الأبواب، وتشققات الجدران، وملابس الأطفال المعلقة على حبال مترنحة كأحلام مؤجلة.

كان المنزل متهاكاً، أشبه بصندوق خشبي قديم لفظه الزمن إلى هنا، في قلب البؤس. بجواره تماماً، نهض مسجد صغير، ببنائه المتواضع وقبته الصفيحية، كأنه زهرة في شقّ رمليّ، ورغم تواضعه، فقد بدا في تلك اللحظة أشبه بواحة نور في صحراء من التعب.

وفجأة، صدح من مئذنته صوت المؤذن، رخيماً عذباً، كنسمة باردة على صدر مشتعل. كان صوته يُحلق فوق البيوت المتعبة كدعوة من السماء، لا للركوع فحسب، بل للنهوض من الركाम. وكان يردد بإيمان يشقّ الهواء:

(حيّ على الفلاح... حيّ على خير العمل)

لم يكن ديونيسوس وهيكاتور يفهمان العربية، لكن تلك العبارة استقرت في قلوبهما كهمسة سماوية، كأنها قيلت خصيصاً لهما. لم يحتاجا إلى ترجمة، فقد كانا يطبقان معناها دون أن يدريا: فهما، في هذا الحي المنسي، يقدمان على خير عمل، بكل ما أوتيا من إرادة وعطاء.

تقدّم ديونيسوس بخطى ثابتة نحو الباب المتهالك، وطرقه برفق عدة طرقات، كان الصمت يرد عليها أولاً، قبل أن تُسمع خطوات خفيفة تأتي من خلف الباب، خطوات صغيرة تشبه دقات قلب طفل يحاول أن يكون شجاعاً.

فتح الباب ببطء، فظهر صبي في العاشرة من عمره، عيناه واسعتان بلون الليل، وفيهما انعكاس الشارع، والمئذنة، والغربة... كان يرتدي قميصاً باهت اللون، يكبره بمقاسين على الأقل، ويمسك بيده سبحة صغيرة لا تتناسب مع عمره.

● ديونيسوس : مرحباً أيها الصغير ، هل أختك فاطيما هنا ؟

○ الصبي بدهشة : أهلاً عمي .. أجل إنها في الداخل ..

نادى الصبي على أخته فظهرت سريعاً لتفاجأ برويتهم مجدداً .. (يبدو أنّ هذا الشاب الغريب يعني بشكل جدّي ما عرضه علينا من مساعدة) .. قالت لنفسها

○ فاطيما بابتسامة : أهلاً بكم .. من الجيد أنكم لم تتوهوا عن العنوان فحينما المتواضع هذا أقرب إلى المتاهة .. تفضلوا بالدخول ..

دخلوا إلى ذلك المنزل البسيط الذي بدا وكأنّه يخجل من نفسه، مكوّن من

غرفتین صغیرتین تعلوہما ألواح صفیحیة متأكلة تُنذر بالخریر عند أول قطرة مطر. كان الهواء فی الداخل أثقل منه خارجه، محملاً برائحة الطبخ القدیم، ورطوبة الجدران، وأحلامٍ لم تجد نافذة لتخرج منها.

لم یکن فی الغرفتین من الأثاث ما یُذكر، سوى فراشین علی الأرض، منكمشین كزهرتین ذبلتا تحت شمس لا ترحم، وطاولة خشبیة متأكلة الأطراف، تقف بإرادة أكثر منها بقوة. صمت عمیق خیم علیهم لحظة دخولهم، لم تقطعه سوى حركة رتیبة لمروحة قدیمة تُصدر صریراً كأنها تتنفس بصعوبة مع هذا البیت.

لكن ما أوقفهم حقاً لم یکن فقر المكان، بل ذلك الحضور الجلیل فی صدر الغرفة.

كان هناك شاب فی نهاية الثلاثینات، یجلس علی كرسي متداع كما لو أنه امتدادٌ لهیئته. وسیم الملامح، لكن ثمة شيء فی وجهه بدا غریباً، هدوء مطلق، وسکينة لا تُشبه البشر المنشغلین بما حولهم. نظراته كانت ثابتة فی نقطة بعيدة... نقطة لا یراها أحد سواه.

أدرك دیونیسوس وهیكتور فوراً أنه کفیف. لم یکن بحاجة إلى عکاز أبيض أو مرافق یرشده؛ كانت عیناه، علی اتساعهما، تقولان كل شيء. خیالٌ بلا ضوء، وذاكرة تسیر بلا مرآة.

تقدّم دیونیسوس نحوه بخطی بطیئة، كأنه یقترب من مقام مقدّس لا یجوز انتهاكه دون احترام. توقف علی مسافة متر واحد منه، وما إن فتح فمه لیُلقي السلام، حتی بادره الشاب بصوت هادی کنسیم البحر فی فجر بعيد:

○ فاطیما : هذا أخی الصغیر محمد و هذا أبی حلیم .. أبی هذا هو السید دیونیسوس الذی أخبرتك عنه عند وصولی وبصحبتہ صدیقه ..

ابتسم الأب و خاطبهما بلهجة مفعمة بالأمل ..

○ حليم : أهلاً بكم في منزلنا المتواضع أيها السادة ..

● ديونيسوس : لنا الشرف بمعرفتك سيدي ..

○ حليم : أعدي لنا الشاي يا فاطيما ..

● ديونيسوس : لا داعٍ لذلك سيدي .. فهناك كلام هام أرغب بقوله على وجه السرعة ..

○ حليم : كما تشاؤون و إن كان إكرام الضيف واجب في عقيدتنا ..

صمت الأب للحظات ..

○ حليم : لقد أخبرتني فاطيما بعد عودتها أنك شخص ثري يرغب بمساعدتنا ؟

● ديونيسوس : هذا صحيح سيدي .. فوضعكم المادي عسير كما يظهر لي !

○ حليم : للأسف هو كذلك ، لقد اعتدت على العمل بالمهن الحرة لسنوات و كنت أكسب قوت يومنا منها .. لكنني أصبت بالعمى منذ ثلاثة أعوام بسبب التهاب فيروسي في قرنيتي عيني سبب انتقابهما و لم يكن بمقدوري مادياً إجراء عملية لهما بزرع قرنيات جديدة فهي بتكاليف باهظة لا أتحملها أبداً فخسرت بصري بحكمة من الله .. أما والد فاطيما نور الهدى فقد توفيت أثناء ولادة ابني محمد .. فلم يكن هنالك من خيار أمامنا سوى أن تعمل فاطيما في شركة ميبا لصناعة البلاستيك لتعيّلنا مضحية بتعليمها و طفولتها لأجلنا .. و رغم أن المردود المادي قليل لكنه ينجينا من الموت جوعاً على كل حال .. كذلك الأمر تقوم فاطيما بتعليم أخيها محمد القراءة و الكتابة بنفسها في المنزل بعد انتهاء عملها ناهيك عن أعمال المنزل من طبخ و تنظيف و غسيل و غيرها ..

نظر ديونيسوس إلى فاطيما بإعجاب ..

● ديونيسوس : إنها جوهرة نفيسة .. فتاة مكافحة و مذهلة بكل ما تعنيه

الكلمة ...

تدخل هيكتور في النقاش ..

○ هيكتور : بالفعل ، أنت تذكريني يا طفلي بملكة فرنسا كاترين دي ميديتشي التي تركت طفولتها خلفها في مثل عمرك تماماً أي 14 سنة لتتزوج من ملك فرنسا و تتحمل مسؤوليات هائلة لا تتناسب مع عمرها بمنتهى الاقتدار و الكفاءة فتركت قراراتها لاحقاً آثارها على مستقبل أوروبا بأكملها ، و أنت بدورك تتركين آثارك الهامة و الطيبة كملكة على عائلتك كلها بتحمل هذه المسؤوليات الكبيرة..

أطرقت فاطيما خجلاً من هذا الإطراء ..

● ديونيسوس : ارفعي رأسك أيتها الملكة فاطيما ، عليك أن تكوني فخورة بنفسك و بما تفعلينه .. و بسبب تضحياتك العظيمة هذه لدي عرض لكم سيغير حياتكم بلا شك و يمنحكم الحياة الكريمة و المريحة التي تستحقونها إن قبلتم به ..

○ حليم بأمل : و ما هو هذا العرض سيدي ؟ ..

● ديونيسوس : كما أخبرت فاطيما اليوم فأنا ملياردير أمريكي و قد اشتريت مؤخراً أرخبيل جزر في المحيط الأطلسي ثم شرعت بتجهيزه بالكامل ليصبح مؤهلاً للحياة المتكاملة من جميع النواحي .. حالياً أنا في خضمّ رحلة حول العالم لانتقاء مجموعة من الناس تستحق أن تعيش عليه، و أنتم خير مثال للنوعية التي أرغب في مساعدتها و نقلها للحياة هناك .. فما رأيك سيدي ؟

التفت إليه كل من جوريس و حليم و فاطيما بذهول و كأنهم استحالوا إلى تماثيل حجرية بنظرات من الأسطورة الإغريقية ميدوسا ..

○ حليم: هل أنت جادّ سيدي ؟ ..

● ديونيسوس : كل الجدية سيد حليم .. فهل تقبل العرض ؟

○ حليم : لا أدري ما الذي أقوله لك .. نشكرك جزيل الشكر ونقبل عرضك بالطبع بمنتهى الامتنان .. أنت إنسان نبيل للغاية سيدي .. لكن ما المقابل الذي تطلبه ؟

● ديونيسوس : هذا مقابل أمنحه لا أطلبه سيد حليم .. أنا أرد الدين لكم مقابل كفاحكم العظيم في الحياة ..

○ حليم متنهداً : آه لو كان بمقدوري أن أراك لأتمعن في ملامحك .. أقسم أنها سمحة و طيبة كقلبك ..

● ديونيسوس : سيكون بمقدورك فعل ذلك سيد حليم قريباً على أرخبيلي الخاص .. فأنا سأتكفل بجميع تكاليف عملية زرع القرنيات لعينيك لتبصر من جديد حياتك القادمة هناك التي ستنسيك كل لحظات الألم و العذاب في حياتك السابقة .. كما أنك سترى بألم العين أية فتاة مذهلة أصبحت عليه ابنتك فاطيما التي أنجبتها ..

انهمرت الدموع على وجنتي حليم وفاطيما كساقية قديمة فاضت فجأة بعد سنوات من الجفاف... لم تكن دموعاً عادية، بل مزيجاً معقداً من الدهول، السعادة، الامتنان، والانعقاد. كأن تلك اللحظة بالذات كانت الميعاد الذي انتظرتة روحهما بصبرٍ قاسٍ، دون أن تملك له اسماً أو شكلاً.

ركضت فاطيما إلى والدها كفراشةٍ وجدت أخيراً دفء شمعة لا تحرق، بل تضيء. ارتمت في حضنه وكأنها تحاول أن تلملم شظاياها القديمة كلها دفعة واحدة، تبكي كأن كل ألمها السابق قد سمح لنفسه أخيراً بالانفراج .. أما حليم، فرفع يديه المرتجفتين بثقل، وضمّ ابنته كمن يعانق عمرًا ضائعًا ويعتذر له بلا كلمات.

كان ديونيسوس واقفاً بجانب هيكتور وجوريس يرقب المشهد بصمت مُبجّل، كما لو أن روح القدر ترثم ترنيمة نادرة أمامه، ترنيمة لا تُعرَف سوى مرة كل ألف عام.

ثم، بهدوء نُبلاء الأساطير، تقدّم إلى وسط الغرفة، وجثا قليلاً ليضع فوق الطاولة الخشبية الوحيدة — التي رغم تواضعها بدت وكأنها مذبح مقدّس

في تلك اللحظة — بضع رزم من النقود، لُقها بشريط أنيق.

لم تكن أوراقاً نقدية فقط، بل مفاتيح لحياة جديدة، وكرامة مستردة، ونوافذ تُفتح بعد طول عتمة.

وقال بصوت هادئ، صادق، فيه نبرة رجلٍ يعرف بالضبط ما يفعل:

● ديونيسوس : اعتباراً من الغد ستستقيلين من وظيفتك الجائرة يا فاطيما و تنفقون من هذا المال لتحسين نوعية حياتكم .. كذلك الأمر اتفقا مع أفضل مشفى في الفلبين على إجراء عملية الزرع و أبلغاني بالتفاصيل كي أدفع جميع التكاليف لإدارة المشفى .. و في حال تعذر عليكما إجراء العملية هنا سأقوم بنفسى بنقل السيد حلیم إلى الولايات المتحدة الأمريكية و أجري له العملية هناك .. لا تقلقا أبداً بخصوص أي شيء .. فكل شيء سيكون على ما يرام ..

○ حلیم : لا أعرف كيف أشكرک سيدي النبيل .. لا يسعني سوى الدعاء لك و إن كنت لا تحتاجه كما أو من فالجنة تنتظر أمثالك بلا شك و تفتح بابها لك على مصراعيه كما يقول نبينا محمد ..

((من نفس عن مؤمن كربةً من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مؤمنا ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه))

و كن على ثقة أن الله سيكون في عونك مدى الحياة بإعانتك لي و لأمثالي بعروضك السخية هذه .. لقد أعدت لي الأمل بالبشر سيد ديونيسوس بعد أن أوشتك أن أفقده .. صحيح أنني أعمى البصر سيدي لكن الله عوضنا نحن المكفوفين ببصيرة نافذة .. و أنا أرى رغم عماي مستقبلاً هائلاً ينتظرك ستحقق فيه كل أحلامك و غاياتك .. كذلك الأمر سيضاعف الله لك ثروتك أضعافاً مضاعفة كما تنفقها الآن على الفلاح و خير العمل ..

غمرت السعادة قلب ديونيسوس من كلمات السيد حلیم اللطيفة ..

● ديونيسوس : فلسفتي بالحياة تفترض أن أشكرك أنا سيد حلیم .. فوجود أمثالك من المحتاجين حولنا ينقذون أمثالي من الأغنياء من لعنة الثروة و المال التي هي متاهة نفسية لا يخرجنا منها سوى أمثالك بإعادتنا إلى واقع الحياة و غاية الخالق منها ..

○ حلیم : فلسفة عميقة و مميزة سيدي .. يبدو أنك قد ورثت جينات أفلاطون و أرسطو و سقراط و غيرهم من أجدادك الفلاسفة الإغريقين .. فأنت يوناني على ما أعتقد تبعاً لاسمك !؟

● ديونيسوس : بالفعل .. ملاحظة ذكية ..

○ حلیم : لقد كنت محظوظاً بارتياح المدرسة لتسع سنوات .. وكنت طالباً مجتهداً فيها أعشق العلم و المعرفة .. لكنّ قسوة الحياة أجبرتني على تركها بعد الصف التاسع لأعمل في مهن حرة متنقلة كي أصرف على نفسي و على عائلتي الكبيرة المكونة من 8 أفراد ..

● ديونيسوس: سيكون أمامك متسع من الوقت في الأرخبيل لتوسع أفق ثقافتك و معرفتك كما تحب ..

○ حلیم : و سأستغل كل ثانية هناك لفعل ذلك بلا شك ..

● ديونيسوس : سننصرف الآن و أبلغاني بما ستؤول إليه الأمور بشأن عملية الزرع .. و من جهتي سأصل بكم متى جهز منزلكم الجديد على الأرخبيل كي أنقلكم إليه ..

○ حلیم : رافقتك السلامة سيدي .. و فقك الله في كل خطوة تخطوها ..

تبادل ديونيسوس و فاطيما أرقام الهاتف ثم انصرف مفعماً بالحبور و الرضا ..

● ديونيسوس : إن لم يكن أرخبيلي قد وجد لأمثال فاطيما ، فلمن سيوجد بحق السماء ؟ .. يا لها من فتاة مذهلة .. تلعب دور الأم و الأب و الابنة و الأخت في نفس الوقت و هي لم تكمل سن 14 عاماً ..

○ هيكتور : بالفعل .. إن حياتها قاسية على نحو لا يصدق و هي في

حلكة الظروف المستحيلة التي تعيشها تشع نوراً كبدر اليوم 14 من الشهر القمري .. أكاد أجزم أنني رغم عمري المتقدم عاجز عن التأقلم مع نمط حياتها و تحمل هذه المسؤوليات الجمة التي تتحملها في سنها المبكر .. يا لطوقك الفريد يا بني ديونيسوس كم سيكون مذهباً .. من فرانسوا اليتيم الفقير ذو القلب الكبير إلى أنطونيو الذي يحمل صليبه على كتفه و يرفض الانجرار مع القطيع فيسبح عكس التيار لرعاية أمه المقعدة ثم تياغو الطفل الفقير بماله و الثري بشغفه و موهبته و بعده فيردي عازف سيمفونية الحياة بمراحلها المختلفة و الآن فاطيما عائلة متكاملة في شخص واحد تستنزف حياتها لأجل البقاء على قيد الحياة ..

● ديونيسوس : إنه أرخبيل الأحلام يا هيكتور .. الأرخبيل الذي سيجعل أحلام هؤلاء جميعاً واقعاً حياً ..

○ هيكتور : أنت تذكرني الآن بالخطاب الشهير للأيقونة مارتن لوتر كينغ :

((لذي حلم))

فحلمك كبير كحلمه الذي أراد فيه تحقيق المساواة بين البيض و السمر في بلده .. فأنت ستكتب عهداً جديداً من الشعور بمعاناة المحتاجين عبر مقاسمتهم ما تملك .. أي دعوة جديدة للمساواة بين الفقراء و الأثرياء ..

ابتسم ديونيسوس برضا جرّاء هذا التشبيه ثم التفت إلى جوريس و أخرج من جيبه ألف دولار إضافية و منحها له فاستلمها منه ، انحنى بعدها أمامه بإجلال ..

○ جوريس : رغم أنني بالكاد أعرفك سيد ديونيسوس .. لكنني بتّ من أكبر المعجبين بك .. و أعتقد أن إنسانيتك العظيمة هذه ستغير حياتي بدوري إلى الأبد .. شكراً لك على منحي هذه الفرصة العظيمة بأن أكون مترجم لكلام قلبك الرحيم للمحرومين ..

انصرف جوريس إلى منزله في حين قفل ديونيسوس و هيكتور عائدين إلى الفندق ليحزما أغراضهما و يعودا إلى كاليفورنيا مجدداً ..

● ديونيسوس: إن كلام حليم عن البصيرة و تحقيق أحلامي أسعدني للغاية يا هيكتور .. فهو لاء المكفوفون لديهم قدرات هائلة على الاستبصار حول المستقبل كتعويض من الله لهم عن عاهاتهم ..

○ هيكتور : إن كلامه سار بلا شك و حقيقي بشكل مؤكد فقدرتهم على الاستبصار حقيقة مثبتة بالتجربة .. لقد ذكرتني حالته بأسطورة إغريقية قرأت عنها ذات يوم عن شخص يدعى **العراف تيريسياس** تشبه قصته كثيراً قصة السيد حليم ..

● ديونيسوس: أنت تعرف جيداً كيف تثير فضولي أيها الموسوعة المتنقلة .. زودني بمعلومات أكثر عن هذه الأسطورة ؟ ..

○ هيكتور : تيريسياس هو أحد أشهر العرافين المكفوفين في الأساطير الإغريقية ، حيث تمت استشارته من قبل عدد كبير من الأبطال و الآلهة المعروفين .. تقول الأسطورة أنه أثناء سير تيريسياس عبر الجبال ذات يوم ، وجد ثعبانين في حالة تزاوج فأراد فصلهما لذا ضرب الأنثى بعصاه فقتلها .. فغضبت منه الآلهة بسبب فعلته و غيرت جنسه إلى أنثى كما حدث مع السيد حليم إذ بموت زوجته لعب دور الأم المفقود في المنزل و عاش تيريسياس هكذا لمدة **8** سنوات ، ثم في أحد الأيام قابل مجدداً ثعبانين آخرين في حالة تزاوج أيضاً لكن هذه المرة كان أكثر حكمة فقام بضرب الذكر وقتله ، فعاد ذكراً مجدداً .. و هذا حال السيد حليم عندما كبرت ابنته فاطيما لتلعب دور الأم المفقود فعاد لدور الأب مجدداً ..

بعد سنوات ، كانت الآلهة زيوس و زوجته هيرا في نزاع حول أي من الجنسين يجب أن يتحمل مسؤوليات أكبر .. فتم اختيار تيريسياس قاضياً لأنه عاش كرجل وامرأة .. في حياته فقرر تيريسياس أن مسؤوليات المرأة يجب أن تكون أكبر مما أثار حفيظة هيرا فعاقبته بأن جعلته أعمى و هذه حال السيد حليم عندما تحملت ابنته الأنثى مسؤوليات البيت جميعها إذ أصابه العمى بالتزامن مع ذلك .. و كتعويض عن ذلك أعطاه زيوس هبة الاستبصار مما جعل تيريسياس أحد أشهر العرافين في الأساطير

الإغريقية .. كحال صديقنا حليم و استبصاره المذهل .. لذا عليك بحق أن تسر سيد ديونيسوس من كلامه ، إذ ينتظرُك بالفعل مستقبل عظيم يعج بتحقيق الأهداف و الأحلام مع مزيدٍ من الثروة التي تستحقها بكل تأكيد ..

ابتسم ديونيسوس بحبورٍ صافٍ، كمن تذوّق لتوّه ثمرة نادرة من شجرة أسطورية لا تنبت إلا مرة في العمر. لقد تشبّعت روحه بطاقة نورانية، لا تشبه شيئاً سوى ذلك الشعور القديم الذي وصفه الحكماء بأنه صفاء الإنسان لحظة إدراكه لمعنى وجوده ..

كان يغلي حماساً، لا من باب المغامرة فقط، بل كأن قلبه صار بوصلة تبحث عن الحكاية التالية، عن الوجه الذي خُلق ليمنحه الفرح. بقيت لؤلؤة واحدة فقط، لؤلؤة أخيرة تنتظره في القارة التي طالما سمع عنها كأغنية حزينة، مطرّزة بالحكمة والبؤس، بالقوة والخذلان، بالجمال الجارح والفرق الكاسح... أفريقيا.. القارة السمرء الغنية بثرواتها و الفقيرة باقتصادها كأغرب مفارقة في التاريخ ..

قالها في نفسه كما لو أنه يتلو تعويذة :

(أفريقيا... القارة التي تهب الذهب وتلبس الطين، تزرع الألباس وتحصد الجوع... كم أنتي ساحرة يا حبيبة الندوب والشموس الدامية.)

كانت وجهته القادمة لا تحتاج إلى خريطة بقدر ما تحتاج إلى قلب، وهو ما امتلكه ديونيسوس بكل جوارحه الآن. أحسّ أن الطوق يوشك أن يكتمل، لا كحلية مرصعة باللالئ، بل كرمز خالد لإنسان استحق أن يُلقب بصانع الكرامة في زمنٍ فقد فيه العالم لونه وبوصلة الرحمة.

فيرة

بيفماليون

الولايات المتحدة الأمريكية ..

نيويورك ..

قسم التحقيقات ..

لم يتأخر الطبيب بنجامين عن تسديد ضربته الرابعة، والتي ربما كانت - كما توقع فرانك - الضربة الأخيرة في سلسلة من العدالة الذهبية، حيث الحقيقة تنبع من الجرح، والموت يكتب العدالة بخط يده.

كان فرانك قد عاد لتوّه إلى مكتبه، يجلس قبالة مساعده نوح العائد لتوّه من إجازته القصيرة، يحدثه بصوت خفيض لكنه مشحون بما يكفي لإشغال غرفة التحقيق. يروي له، بندوب في نبرته، تفاصيل القضية التي اندلعت أثناء غياب نوح: مقتل فيكتور نيفيز وزوجة أبيه تيفاني في أريزونا، بعد عام على الجريمة الأولى، وبذات اليد الخفية التي لا تترك أثراً إلا في قلوب المحققين الحائرين.. ولم تكد كلماته تُتمّ نفسها، حتى انشقّ صوت الهاتف كصفارة قطار تقتحم الظلام. رنة واحدة، ثم أخرى، فأجاب فرانك بنظراته المعهودة التي تخط بين الترقب والبرود، ثم تغيرت ملامحه تدريجياً، كما لو أن خيطاً جديداً في النسيج المتشابك انقطع فجأة. صمت لثوانٍ وهو يستمع، شفتاه لا تتحركان، لكن عضلة فكه ترتجف بخفة لا تراها إلا عين مدربة.

● فرانك : دقائق و أكون عندك ..

التفت إلى نوح بابتسامة فهم معناها على الفور ..

○ نوح : الطبيب بنجامين مجدداً ..!؟

● فرانك : تماماً .. ضحية جديدة مرفقة برسالة أخرى ..

هيا بنا ..

خلال ربع ساعة كان فرانك و نوح في غرفة النوم التي شهدت الجريمة

في منزل كائن في ضواحي نيويورك .. فاقترب منه أحد العناصر ..

○ العنصر : أهلاً سيدي .. الضحية يدعى ..

● فرانك : خافيير غارسيا ..

نظر إليه العنصر بدهشة ..

○ العنصر : بالفعل سيدي .. خافيير غارسيا **46** عاماً .. محامٍ مطلق و ليس لديه أولاد .. هذه المنزل يعود لطليقته **بيلا غارسيا** ، و المدهش أن زوجته السابقة بيلا قتلت منذ **3** أعوام في هذه الغرفة بالضبط و بنفس الطريقة .. عدة ضربات بأداة حادة على الرأس لم نعثر بالفحص الأولي على أي دليل باستثناء الرسالة التي أخبرتك عنها في الهاتف و التي وجدت في جيب قميص الضحية ..

أخرج العنصر الرسالة و ناولها لفرانك الذي شرع بقراءتها بينما استغرق الطبيب سيكويافحص الجثة و المساعد نوح بفحص مسرح الجريمة مجدداً ..

كان نص الرسالة لغزاً على هيئة شعر كسابقاتها ..

لا داء يشبه الغيرة العمياء ..

فهو إن تفشى في العقول

كالسم ذو مفعول ..

و بيغماليون زير النساء

أنهكه الشك بزوجه الحساء

فحطمها بمطرقة من حديد

ليعود اليوم طيفها من جديد

و ينتقم لنفسه بنفس الطريقة

فتظهر الحقيقة

من جنس العمل يكون الجزاء

أطلس العدالة

كان مضمون الرسالة شديد البلاغة، قاتمًا بقدر ما هو ساحر، يحمل طابع الطبيب بنجامين الفريد في نسج العدالة من خيوط الشعر والرموز. لقد كشف القاتل بوضوح... لا عبر اعتراف مباشر، بل عبر استعارة تشتعل تحت الرماد. الغيرة كانت هي الجمر الذي أكل أطراف القصة، و المطرقة ذاتها التي أنهت حياة بيلا عادت لتنتهي حياة خافيير ، كأنما ليكتمل المشهد كما يجب أن يكتمل بفنٍ بالغ، لا فوضى، ولا صراخ.

بينما كان نوح ينهي فحصه الجنائي دون جدوى، وقف فرانك يتأمل جسد خافيير، الذي بدا وكأنه استسلم لنهاية لم يخترها تمامًا. شيء ما في الجثة لم يكن متناسقًا مع رواية الجريمة العشوائية. الوجه لا يحمل سحنة ندم أو ألم، بل كأنّ الحياة خرجت منه بلا مبالاة، كما تخرج شمعة صغيرة أطفأتها يد خفية.

أدرك فرانك حينها أن الطبيب بنجامين لم يكن يراقب من بعيد هذه المرة. لقد اقترب. اقترب حتى كاد أن يلمس الجريمة بنفسه. وكعادته، لم يترك أثرًا واضحًا، بل خيطًا شفافًا معلقًا في الهواء، لا يُمسك باليد، بل يُشَمُّ بالبصيرة.

أعاد فرانك قراءة الرسالة. كل جملة فيها كانت أشبه بإزميل ينحت تمثالًا خفيًا في الفراغ. الاستعارات، الأسطورة، موت الغيرة، وانبعاث الحقيقة من رماد الحب الفاسد... كلها إشارات إلى قصة لم تنتهِ، بل بدأت للتو. هناك شيء ما كان ناقصًا. شيء يتجاوز الطب الشرعي والتحليل الجنائي. شيء ينتمي إلى ماضٍ أعمق.

لقد شعر بأن الطبيب بنجامين لا يطارده المجرمين فقط، بل يسافر في أعماقهم، يبعث فيهم ماضيهم، يُخرجهم من جحورهم النفسية ويجعلهم يواجهون شياطينهم... ثم يقرر مصيرهم، كما لو كان هو وحده من يملك حق الحساب.

كان هذا هو المشهد الأخير في جريمة خافيير، لكنه ليس الأخير في ملحمة الطبيب بنجامين.

مرر الرسالة الى مساعده نوح ليقرأها بدهشة .. أما الطبيب سيكويأ فقد اقترب منه و همس له ..

○ سيكويأ : زمن الوفاة المقدر منذ 6 ساعات ، سبب الوفاة عدة ضربات بآلة حادة تشبه المطرقة على الرأس .. لا آثار لعنف أو اعتداء .. و كالعادة سأكمل التشريح في المشفى و أوافيك بالتقرير المفصل بعدها ..
● فرانك : جزيل الشكر لجهودك المميزة حضرة الطبيب ..

فحص فرانك بدوره مسرح الجريمة دون فائدة ترجى ثم قفل عائداً صحبة مساعده نوح إلى مكتب التحقيقات .. و ما أن دخل مكتبه حتى طالب بإعداد تقريرين مفصلين عن كلٍّ من الضحية خافيير و عن المدعو بيغماليون في الرسالة ..

○ نوح بدهشة : كيف عرفت اسم الضحية سيدي ؟..

● فرانك : لقد توقعت أن تكون الضربة التالية للطبيب بنجامين تتعلق بالملف الرابع و الأخير من القضايا الأربعة التي لم تحل بعد منذ استلمت مهامى هنا ، فأعدت قراءة الملف و كان يتحدث عن مقتل سيدة تدعى بيلا غوميز ، و عرفت أن زوجها يدعى خافيير غوميز .. لذا عندما وصلنا إلى منزلها تذكرته على الفور و توقعت أن يكون الزوج هو القاتل ..

○ نوح : مذهل كعادتك سيدي .. أعتقد أن بيغماليون المذكور في الرسالة هو أسطورة إغريقية جديدة ..

● فرانك : هذا ما أتوقعه بدوري .. على كل حال سنعرف ذلك خلال

دقائق ..

بالفعل بعد حوالي الساعة وصل التقرير الأول الذي يشرح مصطلح بيغماليون و كان بالفعل أسطورة إغريقية كعادة الطبيب بنجامين.. فشرع فرانك يقرأه بصوت مرتفع ..

((أسطورة بيغماليون، ذلك النحات الإغريقي الذي وهب الحجر حياة بأصابعه الساحرة، تحمل بين طياتها قصة حب مأساوية تنسجها أقدارٌ قاسية ومشاعرٌ متضاربة.

كان بيغماليون فناناً بديعاً، موهوباً لدرجة أن كل قطعة منحوتة خرجت من يديه كانت تحفة فنية لا تشبه شيئاً في العالم. لكنه كان يعيش بعزلة قلبية، فقد ملّ النساء بسبب احتكاكه الدائم بعاهرات مدينته، فسوّق في عقله أن النساء جميعاً لا وفاء لهن، مجرد ظلال عابرة تتبدل بلمسة المال. رفض أن يعيش في هذا العالم المشوش، وقرر أن يصنع نسخته المثالية من المرأة، تلك التي تحلم بها روحه المتعطشة للنقاء.

بإزميله وعاجه الأبيض، نحت التمثال الذي سماه **جالاتيا** ، صورة المرأة التي يتمنى أن ترافقه، بلا عيوب، بلا خيانات، بلا أوجه مظلمة. وقف طويلاً أمامها، ينبهر بها كأنها أعظم سحر في الكون، وكلما ازدادت خضوعاً لإبداعه، ازداد تعلقه بها، حتى تحول الإعجاب إلى عشقٍ جنوني.

جعلها محور حياته، يكسوها ثياباً فاخرةً، يُغدق عليها الأزهار، يتحدث إليها، يهمس بأسرارهِ، وتغمره دموعه في وحدته معها. كأنها الهواء الذي يتنفسه والنبض الذي يحرك قلبه، فتمنى أكثر من مرة أن تتحول جالاتيا إلى امرأة حقيقية، تحمل نفس المشاعر والدفء.

كانت دعواته تستمعها الآلهة. و في يوم عيد **إفروديت**، رمى قربانه في النار المقدسة، فارتفعت السنة الذهب ثلاث مرات، علامة من السماء بأن أمنيته مقبولة. وفي تلك الليلة، حين عاد إلى منزله، لمس التمثال وشعر به ينبض دفناً. نفخت **إفروديت** الحياة في جالاتيا، فأصبحت امرأة حقيقية، ذات لحم ودم.

تزوج بيغماليون من جالاتيا، وأنجبا معاً طفلاً سماه **بافوس**، الذي صارت

مدينته في قبرص تُخلد ذكراه.

لكن رغم كل هذا الحب، لم تهدأ شكوك بيغماليون القديمة. كان يسكنه شك عميق تجاه النساء، وظل يراقب جالاتيا، متخوفاً من أن تخونه بجمالها الساحر. غار بشدة حتى انهار، وتمنى لو تعود إلى التمثال الذي صنعه، فارضة عليه الصمت والحضور الخالد بلا خيانات.

استجابت الآلهة له، فعادت جالاتيا هيئة التمثال، لكنه لم يلبث أن شعر بفراغ قاتل ينهش قلبه. وبالرغم من ذلك، استعاد شوقه الذي أنهك داخله. توسل إلى الآلهة أن تعيد الحياة إليها مرة أخرى، لكن القدر رفض، مؤكداً أن الفرص لا تُعطى مرتين.

في النهاية، تمزق بيغماليون بين الشوق والخذلان، وبين الحقيقة والأوهام. أخذ مطرقته، وحطم تمثاله إلى شظايا صغيرة، آملاً أن يريح نفسه من العذاب الذي سببته له تلك المرأة التي صنعها بيده، وأحبها حتى الجنون، لكنه لم يتمكن من التعايش مع قيود الشك والغدر الذي كان يراوده.

وهكذا تظل أسطورة بيغماليون شاهدة على الألم العميق في قلوب العاشقين الذين يبحثون عن الكمال في عالم ناقص، وحكاية عن الحب الذي لا ينمو إلا حين يُزهر في أرض الثقة، لا في صحارى الخوف والشك ((

نظر فرانك إلى نوح و ابتسما .. إنّ القصة مطابقة تماماً لجريمة قتل بيلا غوميز و تشير بحسب رسالة الطبيب بنجامين إلى أن زوجها المحامي خافيير هو من قتلها بمطرقته بدافع الغيرة ..

○ نوح بدهشة : أتحرق شوقاً لقراءة التقرير الآخر الخاص بالمحامي خافيير فلا بد أنه يشرح التشابه بين القضية و الأسطورة بشكل أدق ..

● فرانك : و أنا كذلك ، لا بد أنه سيفسر كل شيء ..

مضت ساعتان إضافيتان من الوقت ، تناقش فيها فرانك و نوح حيثيات الجريمة الجديدة و إبداع الطبيب بنجامين في تنفيذ انتقامه .. أخيراً وصل التقرير الثاني فقرأه فرانك بصوتٍ عالٍ مجدداً ..

((الضحية خافيير غوميز 46 عاماً ، محامٍ مطلق .. ليس لديه أولاد ..

والمدهش أن زوجته السابقة بيلا غارسيا قد قتلت منذ **3** أعوام في نفس الغرفة التي قتل فيها بالضبط و هي غرفة نومها و بنفس الطريقة .. عدة ضربات بأداة حادة على الرأس .. باستجواب جيرانه و أصدقائه أكدوا جميعاً على نقطتين هامتين .. **النقطة الأولى** أن خافيير كان زير نساء ككزانوفا حقيقي ذو علاقات غرامية متعددة قبل زواجه و بعده مما سبب خلافات عديدة بينه و بين زوجته بيلا أسفرت عن طلاقهما .. بعد فترة شعر بالحنين إليها فطلب يدها للزواج مجدداً لكنها رفضت ذلك بشكل حاسم فترك المنزل لزوجته و انتقل للعيش في منزل آخر ، أما **النقطة الثانية** فتشير إلى أنه اعتاد الغيرة على زوجته بطريقة جنونية بسبب جمالها الساحر مما كان يدفعه للشك دوماً بأنها تخونه مع غيره ، و هذا ما يدعى في الطب النفسي **الإسقاط** .. فخياناته المستمرة و عدم وفائه لها أسقطه عليها و اتهمها بما يفعله هو ..

فيما يخص جريمة قتل زوجته ، فإن خافيير كان المتهم الأول في الجريمة بسبب خلافاته الدائمة معها و غيرته المرضية عليها .. لكن بسبب عدم توفر أدلة كافية تدينه و بسبب براعته كمحام في الدفاع عن نفسه و إثبات براءته مركزاً على فكرة أنهما تطلقا و لم تعد تعني له شيئاً فلماذا سيقدم على قتلها ؟ لم تتمكن الشرطة من إثبات التهمة عليه و إلقاء القبض عليه أيضاً .. ثم تحولت القضية بعد أشهر إلى قضية باردة ..

بالنسبة للمشتبه بهم في جريمة قتله فالدائرة واسعة إذ أن له أعداء كثر بحكم عمله كمحام ، و ليس هنالك مشتبه به محدد فوق العادة كي نتابع التحقيق منه ، و يبقى السؤال الأهم كيف وصل خافيير إلى غرفة النوم في منزل طليقته الذي بقي بلا سكن طوال السنوات الثلاثة الماضية بعد مقتلها ؟ ((

ذهل المحقق فرانك ومساعدته نوح بشدة من التشابه المحكم بين مأساة خافيير وبيلا وقصة أسطورة بيغماليون وتمثاله الحي جالاتيا. فقد تجلى في حياة خافيير تماماً ما عاشه بيغماليون : رجلٌ غارقٌ في غيرة مدمرة وكراهية النساء، لكنه وقع في حب امرأة فائقة الجمال كجالاتيا، فاختارها زوجة له رغم عذابه النفسي.

كما في الأسطورة، فإن الغيرة العمياء والخوف من خسارتها قادا خافيير إلى الانفصال عنها، ثم إلى قتلها بمطرقة ، ذات الأداة والطريقة نفسها التي صنعها بيغماليون في الأسطورة، كرمز لعذاب الرجل الذي لا يحتمل الحياة من دون حبيبته أو أن تذهب إلى غيره.

وكما طلب بيغماليون من الآلهة أن تعيد زوجته إلى تمثال صامت بارد، طلق خافيير زوجته بيلا ، و كما ابتهل بيجماليون للسماء أن تبعث الحياة في التمثال مجددا فامتنعت ، طلب خافيير الزواج من بيلا مرة أخرى، لكن رفضها المستمر كان بمثابة موت روحي له، فكرر مأساة بيغماليون عندما قضى عليها بالمطرقة.

وفي تطور مأساوي، عاد الطبيب بنجامين ليُنقذ حكم العدالة بنفس الأداة، في ذات الغرفة، مصداقاً لقول الأسطورة : سقوط مطرقة العدالة التي تقضي على الجاني حتماً.

هكذا، تكررت الحلقة القاتلة بين الأسطورة والحقيقة، حيث لا مهرب من عقاب القدر وقانون العدالة مهما حاول المرء التملص من ظلال ماضيه المظلم.

○ نوح بدهشة : مذهل بحق .. أي دماغ عبقرى يملكه الطبيب بنجامين بحق السماء !!

● فرانك : بالفعل .. و هكذا تكون القضايا الأربعة التي حيرتنا قد حلت جميعها خلال فترة قصيرة ، و ليس ذلك فحسب بل لقي الجناة جزاءهم مباشرةً دو الحاجة للمحاكمة أو إمكانية الإفلات من العقاب بمراوغات محامي الشيطان كالعادة ..

○ نوح : و هل سيتوقف الطبيب بنجامين عند هذا الحد برأيك .. أم سيستمر بانتقامه لاحقاً في جرائم جديدة قد لا تحل ..؟

● فرانك : هذا هو السؤال يا نوح .. هذا هو السؤال .. و لا أملك أي إجابة عليه !! .. أما الآن فأمامي عمل شاق بإبلاغ الرئيس ويلتون بالجريمة الجديدة .. لابد أنه سيجن منها و يفرغ جام غضبه علينا و يتهمنا بالتقصير ..

○ نوح مبتسماً : إننا نضعك في وجه المدفع لتتلقى اللوم عنا جميعاً سيدي

● فرانك مبتسماً بدوره : أنا كبير المحققين هنا و من واجبي أن أتحمّل جميع العواقب و اللوم نيابة عنكم .. لكن ذلك لا يعنيني بشيء و لا أكرث له أبداً ، فجلّ ما أتمناه أن يظهر الطبيب بنجامين أخيراً و نلقاه مجدداً ..

○ نوح : أنت محق ، إننا نفتقده جميعاً و نفتقد لمساته الساحرة على مسرح الجرائم لكشف الجاني من نظرة واحدة .. إنه طبيب لا مثيل له و لن يتكرر في هذا السلك ..

طَفْلٌ يَتَضَرَّعُ

بَيْنَ نَسْرِ وَ مَصْرٍ

((أَوْبِنْتُ))

الولايات المتحدة الأمريكية ..

كاليفورنيا / لوس أنجلوس ..

الساعة 9 صباحاً ..

جلس ديونيسوس على مقعده الفخم في غرفة السينما الخاصة بالدور السفلي من فيلته، حيث كان الجو معتماً ودافئاً، مصحوباً برائحة خشب الأرز وقليل من عبق القهوة المصفاة. بجانبه جلس هيكتور، صديق عمره ورفيق دربه، يتابعان معاً تقرير المهندس ستيف المفصل عن سير العمل في الأرخيل.

كانت شاشة العرض تعرض مشاهد تنساب بسلاسة، حيث أطل المهندس ستيف بصوته الواثق، يشرح كيف تُنقل كميات هائلة من التراب الخصيب إلى ست جزر، لزرعها بأشجار وارفة تحمل ثماراً نابضة بالحياة. أشار إلى الفيلات الكبرى، التي بلغ نصفها مرحلة الإنجاز، مبشراً بمستقبل مشرق يتشكل بين مياه المحيط الصافية.

أما في الجزيرة الرئيسية، فقد بدأ العمال في بناء محطة كهرباء متطورة، ومول تجاري ينبض بالحياة، وعيادة طبية متكاملة، إلى جانب برج اتصالات شامخ، ومحطة وقود صغيرة تخدم المراكب العابرة.

راقب ديونيسوس العرض بابتسامة رضا عريضة تعكس نجاح جهوده، حتى قاطع هدوء اللحظة رنين هاتفه الخلوي. اعتذر بلباقة من المهندس، وفتح الرسالة التي وصلت إليه. ومع كل كلمة يقرأها، تغيرت ملامح وجهه من السعادة إلى الانزعاج، حتى رمى الهاتف على الطاولة أمامه بعصبية واضحة، طالباً من ستيف مواصلة شرح تفاصيل العمل.

مرّت ساعة أخرى، وانتهى التقرير على وقع الرضا التام لدى ديونيسوس عن التقدم المحرز، شكر المهندس على جهوده الجبارة، ثم خرج صحبة هيكتور إلى ملاذهما الهادئ تحت ظلال شجرة الصفصاف الوارفة في

الحديقة، حيث الهواء نقي والهمس بين الأوراق ينقل لهما راحة النفس وسط فوضى الحياة.

○ هيكتور : هل أنت راضٍ بني عما أنجز حتى اللحظة ؟

● ديونيسوس: كل الرضا ، فسرعة العمل قياسية .. كما أنّ نوعية العمل متقنة أيضاً .. و بحسب تقديرات ستيف سينتهي العمل خلال شهرين كحد أقصى .. إنّ الحلم بات على عتبة الباب يا هيكتور ..

○ هيكتور : و ما سر الرسالة التي تلقيتها .. لقد انقلب مزاجك تماماً بعد قراءتها .. هل هي رسالة عمل ؟

● ديونيسوس: لا .. إنها من صديقتي سيلينا .. و يبدو أن علاقتنا على وشك الانتهاء يا هيكتور .. فقد بدأت أرى الوجه الحقيقي لها الذي تخفيه عني خلف قناع من الطيبة و اللطافة .. فمشروعي الإنساني على أرخبيل المرشدين أسقط القناع عنها و عراها ..

○ هيكتور : هل أستطيع قول رأيي بصراحة بني دون أن أزعجك ؟

● ديونيسوس: بالطبع هيكتور .. فأنت لست مساعدتي و مستشاري فحسب ، بل صديقي و بمقام والدي أيضاً ..

○ هيكتور : لا أخفيك سراً بني أنني لا أستلطفها بدوري .. فهي رغم جمالها الساحر شخصية سطحية إلى أبعد الحدود .. و يراودني دوماً شعور بأنّ علاقتها بك قائمة على المصلحة و الاستغلال .. فهي كما أراها تحبّ ثروتك أكثر مما تحبك ..

● ديونيسوس : أنت محق تماماً يا هيكتور .. فمنذ أخبرتها بقصة الأرخبيل و مساعدة المحتاجين و هي ممتعة و منزعة و تقول باستمرار بأنني أمر بحالة نفسية متوترة بعد حادث باريس تؤثر على قراراتي .. أما اليوم فقد أرسلت لي رسالة تقول فيها بأنني أبدو ثروتي على أناس لا يستحقونها فهم يستحقون الحياة التي يعيشونها بدليل أنّ الله هو من يفرضها عليهم لأنها تناسبهم تبعاً لأفعالهم و قراراتهم .. كما اهتممتي بأنني أفضلهم عليها .. و بتّ أقضي أغلب وقتي في التفكير بهم

لدرجة نسيت التفكير و الاهتمام بها .. إضافة إلى تحذيري بأنني إن تابعت على هذا النهج سأفلس تماماً ..

لكن أنت و أنا نعرف بعد لقائنا بهؤلاء المحتاجين يا هيكتور أنهم أناس بسيطون ، طيبون و معجونون بالإنسانية و بأن ما ابتلاههم الله به لا يعدو كونه اختبار لصبرهم و إيمانهم و من حقهم أن يساعدهم المكتفون مادياً كأمثالي لإسعادهم و منحهم حياة كريمة تليق بأخلاقهم و تعبهم و صبرهم

○ هيكتور : بالطبع هم كذلك .. ألم تحاول أن تشرح لسيلىنا وجهة نظرك هذه بأن تروي لها تفاصيل رحلتنا المثيرة ؟

● ديونيسوس: رويت لها التفاصيل مراراً و تكراراً .. لكن كما قلت أنت منذ قليل فهي شخصية سطحية بلا ضمير أو مشاعر إنسانية و تفضل الاستئثار بالمال لأنفسنا عوضاً عن مساعدة المحرومين به .. إنها للأسف تذكرني بنفسى قبل حادثة باريس .. و لا بد أنها بحاجة لحادثة من نفس العيار كي تصحو من أوهامها و تشعر بإخوانها البشر في قاع المجتمع .. لذا أظن أن إنهاء علاقتي بها سيكون بمثابة الصفحة التي ستوقظها كما أمل

○ هيكتور : ربما كان هذا العلاج الوحيد لحالتها .. على كل حال دعك من كلامها السطحي و المزعج فأنت الآن تعيش الحياة بحق كما قال الأيقونة نيلسون مانديلا :

((لا تقيم الحياة بعدد السنين التي عشناها أو بالرفاهية التي

اختبرناها ، بل بمقدار التغيير الإيجابي الذي أحدثناه في حياة

الآخرين))

إذ أنك بمشروعك الجديد تغير جذرياً حياة عدة أشخاص محتاجين في هذا العالم و تصنع من نفسك مثلاً يحتذى لغيرك من الأثرياء ..

● ديونيسوس : إذا فأنت تشجعني على الانفصال عنها ..؟

○ هيكتور : بلا شك بني .. أنت تحتاج و تستحق أنثى تشاطرك طريقة التفكير و نوعية المشاعر نفسها كي تسلكا درب الحياة سوياً و تحققان

أهدافكما المشتركة متعاونين ، زوجة وفية تنتظرك بلهفة حتى تنهي مغامراتك الحالية المذهلة لتكحل مقلتها بروئيتك لا لتستحوذ على أموالك ، زوجة من أمثال بينيلوبي التي ذكرتها أوديسة هوميروس .. زوجة الأسطورة الإغريقية أوديسيوس الوفية التي ظلت ترفض الخاطبين الذين تقدموا لها طوال غيبته في رحلاته الطويلة رغم شكها بأن يعود حياً و وضع عنوستها على المحك قرباناً لعشقها له حتى عاد إليها في النهاية منتصراً ..

● ديونيسوس : و كم هي سيلينا بعيدة عن هذه الصورة المثالية للحبيبة و الزوجة .. !!

○ هيكتور : كل البعد .. إن سيلينا لا تناسبك البتة فهي في نظري أقرب إلى الأسطورة الإغريقية (هاربي) ، تلك الوحوش المجنحة الخبيثة نصفها امرأة والنصف الآخر طائر متوحش .. ذات السمعة السيئة بسبب شرها و طمعها و أنانيتها و رائحتها البغيضة .. تماماً كحب سيلينا للمال و نظرتها المشوهة و الخاطئة لتقسيم الله للبشر بين أغنياء و فقراء ..

صمت هيكتور للحظات ثم أردف بكلمات ذهبية ..

○ هيكتور : من وجهة نظري المتواضعة بني فتقسيم الإله للبشر بين ثري و فقير يشبه تماماً إنجاب الأب لعدة أبناء .. فمن واجب الأب البديهي عندها إنفاق ماله عليهم و إطعامهم و تعليمهم .. فلا يمكنه ببساطة أن يعتبر ذلك ليس بواجب عليه فيتهرب منه كما فعل والد الطفل البرازيلي الموهوب تياغو الذي التقيناه منذ أسابيع ، عندما هجر الوالد عائلته و مسؤولياته ليعيش حياته على هواه مع راقصة تعري لا تختلف عن صديقتك سيلينا بتفكيرها .. كذلك الأمر فالأغنياء هم الأب الروحي للفقراء و من واجبهم الإنفاق عليهم مما رزقهم الله و هذا واجب و ليس منة ، لذا فرض الله الزكاة في جميع أديانه السماوية و أكد على ضرورة مساعدة المقتدر للأقل حظاً منه .. و هنالك مثل إفريقي يلخص وجهة نظري بدقة يقول :

((أب واحد يمكنه إطعام سبعة أطفال ، ولكن لا يمكن لسبعة

أطفال إطعام أب واحد))

و ذلك لأن الأب بماله مقتدر على فعل ذلك أما الأطفال بعوزهم عاجزون رغم كثرتهم عن فعله .. لذا فالواجب مفروض على الأب تجاه أطفاله و ليس العكس .. هذه هي المعادلة الصحيحة ، أي أن واجب الأغنياء مساعدة الفقراء لا أن يستعبدوهم و يجعلوهم في خدمتهم من منطلق أن الله ميزهم عليهم بمنحهم المال و فضلهم عليهم لأنهم أرفع شأنًا منهم كما تعتقد تلك الفتاة النرجسية سيلينا التي لا تختلف أبداً عن أسطورة نرسييس أو نرجس الإغريقية ..

● ديونيسوس : نرسييس ؟

○ هيكتور : أجل نرسييس الذي كان معجباً بجماله الساحر و بنفسه حد الغرور عاشقاً لانعكاس صورته في ماء البحيرة لدرجة بات لا يرى الناس من حوله و لا يتعاطف مع أحدٍ منهم ..

لذا اشتق اسم اضطراب الشخصية النرجسية من أسطوريته و من نبات النرجس الذي يقوم بقتل جميع النباتات من حوله كي ينفرد بالمواد الغذائية لنفسه ، تماماً كحال سيلينا بجمالها الساحر الذي جعلها مغرورة بنفسها لدرجة العمى ولا ترى أحداً سواها في العالم ، كما تعمل جاهدة لاحتكار المال لنفسها و حرمان الأقل حظاً حولها منه كي تعيش حياة البذخ بمفردها على حساب بؤسهم و شقائهم..

● ديونيسوس : تشبيه بليغ و مذهل يا هيكتور...!! إنها بالفعل كنبئة النرجس الأنانية .. علاقة سامة في حياتي لا أكثر ..

○ هيكتور : بالضبط .. و يتوجب عليها التواضع كثيراً كي تتمكن من رؤية الآخرين من الناس في قاع المجتمع و الإحساس بمعاناتهم كي تعترف بخطأ فلسفتها في الحياة و تفهم عمق تفكيرك و نبيل مساعيك بني .. كما تقول حكمة إفريقية أخرى ..

((يتم تصحيح نصف الخطأ عند الاعتراف به))

لكنّ عنادها عن الاعتراف بخطئها كما ذكرت منذ قليل يجعلها بحاجة

لصفعة قوية تحررها منه كما أشرت بنفسك ..

● ديونيسوس : لقد حسمت الموضوع لي يا هيكتور بشكل قاطع ،
سأنفصل عنها كلياً ، علّ ذلك يكون بمثابة الصفعة التي ستوقظها من
الأوهام التي تعيشها ..

○ هيكتور عين الصواب ، وبذلك تتمكن من التركيز على حلمك الجديد
الكبير في أرخبيلك .. تابع الماضي قدماً نحو تحقيق أحلامك بني و لا
تكثرث لنفاهات و ترهات سيلينا بعد الآن و تذكر أن الأحلام لا تتحقق إلا
بالإصرار كما صرّح نابليون بونابرت ذات يوم عندما قيل له أن **جبال**
الألب تمنع جيشه من التقدم ، فأجاب ببرود و بساطة :

((إذا علينا أن نمحوها عن وجه الأرض))

فالجبال نفسها لم تمنعه من تحقيق حلمه فما بالك بحصاة صغيرة كصديقتك
سيلينا التي ستفهم ذات يوم عظمة أفعالك و تندم على كلامها أشد الندم ،
صدّقني ..

● ديونيسوس بإعجاب : فلسفتك مميزة أيها الموسوعة المتنقلة و تصيب
قلب الهدف تماماً كعادتك .. أتفق معك في كل كلمة قلتها .. و بمناسبة
حديثك عن إفريقيا دعنا الآن من هذه الحصاة الحسناء سيلينا مع سطحية
عقلها و ضحالة وعيها و نرجسية تفكيرها و أفعالها ، و دعنا نفكر باللائ
القيمة في الحياة بأن نخطط لوجهتنا الأخيرة في مغامراتنا و نتجاوز جبال
القارة السمراء (إفريقيا) لتحديد الدولة الهدف فيها ..

○ هيكتور : أخشى أنه خيار صعب للغاية فالقارة بأكملها ترزح تحت
قسوة الفقر و الحرمان فيمكن لأي دولة فيها أن تكون هدفاً مثالياً لخطتك

● ديونيسوس : إذا فلنبحث عن الدولة الأكثر فقراً فيها و نختار منها
مدينتنا القادمة ..

○ هيكتور : إنه الخيار الأمثل ..

● ديونيسوس : لنرى ما ذكر في محركات البحث على هاتفي عن ذلك ..

بحث ديونيسوس لدقائق فكانت نتيجة البحث على الشكل التالي :
((إفريقيا تمثل مفارقة عالمية عجيبة فهي من أغنى قارات العالم إذ تملك :

= **65** % من الأراضي الزراعية في العالم ..

= **30** % من احتياطي المعادن في العالم بما فيها المعادن النادرة
كالبلاتين و الكروميوم و الكوبالت و التنتالوم ..

= **12** % من احتياطي البترول في العالم ..

= **8** % من احتياطي الغاز في العالم ..

= هي المنتج الأكبر للذهب و الألماس في العالم ..

= هي المنتج الأكبر لليورانيوم في العالم ..

و مع ذلك فهي القارة الأفقر في العالم !!!

أمّا الدولة الأكثر فقراً فيها تبعاً لما ذكر هي **بوروندي** الواقعة في قلب
منطقة البحيرات الكبرى وسط إفريقيا، وهي بلد صغير غير ساحلي مكتظ
بالسكان الذين عانوا ويلات ما يقرب من **12** عاماً من الحرب الأهلية بين
عرقي الهوتو و التوتسي بين عامي **1993** و **2006** و بسبب هذا
النزاع إضافة إلى قلة الموارد فإن الغالبية العظمى من السكان يرزحون
تحت وطأة فقر شديد .. كما أن أكثر عرق متضرر فيها هو عرق **توا** و
هم السكان الأصليون للبلاد الذين يشكلون أقل من **1** % من السكان و قد
طحنوا في الحرب الدائرة بين العرقين الآخرين الهوتو الذين يشكلون **85**
% من السكان و التوتسي الذين يشكلون **15** % منهم ..

كانت بوروندي في البدء مملكة ثم استعمرتها **بلجيكا** قبل أن تستقل عنها
عام **1962** لتصبح جمهورية من عام **1966** .. هذه الجمهورية تعاني
من اقتصاد ضعيف و فساد مستشري مع سوء التعليم مما يجعلها من أكثر
دول العالم فقراً و تخلفاً ..

بخصوص عرق توا فهو يعيش في منطقة **بيغمي** و يقتاتون على الصيد
عكس الهوتو و التوتسي الذين يمتنون الزراعة ..))

○ هيكتور : خيار موفق للغاية بني .. هذه الحرب الأهلية مشهورة جداً
على مستوى العالم .. لذا لا شك أن أفضل مكان في إفريقيا لانتقاء لؤلؤتك
الأخيرة هو هذه البلاد الفقيرة ..

● ديونيسوس : إذاً قم بترتيبات الحجز للغد في أحد فنادق العاصمة **جيتيغا**
مع الاتفاق مع مترجم خبير باللغة السواحلية ليرافقنا في رحلتنا ..
○ هيكتور : على الفور ..

بوروندي / جيتيغا ..

الطريق إلى منطقة بيغمي ..

الساعة 10 صباحاً ..

انطلقت السيارة التي استأجرها هيكتور تبتلع الطرقات الترابية المتعرجة
التي تخترق الريف الإفريقي باتجاه **منطقة بيغمي**، حيث يقود هيكتور
بثبات، وجواره يجلس ديونيسوس، وعلى المقعد الخلفي يتماهى المترجم
صاموئيل بدقة مع كل حركة ومشهد يمر بهم. كانت الساعات تمر في
هدوء، والرياح تنساب عبر نوافذ السيارة، تحمل معها رائحة التراب
المحترق و أسرار السافانا الغامضة.

بعد رحلة طويلة عبر التضاريس المتنوعة، وصلوا أخيراً إلى قبيلة
بيكينغا، الرابضة بدعة على تخوم بحيرة **كيفو** الواسعة، تلك البحيرة
العظيمة التي تلامس حدود عدة دول إفريقية. تحيط بالقبيلة أكواخ
متواضعة مبنية من الطين والقش، تبدو وكأنها تنبض بسحر الزمن القديم،
وسط أجواء يعمها صمت الطبيعة مع تردد همسات الحياة اليومية.

خرج الثلاثة من السيارة، وتقدموا بين الأزقة الضيقة التي تصطف عل

ى جانبها بيوت القبيلة الصغيرة، مدهوشين بوجهات النظر والابتسامات الودية التي يرتسمها سكان القبيلة، رغم بؤس المكان وضيق سبل العيش التي تفرضها عليهم الأرض الصلبة والظروف القاسية.

وقف ديونيسوس بجانب صاموئيل، وطلب منه أن يستفسر بلطف عن زعيم القبيلة. لم يمض وقت طويل حتى أخبرهم أحد القرويين أن الزعيم يدعى نديزي، وأشار إلى كوخه المتواضع الذي يطل على قلب القرية. توجه الثلاثة نحو الكوخ، حيث وجدوا نديزي جالساً بهدوء أمام مدخله، عيناه تنظران بعميق الحكمة إلى القادم الجديد.

حيا ديونيسوس الزعيم باحترام صادق ، وبدأ على الفور حواراً مترجماً عبر صاموئيل، محاولة اختراق جدار الصمت والتعرف على حكمة هذه الأرض وتاريخ أهلها، في لقاء يبدو بداية رحلة تتكشف فيها أسرار بيغمي و روحها الحقيقية.

● ديونيسوس : مرحباً حضرة الزعيم نديزي ..

○ نديزي : أهلاً بك .. من أنتم أيها السادة ؟

● ديونيسوس : أنا الملياردير الأمريكي دينيسوس غلانيس و هذا مساعدي هيكتور و من يقوم بالترجمة هو صاموئيل ..

○ نديزي : تشرفت بمعرفتكم .. كيف يمكنني خدمتكم ؟

● ديونيسوس : أنا أرغب في مساعدة قبيلتكم مادياً لأنني كما قرأت عنكم (عرق توا) تعانيون من فقر شديد و حرمان و حاجة ..

○ نديزي : أشكرك على هذه اللفتة الإنسانية و النبيلة .. بالفعل الوضع المادي صعب للغاية في قبيلتنا إذ نعاني من قلة الموارد الغذائية خاصة بعد أن قامت الحكومة بقطع مساحات واسعة من الغابات التي اعتدنا على الصيد فيها لتأمين قوتنا اليومي مما تسبب بهجرة جماعية للحيوانات إلى غابات بعيدة ..

● ديونيسوس : هذه مأساة حقيقية ..

○ نديزي : نسبياً سيدي ديونيسوس .. أرى من أسمك أنك ذو أصول يونانية!؟

● ديونيسوس : بالفعل ..

○ نديزي : اليونان بلاد الفلاسفة .. و هناك قولان سمعت بهما لفلاسفة الإغريق يفرضان عليّ أن أرى واقعنا بطريقة مختلفة سيد ديونيسوس .. و هما قول سقراط :

((الحياة من دون ابتلاء لا تستحق العيش))

و قول أفلاطون :

((الحياة أمل ، و من فقد الأمل فقد الحياة))

فالابتلاء و الأمل هما مصدرا الطاقة التي تجعلنا نمضي قدماً دون استسلام سيدي رغم صعوبات الحياة ..

● ديونيسوس مبتسماً : صدقت حضرة الزعيم .. أرى أن ثقافتك واسعة .. و هذا يقودني إلى السؤال عن الوضع التعليمي في القبيلة؟..

○ نديزي : كانت هنالك مدرسة مصغرة هنا تبرع بعض المدرسون من العاصمة على العمل فيها مجاناً لتعليم أطفالنا و قد استفدت شخصياً كثيراً من النقاش معهم ، لكن مع صعوبة المعيشة هنا اضطروا مجبرين إلى العودة إلى العاصمة .. مما خلق معضلة تعليمية حقيقة أيضاً ..

● ديونيسوس : و بسبب ذلك كله أريد أن أقدم عرضاً خاصاً لكم قد ينقذ بعضاً من أفراد قبيلتكم من هذا الواقع المؤلم ..

○ نديزي : بعض أفراد القبيلة!؟

● ديونيسوس : أجل .. لقد اشتريت مؤخراً أرخبيل جزر في المحيط الأطلسي و جهزته للعيش الكريم .. و أقوم حالياً بجولة على قارات العالم لانتقاء أشخاص معينين من كل قارة منها للانتقال للعيش على الأرخبيل .. قارة إفريقيا هي وجهتي الأخيرة و قررت أن أنتقي بضعة أشخاص من

عرق توا في بوروندي للعيش هناك بسبب معاناتهم الكبيرة و كفاحهم العظيم لذا أريد منك مساعدتي في انتقاء الأفراد الأكثر فقراً و حاجة منهم .. فأأي أفراد قبيلتك ترشح لي لاختيارهم ؟

○ نديزي متجهماً : أخشى أنه لا يمكنني مساعدتك في ذلك سيد ديونيسوس و ذلك لسببين ..

● ديونيسوس مندهشاً : و ما هما ؟..

○ نديزي : أولاً لأنه لا يوجد في قبيلتي أفراد أكثر فقراً و حاجة من غيرهم ، إذ أننا نوزع مواردنا بالتساوي على الجميع و نتعاون معاً على تأمين هذه الموارد ..

● ديونيسوس : و السبب الثاني ؟! ..

○ نديزي : السبب الثاني و هو الأهم لأننا نتبع فلسفة أوبنتو الإفريقية ..

● ديونيسوس : أوبنتو ؟! ..

○ نديزي : أجل هي فلسفة تقوم على مبدأ :

(أنا أكون لأننا نكون)

أي أن تعم الفائدة على الجميع و لا يحتكرها شخص بمفرده لنفسه .. و هي تفسر الكثير من أسرار السعادة في الحياة ..

صمت نديزي للحظات ثم أردف ..

○ نديزي : منذ سنين طويلة زار أحد علماء الاجتماع الغربيين قبيلة كسوزا الإفريقية و قرر إجراء تجربة على أطفالها بعرض لعبة عليهم من خلال وضع سلة من الفواكه اللذيذة قرب جذع شجرة و أخبرهم أن أول من يصل منهم إلى الشجرة يفوز بالسلة كلها .. لكنه عندما أعطاهم إشارة البدء تفاجأ بهم يسيرون سوياً ممسكين بأيدي بعضهم البعض حتى بلغوا الشجرة وتقاسموا الفواكه من السلة .. عندما سألهم لماذا فعلوا ذلك في حين كان بإمكان أحدهم الفوز بالسلة بأكملها لنفسه، أجابوه بتعجب : أوبونتو !!

.. أي كيف يستطيع أحدنا أن يكون سعيداً فيما الباقون تعساء !!؟؟ و هذا سر هام من أسرار الحياة التي تجهلها المجتمعات التي تدعو نفسها متحضرة و متطورة، في حين اكتشفته قبائل إفريقية بسيطة الحال ..

و نحن بدورنا في قبيلتي نتبع هذه الفلسفة و لا يرضى أي فرد منا أن يستأثر بالسلة لنفسه فيترك البقية تعساء .. لذاؤكد لك أن ما من أحد سيرضى الانتقال إلى أرخبيلك سيد ديونيسوس ليعيش حياة هائلة و كريمة تاركاً بقية أفراد قبيلته خلفه يتجرعون مرارة البؤس و الحرمان .. و أنصحك ألا تقدم عرضك السخي هذا على أي إفريقي لأن جوابه عليه ببساطة سيكون أوبنتو .. إنك تبحث عن الشخص الخطأ في هذه القارة الفقيرة .. ربما نحن أغنياء بثرواتنا فقراء باقتصادنا لكننا أثرياء للغاية بحبنا لبعض و اقتسام لقمة العيش بين بعضنا البعض ..

ذهل ديونيسوس و هيكتور من كلام الزعيم نديزي العميق .. الذي أردف قائلاً ..

○ نديزي : انظروا بأنفسكم ..

نادى نديزي على فتاة صغيرة تلعب مع أقرانها في وسط ساحة القبيلة ..

○ نديزي : نديكاتوباني تعالي إليّ قليلاً ..

تركت الفتاة أقرانها و هرعت إليه ..

● نديكاتوباني : ماذا هناك أيها الزعيم !؟ ..

○ نديزي : السادة هنا يعرضون عليك الانتقال للعيش معهم في دولة أخرى حيث يتوفر كل شيء و ستكونين سعيدة للغاية ، فما رأيك ؟

● نديكاتوباني : ننتقل كلنا معاً !؟ ..

○ نديزي : لا .. فقط أنت ..

● نديكاتوباني : مستحيل أيها الزعيم ..

○ نديزي : و لماذا ؟

● نديكاتوباني : أوبنتو سيدي !! .. لا أقبل ..

ابتسم الزعيم و مسح شعرها بيده ثم سمح لها بالعودة إلى اللعب ..

○ نديزي : كما رأيتم .. هذا رد تلك الفتاة الصغيرة التي لم تتجاوز **10** سنوات ، فما بالكم بأفراد القبيلة البالغين .. بالمناسبة اسم نديكاتوباني في لغتنا المحلية يعني : (**دعنا نعيش سوياً**) و لكم أن تفهموا مغزى ذلك بأنفسكم ..

ابتسم ديونيسوس بذهول و إعجاب ثم فكر للحظات ..

● ديونيسوس : و كم تعداد أفراد قبيلتكم حضرة الزعيم ؟! ..

○ نديزي : نحن **39** شخص ..

● ديونيسوس مبتسماً : و هل توافقون على الانتقال سوياً للعيش على إحدى جزر الأرخبيل ؟! ..

○ نديزي : في هذا الحال يعتبر عرضك مغرياً سيد ديونيسوس .. سأفكر بالموضوع و أناقشه مع كبار القبيلة ثم أخبرك بقرارنا النهائي .. أنت إنسان نبيل في زمن جائر و متوحش و سيسعدنا على ما أعتقد أن ننضم إلى أرخبيلك ..

● ديونيسوس : و هل هنالك هاتف متوفر في القبيلة ؟! ..

○ نديزي : أجل .. هنالك هاتف وحيد بحوزتي ..

● ديونيسوس : رائع .. إذاً سنتبادل الأرقام .. و أنا بانتظار ردكم على أحرّ من الجمر ، راجياً من أعماق قلبي أن توافقوا على عرضي ..

○ نديزي : نشكرك سيد ديونيسوس على اختيارنا أولاً ثم تحملك العناء للوصول إلينا ثانياً و على عرضك السخي النبيل أخيراً ..

ابتسم ديونيسوس و انحنى له باحترام و تواضع ..

● ديونيسوس : أنا من يشكركم على تعليمي فلسفة أوبنتو المذهلة سيدي ، أنتم قارة لا مثيل لها في العالم ، عرفتكم أسرار السعادة و أنتم أكثر من يستحقها على وجه الأرض .. لطالما سألت نفسي مندهشاً عن سر ضحكات الأطفال الأفارقة الدائمة في الصور الملتقطة لهم رغم كل الظروف الصعبة التي يعيشونها من فقر و حرمان و مرض .. لكنك اليوم فسرت لي هذه الظاهرة العجيبة بوضوح .. أنتم صناع السعادة في هذا العالم .. بمحبتكم لبعضكم و تعاونكم على تجاوز العوائق و الصعاب .. أتمنى أن تصدح أصوات ضحكاتكم في الأرخبيل لتعمه السعادة كاملاً .. فهذا هو حلمي الوحيد في الحياة الآن ..

○ نديزي : على الرحب سيد ديونيسوس .. أتمنى أن نحقق حلمك فنكون من سكان أرخبيلك و نتشرف طبعاً بذلك .. أتواصل معك لاحقاً ..

● ديونيسوس : إلى لقاء قريب حضرة الزعيم ..

○ نديزي : إلى لقاء قريب أيها السادة ..

غادر الثلاثة القبيلة فاستقلوا سياراتهم و قفلوا عائدين إلى العاصمة ..

● ديونيسوس : أوبنتو !! يا لها من فلسفة مذهلة ..

○ هيكتور : بالفعل ..

● ديونيسوس : بالمناسبة صاموئيل ، ما معنى اسم نديزي ..

○ صاموئيل : معناه (الثقة) سيدي ..

هز ديونيسوس رأسه بإعجاب ..

● ديونيسوس : و هو اسم على مسمى .. إنه مصدر الثقة المطلقة لأفراد قبيلته ..

○ صاموئيل : تماماً سيدي ، فأغلب الأسماء الإفريقية ذات معانٍ عميقة للغاية و يؤسفني أنني أجهل كنييتي الإفريقية مما حرمني من التعرف على معناها العميق ذو الارتباط الأكيد بشخصيتي و حياتي ..

● ديونيسوس : و ما هي كنييتك إذاً يا صموئيل ؟

○ صاموئيل : كنييتي هي فري مان (الرجل الحرّ = **freeman**) إذ أنّ أغلب الأفارقة الذين نقلوا للعمل كعبيد في أمريكا كانوا بلا كنيات معروفة لذا عندما نالوا حريتهم كنّوا بفريمان .. كحال أجدادي على ما يبدو سيدي ..

صمت ديونيسوس للحظات ثم تنهد تنهيدة عميقة ..

● ديونيسوس : يا للعنصرية البغضاء !! .. إنّ مظاهر الفقر و الحاجة و البؤس الهائلة في إفريقيا عامةً و القبيلة التي زرناها على وجه الخصوص سببت لي اكتئاباً حقيقياً يا هيكتور .. كيف يمكن لبقية شعوب العالم أن تعيش بهناء و سعادة في حين يعاني الشعب الإفريقي الويلات ..

○ هيكتور : هذا شعور طبيعي بنّى ، فكل من عاش في إفريقيا لفترة من الزمن هاله ما رأى فيها من بؤس و حرمان و عانى لاحقاً من مظاهر اكتئاب عميق حتى بعد عودته إلى بلده بدرجة أن بعضهم أقدم على الانتحار لأنه لم يعد قادراً على تحمل الفوارق الهائلة بين حياته الشخصية و حياة الفقراء في إفريقيا مع عجزه عن فعل أي شيء لمساعدتهم ..

● ديونيسوس : انتحار ! ..

○ هيكتور : أجل و أشهرهم المصور الفوتوغرافي الجنوب إفريقي كيفن كارتر (1960 – 1994) ، صاحب الصورة الشهيرة لطفلة صغيرة من جنوب السودان هزيلة القوام للغاية بسبب الجوع و هي مرتمية على الأرض لا تقوى على الحركة من ضعف عضلاتها و يقف خلفها نسر

كبير الحجم منتظراً موتها بفارغ الصبر ليتغذى على جسدها الواهن ..



و قد قام كيفين بالتقاط الصورة عام **1993** .. و تعتبر هذه من أكثر الصور الصادمة و المأساوية في العالم التي نشرتها صحيفة نيويورك تايمز ..

● ديونيسوس : لقد شاهدت هذه الصورة مراراً على هاتفي دون أن أعرف قصتها ..

○ هيكتور : بالطبع فهي من أشهر صور العالم ، و بسبب هذا المشهد الممزق للقلب لم يتحمل المصور كيفن الحياة أكثر و انتحر بعدها بعام **1994** عن عمر **33** سنة في شاحنته الخاصة قرب عاصمة جنوب إفريقيا جوهانسبورغ بعد أن ترك رسالته الأخيرة و نصها على ما أذكر :

» أنا آسف جدا .. لكنني أدركت أن ألم الحياة يفوق متعتها

بكثير لدرجة أن المتعة أصبحت غير موجودة... أنا مكتئب ..

تطاردني ذكريات حية من عمليات القتل والجثث والغضب

**والألم لأطفال يتضورون جوعاً أو جرحى، من المجانين المولعين
بإطلاق النار و أغلبهم من الشرطة، من الجلادين القتلة...
ذهبتُ للانضمام إلى كين إن كنت محظوظاً لتلك الدرجة))**

و في السطر الاخير اشارة الي صديقه القريب من قلبه كين الذي كان قد توفي مؤخراً..

● ديونيسوس : قصة مفاجئة من جميع الجوانب .. تراودني مشاعر المصور ذاتها ، لكن مع فارق هام بأنني قادر على إحداث تغيير في هذا الواقع النتن كمستنقع راكد من خلال أرخبيلي الخاص فأنا بذلك سألقي حجراً كبيراً في هذا المستنقع محفزاً غيري من الأغنياء على فعل المثل كحلقات مائية متتالية تتسع تدريجياً لتحويل المستنقع إلى بحيرة جميلة ..

○ هيكتور : هذا ما نأمله جميعاً سيد ديونيسوس .. إلى كاليفورنيا مجدداً ؟

● ديونيسوس : أجل .. فهناك عمل كبير ينتظرنا من إنهاء علاقتي بسلينا كلياً إلى الاطمئنان على عيون السيد رحيم والد فاطيما و عملياته الجراحية ، ثم أخيراً توجيه التعليمات لطاقم العمل في الأرخبيل لبناء عدة منازل أخرى في جزيرة خاصة كبيرة لتستوعب أفراد قبيلة بيكينغا في حال قبولهم عرضي .. إنهم اللؤلؤة الأخيرة و الأجمل في طوقي الفريد ..

الانتقام الأخير ..

والكشف الأخير ..

الولايات المتحدة الأمريكية / نيويورك ..

مكتب التحقيقات ..

شق المحقق فرانك طريقه عبر ممرات الطابق الثالث بثقل الخطى، حاملاً في يده ملفات تحقيق **جريمة الفيروس الغامض** التي هزّت أركان القضية وأغرقت أجواء المكتب بصمت مريب. كان قلبه ينبض بسرعة غير معتادة، يحمل بين طياته أسراراً صادمة تنتظر أن تُكشف لرئيسه ويلتون، الذي ينتظره في مكتبه خلف الباب المزدوج.

قبل أن يصل إلى الباب، اصطدم بنوح، مساعده الذي عاد من عند ويلتون. في لحظة، التقت عيناهما، ولحظ فرانك ارتباك نوح الغامض، ذاك الارتباك الذي لم يكن مجرد توتر عابر، بل إشارة صامتة إلى عاصفة تقترب. في تلك اللحظة، أدرك فرانك أن ما ينتظره داخل المكتب لن يكون سوى بداية لغز أعمق وأكثر خطورة مما تخيل.

● فرانك : هل كل شيء على ما يرام نوح .. ؟ ..

○ نوح : أجل سيدي ، لقد أوصلت التقرير المشترك للطبيب الشرعي في مكتب تحقيقات لويزيانا و طبيبنا الشرعي سيكويما إلى الرئيس ويلتون للتّو .. إلى أين أنت ذاهب بدورك ؟

● فرانك : إلى مكتب الرئيس لأطلعه على آخر المستجدات بناءً على طلبه و لأطلع على التقرير الشرعي المشترك فالفضول يقتلني ..

○ نوح بقلق : الرئيس ويلتون مشغول للغاية الآن و أخبرني بأنه يرغب بالانفراد بنفسه قليلاً ..

● فرانك بابتسامة و دهشة : و هل أنا شخص غريب يا نوح .. أنا محققه الرئيسي و لا بد أنه يرغب برؤيتي لمعرفة آخر المستجدات و مناقشة الأدلة و حيثيات القضايا ؟!

○ نوح : أرجوك سيدي لا تذهب الآن .. ارجع إلى مكتبك .. و عد في

وقت آخر ..

فرانك بدهشة عارمة ..

● فرانك : ما الذي تقوله يا نوح ؟ لماذا ؟

○ نوح : أرجوك سيدي لا وقت للشرح الآن .. أخبرك بكل شيء لاحقاً ..

نظر إليه فرانك بريية ..

● فرانك : ما هذا الكلام الغريب نوح ؟ .. ما الذي جرى لك ؟ .. سأذهب الآن .. فأنا من يحدد الوقت المناسب و ليس أنت .. هل ستملي عليّ أوامرك الآن ؟ ..

اعترض نوح طريقه ..

○ نوح : اعذرني سيدي .. لن أسمح لك بالذهاب ..

دهش فرانك أكثر و مد يده محاولاً إزاحة نوح من طريقه بالقوة ..

● فرانك : ابتعد عن طريقي يا نوح .. ستحاسب لاحقاً على هذا التصرف

○ نوح : حاسبني لاحقاً إن شئت ، أما الآن فلن تمر و أنا على قيد الحياة

انهال نوح فجأة على فرانك بدفعة عنيفة، فسقط الأخير أرضاً بينما استقر نوح فوقه، يضغط بقوة ليثبتته بلا رحمة. تجمد فرانك في مكانه، يحدق بذهول في مَنْ كان بالأمس مساعده الوفي، والآن يبدو كأن عقل نوح قد تاه في دوامة من الغضب واليأس. حاول فرانك الإفلات من قبضة يديه الحديديتين، لكن كل محاولاته باءت بالفشل. حينما التقى نظره بعيني نوح، رأى دموعاً تنساب كأنهار من الألم، وفي تلك النظرة تأججت شرارات حادة، دوامة من ندم صامت، كأن شيطاناً داخلياً استيقظ فجأة، يهيمن على الروح الحائرة و يبحث عن التوبة و الخلاص ..

قبلها بأسبوع ..

كان المحقق فرانك جالساً في مكتبه المزدهم بالملفات والأوراق، يحدّق في الوثائق التي أمامه مع مساعده نوح، حيث يناقشان بقلق عميق القضايا الأربعة الغامضة التي تركها وراءه الطبيب بنجامين، المعروف بلقب أطلس العدالة المحنك .. كان غضب رئيسهما ويلتون يتصاعد بسبب تأخرهم الواضح في فك طلاس تلك القضايا، ما كان يثقل كاهلهم ويزيد من الضغط النفسي عليهم. فجأة، أصدر جهاز الفاكس المجاور لهم صوتاً تنبيهاً، معلناً وصول برقية جديدة. توقفت الكلمات وتوقف الزمن للحظة، بينما انتظر فرانك بصبر حتى اكتملت عملية الطباعة. رفع الورقة بين يديه بلهفة وترقب، متسائلاً في داخله ما إذا كانت هذه البرقية ستكشف لهم خيطاً جديداً، وربما علاقة أخرى للطبيب بنجامين الذي لا ينفك يثير الغموض في حياتهم. كانت الكلمات المكتوبة على الورقة تنبئ بقصة جديدة غير متوقعة ، تنتظر أن تُروى :

((من مكتب تحقيقات لويزيانا إلى مكتب تحقيقات نيويورك ..حاضرة المحقق فرانك سيمونز المحترم .. حدثت لدينا في مدينة نيو أورلينز أمس جريمة غامضة قتل على أثرها المدعو تيم اندرسون 59 عاماً .. الذي تلقى رسالة غامضة من صديق مفترض .. لكنه عندما فتحها تبين احتواؤها على مادة بيضاء بقوام الطحين انتشرت مباشرة في الجو فاستنشقتها السيد تيم و خلال ساعات قليلة تطور لديه التهاب رئوي حاد أدى إلى وفاته سريعاً ، دون أن يتمكن الأطباء من تشخيص حالته بدقة و علاجه بشكل مناسب .. لكن تحليلنا الجنائي أثبت أن الظرف احتوى مادة مشبعة بفيروس تونكا الخطير الذي سبق و أن استخدم في عمليات اغتيال كثيرة في السنوات الماضية ..

أما عن علاقتكم بهذه الجريمة فقد تبين وجود رسالة غريبة و ملغزة مطوية في ذلك الظرف نصت على التالي :

اليوم سيموت تاجر المخدرات المخيف ..

سيريف ملك التزييف ..

في نيويورك زور موته سابقاً

ليلقى عقابه بالموت الحقيقي في لوزيانا لاحقاً ..

فالموت قدره المحتوم و بنفس السموم ..

لا أحد سيفلت من العقاب تحت سماء القانون ..

و أطلس سيصل إلى الجناة في أي مكان يكونون ..

و لو تخفوا خلف أسماءٍ مستعارة في أعتى الحصون ..

أطلس العدالة

و كما ترى حضرة المحقق فالرسالة الغامضة هذه تشير إلى أن الضحية يحمل اسماً مستعاراً بعد أن سبق له أن زيف موته عندكم في نيويورك و هو عمل في تجارة المخدرات كما تدعي الرسالة .. لذا نرجو منكم تزويدنا بالتفاصيل المتوفرة لديكم بهذا الخصوص بأسرع وقت ممكن ..

و لكم جزيل الشكر ..

مكتب تحقيقات نيواورليانز / لوزيانا ((

جمد المحقق فرانك في مكانه للحظات، تغمره دهشة عميقة، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة تحمل مزيجاً من الإعجاب والارتياح. لقد حقق الطبيب بنجامين، ذلك العقل الخارق، انتقامه الأخير بحق ذلك الرجل الذي كان السبب في اختفائه الغامض : تاجر المخدرات **جيمس ماك آرثر**، أو كما عرف نفسه حديثاً باسم **تيم أندرسون**. الاسم الجديد لم يكن سوى قناعاً، لكن الطبيب كان أطلق عليه لقباً أكثر دلالة وعمقاً : **سيزيف ملك التزييف**، مستلهماً إياه من أسطورة إغريقية قديمة رواها له الطبيب في آخر اتصال هاتفي بينهما.

تأمل فرانك هذه العبقرية، كيف استطاع بنجامين، رغم كل الحواجز،

اختراق قوقعة المليونير المخفي في ولاية بعيدة، داخل منزل محصن تحيط به أقوى أنواع الحراسة، كأنها حصن لا يُخترق. انتقام بتصميم أسطوري وعزيمة لا تلين، جعلت من الطبيب بنجامين أيقونة لا يُمكن إيقافها. كم هو مذهل هذا الطبيب، الذي لا يعترف بالمستحيل، ويصنع العدالة بيدين عاريتين !!!..

○ نوح : يبدو أن ثمة أخبار جيدة وصلتكم حضرة المحقق ؟!

● فرانك مبتسماً : بل أخبار عظيمة تتلج الصدور ..

ناول فرانك البرقية لمساعدته الذي شرع يقرأها و عيناه تجحضان من هول المفاجأة حتى انتهى من قراءتها ..

○ نوح : الطبيب بنجامين قتل المليونير جيمس ؟!

● فرانك : تماماً .. و أظن أن هذا هو انتقامه الأخير فقد أجهز على الشخص الذي تسبب في أزيمته و اختفائه .. و أتوقع ظهوره في أي لحظة الآن ..

○ نوح : مدهش .. لا شيء يستطيع الوقوف في طريقه على ما يبدو !!

● فرانك : بالفعل .. إنه شخص حاذق و محترف لا يشق له غبار .. و الآن سأقوم بإعداد تقرير عن المدعو جيمس بالتفصيل و أرسله لهم ، فلا بد أنهم سيثبتون هويته الحقيقية هذه المرة من خلال فحص **DNA** .. فجثته لا تزال في المشفى بشكل مؤكد ، إذ أن التحقيق لا يزال مستمراً .. و هذه المرة ستكون الحاسمة ، فموته واقع لا يمكن تزيفه حتى من قبل سيزيف ملك التزييف نفسه ..

تبيّن بعد أيام أن القتل كان بالفعل المليونير جيمس ماك آرثر، مما أشعل دهشة غير متوقعة لدى الرئيس ويلتون الذي بدا غير مصدق للأمر، وتسلسلت إلى ملامحه علامات انزعاج وقلق غامض لا يستطيع تفسيره.

تصرفه جاء غريباً وغير معتاد، إذ أصر على طلب تقرير الطبيب الشرعي من مكتب تحقيقات ولاية لويزيانا، وطلب كذلك أن يُخضع تقريرهم لتقييم الطبيب الشرعي الخاص بهم، سيكويما، ليُسَلِّم التقرير النهائي له شخصياً ليقراه بنفسه، كدليل حاسم على وفاة جيمس. وكان هذا طلباً يثير التساؤل، خاصةً أن الجريمة وقعت في ولاية أخرى ولا تعني لويزيانا أي تبعية مباشرة لهم .. !!

بعد أيام، وصل تقرير الطبيب الشرعي من لويزيانا إلى مكتب سيكويما عبر الفاكس. قرأه الأخير بدقة، وأرفق ملاحظاته الشخصية عليه قبل أن يضعه في ظرف مغلق ويرسله إلى مكتب التحقيقات في منهاتن لتسليمه إلى الرئيس ويلتون. وفي صباح اليوم التالي، استلم المحقق فرانك التقرير، فوَض مساعده نوح لتوصيله بنفسه إلى مكتب الرئيس. حمل نوح التقرير وصعد الدرج، دقائق أخرى و شق طريقه عائداً إلى مكتب التحقيقات، عندما شاهد المحقق فرانك يسير في الرواق نحو مكتب الرئيس، وكان ذلك يمهّد للحظة التي اندلع فيها الحوار السابق الغريب بين الرجلين، والذي انتهى بشجارٍ عنيف، حيث أمسك نوح بفرانك وثبته على الأرض بقوة.

فجأة، تردد صوت سعال عنيف من مكتب الرئيس ويلتون، أعقبه صياح طلباً للنجدة. استجمع فرانك كل ما تبقى لديه من قوة، ورمى نوح بعيداً، ثم اندفع مسرعاً نحو المكتب، بينما كان صوت نوح يصدح من خلفه...

○ نوح : حذاري سيدي ، فالظرف الذي سلمته للرئيس ويلتون يحوي فيروساً قاتلاً و لا بد أنه انتشر في أجواء الغرفة كلها .. ستموت بالتأكيد إن دخلت إليه الآن ..

نظر فرانك إليه و قد شلته المفاجأة عاجزاً عن فهم ما الذي يجري ..

● فرانك : لماذا ؟ لماذا فعلت ذلك يا نوح ؟

أطرق نوح رأسه إلى الأرض و الدموع تنهمر من عينيه ثم قال بصوت مخنوق :

○ نوح : لأنّ الرئيس ويلتون مشترك في جرائم كثيرة سيدي .. و آخرها جريمة قتل مروعة ..

● فرانك بذهول : جريمة قتل !! قتل من ؟

نظر إليه نوح نظرة ندم و حسرة و ألقى عليه جملته كقنبلة نووية فجرت دماغ فرانك ..

○ نوح : الطبيب بنجامين سيدي ..

وقف فرانك في مكانه للحظات و كأنه تمثال حجري و هو لا يستوعب ما قاله نوح ..

● فرانك مصدوماً : الطبيب نوح قُتل ! كيف ؟ لقد قام بنفسه بعمليات الانتقام السابقة و ربطها بأساطير إغريقية كعاداته ؟

○ نوح : كلا سيدي .. هو لم يقم بها .. من قام بكل تلك العمليات هو ... أنا ..

لم يعد دماغ فرانك يحتمل هذا الكم الهائل من المفاجآت المتتالية و أخذ يحدق في مساعده نوح و كأنه أصيب بسكتة دماغية ..

○ نوح : صدقني سيدي .. هذا ما حدث بالضبط .. لقد قام المليونير جيمس برشوة الرئيس ويلتون كي يساعده على تزييف موته كما رشاني بالضبط و كنا أنا و ويلتون من الضعف بأن قبلنا تلك الرشوة و ساعدناه على خلاف ما فعله الطبيب بنجامين الذي رفض الرشوة و أصر على متابعة التحقيق حتى النهاية ، فكانت النتيجة أنه خسر حياته بسبب تصميمه الشريف ذاك .. و أنت الآن أمام خيارين سيدي .. إما أن تعتقلني و سأتفهم ذلك تماماً و مستعد للتكفير عن خطأي السابق و تحمل جميع العواقب .. أو تطلب المساعدة الطبية مباشرةً إلى الرئيس ويلتون و تدعي أنك لا تعرف ما حدث .. هو سيموت بالتأكيد في جميع الأحوال فذلك الفيروس فتاك و لا علاج له ، وهو نفسه الذي قتل المليونير جيمس منذ أيام .. فإن اتخذت

الخيار الثاني سأكون ممتناً لك مدى الحياة و أروي لك بالتفصيل ما جرى
معي و مع الطبيب الراحل العظيم بنجامين ..

وقف فرانك في مكانه لدقائق مدهوشاً و دماغه يتجرع كلام نوح الصادم
على دفعات، ثم أمسك جهاز التتراء في يده و طلب إرسال مساعدة طبية
فورية إلى مكتب الرئيس ويلتون ..

خلال دقائق كانت مجموعة من العناصر الطبية و الجنائية يقفون أمام
مكتب الرئيس ويلتون يستفهمون من المحقق فرانك عما جرى ..

● فرانك : لقد أتيت بصحبة مساعدي نوح إلى مكتب الرئيس لاطلاعه
على آخر المستجدات فسمعنا سعالاً قوياً أتياً من غرفته و صوته يصيح
طالباً النجدة ، فتحت الباب لأتحري ما يحدث فوجدت الرئيس ملقاً على
كرسيه يسعل بشدة و أمامه ظرف مفتوح تنتشر منه مادة بيضاء في الجو
فأدركت أنها جريمة بيولوجية فأغلقت الباب ثانيةً و طلبت الدعم الطبي
على الفور ..

كان قرار العناصر الطبية حاسماً لا يقبل التردد، ففرضوا الحظر الكامل
على الرئيس ويلتون داخل غرفته، وأمروا بطلب الدعم السريع من وحدة
مكافحة الأوبئة المتخصصة التي وصلت خلال نصف ساعة بملابسها
الواقية البيضاء المميزة، تبرز في وجه الخطر الداهم. دخل الفريق غرفة
الرئيس بحذر شديد، وأجرى له فحصاً أولياً دقيقاً، ثم قرروا نقله فوراً إلى
المركز الوبائي المختص للعلاج والمراقبة.

في الوقت نفسه، قام الفريق المختص بتوثيق المشهد بإحكام، وختموا غرفة
الرئيس بالشمع الأحمر، محافظين على سلامة الأدلة، قبل أن يُغلق الظرف
الغامض ويُرسَل إلى المختبر الجنائي لإجراء التحاليل اللازمة.

في المختبر، وبعد فتح الظرف بعناية فائقة، عثر المحققون على رسالة
غريبة، تحمل بين طيات كلماتها لغزاً محيراً أخيراً ، ونصت على التالي :

عندما يتحول رجل القانون إلى شريك في الجريمة..

سيأتيه هيركليس من الاساطير القديمة ..

فيتم آخر مهامه العظيمة ..

ويجهز على رؤوس الهيدرا الكثيرة

في مهمته الأخيرة و العسيرة ..

فيقطعها و يكويها بالنار ..

و يرسلها جثة إلى جحيم هاديس الجبار ..

هذه هي عقوبة بروكرست المحتال

الذي شوّه الأدلة كي تناسب السرير

يزيدها أو ينقصها ليفسح المجال

للمجرمين كي يفلتوا من العقاب بلا ضمير

أطلس العدالة

توفي الرئيس ويلتون بعد ساعات قليلة من نقله إلى وحدة العناية المركزة، وسط حالة من الذهول والخوف تملكت أروقة التحقيق. أكد التحليل المختبري أن الظرف الذي وُجد بحوزته كان يحمل فيروس تونكا القاتل مجدداً، مما حوّل القضية إلى جريمة اغتيال بيولوجية مروعة. وبشكل طبيعي، تركزت أصابع الاتهام على ثلاثة أشخاص كانوا على تواصل مباشر مع الظرف : الطبيب الشرعي سيكويما الذي أرسل التقرير، المحقق فرانك الذي استلمه، والمساعد نوح الذي قام بتسليمه. وكانت محاكماتهم

واستجواباتهم بانتظار جمع مزيد من الأدلة التي قد تكشف حقيقة الجريمة.

أما الرسالة الغامضة المرفقة مع الظرف، فقد فجرت مفاجأة مدوية حين اتهمت الرئيس ويلتون بالتورط في أعمال غير قانونية عميقة، وأن الطبيب بنجامين، الملقب بأطلس العدالة، هو من قام باغتياله، بالإضافة إلى اغتيال كل من تورط معه، في انتقام صارم ومدرّوس. الرسالة شَبَّهت سلسلة انتقام بنجامين بمهام الأسطورة الإغريقية هيركليس الشهيرة، تلك المهام الصعبة والمثيرة التي كان يقوم بها البطل بكل حزم وقوة.

كما شبَّهت الرسالة المنظومة الفاسدة التي يتزعمها ويلتون **بالهيدرا** الأسطورية ذات المائة رأس من الأفاعي العملاقة؛ تلك التي كلما قطعت رأساً نما مكانه اثنان جديان، مما يعكس انتشار الفساد وتعدد أوجهه المتشابكة داخل السلك الجنائي. لكن أطلس العدالة كان بمثابة **هيركليس** الذي قطع رؤوس الفساد ثم كوى أماكنها بالنار، مانعاً بذلك نمو أي رؤوس جديدة، وقام بإرسالها جثة هامة إلى **هاديس**، إله الجحيم في الأساطير الإغريقية، في إشارة إلى القضاء النهائي على الفساد.

أما مصطلح **بروكرست**، فقد جاء في الرسالة كرمز آخر مستمد من الأسطورة الإغريقية، حيث كان بروكرست، ابن **بوسيدون** إله البحار، يمارس وحشية فريدة على مسافري **جبل كوريدالوس** القريب من أثينا. كان يجبر الضيوف على الاستلقاء على سريره الحديدي، وإذا كان الضيف أطول من السرير قطع أرجله، وإذا كان أقصر، مدّ جسده حتى تكسر مفاصله، ليجعل كل ضحية تناسب السرير بشكل دقيق. ولم ينجُ أحد من هذا المصير الرهيب حتى قبض عليه **ثيسئوس**، الذي عاقبه بنفس الطريقة.

في هذا السياق، اعتبر أطلس العدالة الرئيس ويلتون كمن يشبه بروكرست في تعامله مع الأدلة، حيث يتلاعب بها ويشوهها، يزيدها أو ينقصها، كي تناسب البراءة المزعومة للمجرمين، بلا ضمير مهني أو وازع أخلاقي ..

وفي تطور جديد، كشف الفحص المتعمق للأدلة عن دخول شخصية جديدة في دائرة المشتبه بهم، هو الطبيب المختفي بنجامين تومبسون، الذي ثبت وجود بصماته الكثيرة على الظرف والرسالة المرفقة، مما أشار بقوة إلى

ضلوعه، تحت لقب أطلس العدالة، في كافة الجرائم الستة السابقة التي رمّز لها بأساطير إغريقية عديدة، منها فايتون الأرعن، إيكو الحورية، بروميثيوس سارق النار، أوديب وعشقه الغريب، بيغماليون ذو الغيرة العمياء، سيزيف ملك التزييف، وأخيراً الهيدرا العملاقة.

بناءً عليه، تم إخراج الثلاثة الآخرين من دائرة الاتهام، بعد استجوابهم وإنكارهم أي صلة بالجرائم، وغياب الأدلة المادية التي تدينهم، رغم بقاء لغز طريقة تغيير بنجامين لتقرير الطبيب سيكويّا عصياً على كل تفسير حتى الآن، مما يزيد من غموض القضية وتعقيدها.

بعد ثلاثة أيام أخرى ..

جلس المحقق فرانك في مكتبه الخاص، عينيه محاصرتان بالدهشة والحيرة، يراقب مساعده نوح الذي بدا كطفل بريء، لكن خلف تلك الملامح الهادئة كان يخفي طيف قاتل قاسٍ، منتقم يتسلح بإبداع لا يشق به غبار، يعيد إلى الأذهان أساليب الطبيب بنجامين البارعة في تحقيق العدالة. مرّ صمت ثقيل قبل أن ينطق فرانك بصوت منخفض لكنه يحمل ثقل الحقيقة، كاشفاً عن نوايا مدفونة وأسرار مميتة...

● فرانك بذهول : أخبرني الآن يا نوح .. كيف قُتل الطبيب بنجامين ؟ .. وكيف نفذت عمليات الانتقام السابقة ؟ ..

○ نوح هامساً : ليس هنا سيدي فالجدران لها آذان ..

● فرانك : و أين إذا ؟

○ نوح : هل يمكنك مرافقتي إلى مكان ما لساعة من الزمن ؟ ..

فكر فرانك للحظات ..

● فرانك : لا بأس .. هيا بنا ..

أعطى فرانك تعليماته لعناصره بأنه سيغادر للتحقيق في جريمة طارئة، دون أن يوضح الكثير من التفاصيل. بدا وكأنّ في صوته شيئاً لا يُقال، لا تعبيراً ولا تلميحاً.

ثم خرج مسرعاً من المبنى بصحبة نوح، مساعده المقرّب، الذي كان ينتظره بصمتٍ يشي بأن ما هو قادم ليس مجرد بلاغ جديد في سجلّ المدينة المضطرب.

استقلّا السيارة، وتولى نوح القيادة، كانت عيناه مثبتتين على الطريق كأنّهما تهربان من نظرة فرانك. لم يتفوه بكلمة، والصمت الثقيل الذي سيطر على الأجواء بدا أثقل من الرصاص.

شقّا طريقهما خارج نيويورك، تاركين خلفهما أضواءها الخافتة ونبضها الليلي المتوتر، نحو غابة كثيفة تلقّها الأشجار العالية كأنها أسوار تخفي أسراراً من زمن آخر.

واصل نوح القيادة حتى بلغ موقعاً منعزلاً داخل حزام الغابة، حيث لا وجود لأي أثر لحضارة أو حياة.

أطفأ المحرك، نظر إلى فرانك للحظة ثم قال بصوت منخفض، نبرته تختلط بشيء ما بين الندم و الخجل :

○ نوح : تعال معي سيدي ..

ترجل الاثنان، والخشخشة تحت أقدامهما كانت الموسيقى الوحيدة في حضرة الغابة. كان الليل ساكناً، والهواء مفعماً برائحة الأرض الرطبة وأوراق الخريف الذابلة.

شقّا طريقهما بصعوبة بين الأشجار الكثيفة على أثر أضواء السيارة ، حتى وصلا إلى شجرة ضخمة، باسقة، مميزة في شكلها، كأنها شاهد قبرٍ نبت من ضمير الأرض.

توقّف نوح، واستدار ببطء. عيناه ممتلئتان بعاصفة، لكنه تماسك للحظات

قبل أن يشير إلى بقعة في الأرض أمام تلك الشجرة، بدت وكأنها نُبشت حديثاً ثم طُمرت على عجل .. فترابها لم ينسجم بعد مع التربة المحيطة، وأوراقها المتساقطة لم تكن بقدر بقية أراضي الغابة.

ثم نطق نوح، بصوت مرتجف والدموع تتسلل من عينيه كندم تأخر كثيراً:

○ نوح : هنا يرقد صديقنا العظيم الشجاع .. الطبيب بنجامين سيدي ..

نظر إليه فرانك بدهشة و الحزن يعتصر قلبه ..

● فرانك : هل أنت متأكد يا نوح ؟

○ نوح : كل التأكد سيدي ، لقد نبشت القبر بنفسي و عثرت على جثته ..

● فرانك : يا إله العرش الأعظم .. و كيف قُتل ؟

شرح نوح يروي له تفاصيل ما جرى بصوت مخنوق بالدموع .. حدثه عن المدعو يوري الذي هدهد بقتله و عائلته إن لم يساعده على تغيير تقرير وفاة المليونير جيمس ماك آرثر و إغرائه بمبلغ مليون دولار إن فعلها مما يمكنه من علاج ابنته من المرض الخلقي الذي تعاني منه ثم ضعفه و انصياعه لعرضه و تغييره للتقرير ، في حين رفض الطبيب بنجامين الانصياع و استمر في تحقيقه حتى عُثر على سيارته خارج المدينة و آثار دمائه فيها و حولها .. لقد احتار الجميع وقتها حول مصير الطبيب بنجامين المختفي لكن نوح كان متيقناً تماماً أنه قتل بتلميح يوري له بذلك في آخر اتصال بينهما ..

عانى نوح بعدها لأيام من تأنيب الضمير بشكل مزق قلبه و عقله فعجز عن النوم لليالٍ طويلةٍ من خجله من نفسه و إحساسه بالذنب تجاه الطبيب بنجامين ، ليتيقن أنه لن يرتاح مجدداً حتى يصحح خطأه و ينتقم للطبيب من قتلته و يتابع طريقه النبيل في رفع سماء العدالة فوق كتفيه لتظل الجميع ..

لذا وضع خطةً كاملةً لتنفيذ ذلك بدأت بالاتصال بالمدعو يوري و طلب لقاءه لسبب طارئ و خطير يتعلق بالمليونير جيمس فوافق يوري على

لقائه في مخزن مهجور خارج المدينة حيث قام نوح هنالك بالاختباء و باغت يوري من الخلف بضربة من كعب مسدسه على مؤخرة رأسه ، ثم قام بتقييده و تكميمه و نقله في سيارته إلى منزله الريفى .. عندما استعاد يوري وعيه حذره نوح من الصباح و بأنه سيقتله إن فعل ذلك .. ثم عقد معه صفقة أن يخبره يوري باسمه الحقيقي و الحركى في عصابة ترويج المخدرات و بمصير الطبيب بنجامين ، إضافةً إلى العنوان الحالى للمليونير جيمس و اسمه الجديد .. فإن قام بذلك ثم تأكد نوح من صحة كلامه فك وثاقه .. و إن لم يتعاون معه أو تبين أنه يكذب عليه قتله على الفور .. و بالفعل وافق يوري على الصفقة مباشرةً و أخبره بأن اسمه الحقيقي هو يوري لكن اسمه الحركى في عصابة ترويج المخدرات التابعة لجيمس هو بيبير ، كما اعترف بأنه قتل الطبيب بنجامين بنفسه و زوده

بكافة التفاصيل بما فيها مكان دفن جثة الطبيب ، بل من شدة خوفه على حياته زوده بتفاصيل إضافية صادمة بأن الرئيس ويلتون ضليع في جريمة قتل الطبيب بنجامين و التستر عليها و تغيير مجريات التحقيق في قضية مقتل جيمس في انفجار يخته و ذلك بإخفاء تقرير وفاة جيمس و في قضية اختفاء الطبيب بنجامين بتحويلها إلى قضية باردة بسرعة على نحو أذهل نوح الذي لم يكن يصدق أي خديعة يعيشونها في مكتب التحقيقات بتورط الرأس الأكبر فيها في اختراق القانون ..

بعد أن تيقن نوح من صحة كلام يوري قام بأخذ بصمات له على أوراق و ظروف مع توقيعه عليها لاعتقاده بإمكانية الحاجة إليها لاحقاً ثم أطلق الرصاص عليه و دفن جثته في مكان ناءٍ في أعماق الغابة بنفس الطريقة التي قتل فيها يوري الطبيب بنجامين و أخفى جثته ..

قام بعدها باستئجار شخص لمراقبة المليونير جيمس الذي يعيش في ولاية لويزيانا تحت اسم تيم أندرسون و تقديم تقارير يومية مفصلة له عن حياته .. وخلال تلك الفترة قام بإعادة دراسة جميع القضايا الأربعة الباردة التي لم يتوصلوا إلى حلها و عزم على كشف الجناة فيها و معاقبتهم استكمالاً لأحلام و أهداف الطبيب بنجامين .. فقام بمراقبة المشتبه بهم فيها عن كثب ثم خطط للانتقام منهم بنكهة الأساطير الإغريقية تكريماً للطبيب بنجامين الذي عشقها في حياته فأراد لها نوح أن تستمر بعد موته فكانت النتيجة

على النحو التالي ..

✽ **المراهق غايل** أو فايتون الأرعن .. التقى به نوح في سيارته بحجة تحذيره من أن أحدهم يخطط لقتله و هناك هده بالمسدس حتى اعترف بجريمة دهس الفتاة جوليا بأدلة دامغة ، فأطلق الرصاص عليه و غادر مسرح الجريمة بهدوء ..

✽ ثم التقى **بجاشوا** المتهم بقتل أريل ابنة صديقه و جاره ، في منزله بحجة تحقيقه في جريمة جديدة ، قيده و كمنه في قبه منزله و ضغط عليه حتى اعترف بتفاصيل جريمة قتل الحورية أريل التي كشف الإيكو الفاعل فيها .. فأطلق عليه الرصاص بدوره و غادر ..

✽ و هو أيضاً من ساعد **الشاب ويسلي** الذي لقبه ببروميثيوس سارق النار على الفرار من غرفة احتجازه ليلة مناوبته في مكتب التحقيقات ، لأنه تعاطف معه و كان مقتنعاً تماماً بأن القانون الذي يجعل رئيساً فاسداً كويلتون يعيش حراً و يزج بشاب بريء كويسلي في السجون بسبب مساعدته للفقراء و المحتاجين ، ليس بقانون و يجب تصحيحه ..

✽ و في إجازته التي استمرت **3** أيام قام بالسفر إلى أريزونا و التقى **بفيكتور و تيفاني** في مدينة فوينيكس و هدهما بالمسدس أن يعترفا بتفاصيل جريمة مقتل الأب و الزوج إيفان ، فاعترفا بالفعل بأدق التفاصيل بعشق الابن أوديب الغريب لزوجة أبيه ثم اتفاهما على قتله و تحصيل مبلغ التأمين ثم الانتقال من الولاية ، فأطلق عليهما الرصاص و عاد إلى نيويورك ..

✽ بعدها طلب لقاء **المحامي خافيير غارسيا** لتوكيله في قضية جديدة .. حيث أفقده و عيه ونقله إلى منزل زوجته السابقة الضحية بيلا . و كالعادة تحت التهديد اعترف بيغماليون بقتل زوجته بدافع الغيرة و بحيثيات الجريمة ، فضرب رأسه بمطرقة حتى الموت كما فعل خافيير بزوجته و غادر بهدوء ..

✽ أما **المليونير جيمس** فقد تبين بعد مراقبته أنه يعيش تحت اسم مستعار في لويزيانا و بأنه محاط بحراسة مشددة فلا يمكن الوصول إليه مطلقاً ، لذا قرر تجربة حظه بخطة جديدة، وهي أن يرسل ظرفاً مختوماً إلى

عنوان جيمس و أن يكون المرسل هو يوري تحت اسمه الحركي بيير الذي لا يعرفه سوى جيمس فقط مع بصمة أصبع يوري و توقيعه عليها كي لا يشك جيمس أبداً ، و ملأ الظرف بفيروس تونكا الذي حصل عليه عن طريق زميله المخلص روميل في قسم الأوبئة ، كما وضع رسالته الملعزة فيه أيضاً ، و لحسن حظه نجحت الخطة تماماً ، فقد كان جيمس قلقاً للغاية من غياب يوري لأيام طويلة و عدم رده على هاتفه ، ففتح الظرف بلهفة بعد أن تأكد من اسمه الحركي و بصمته و توقيعه ليفتك الفيروس به خلال ساعات ..

= أخيراً الرئيس ويلتون ، نفذ معه الخطة ذاتها ، حيث اغتتم فرصة إرسال تقرير الطبيب الشرعي من لويزيانا حول وفاة جيمس .. فقام بتغييره بعد استلامه من المحقق فرانك و وضع الفيروس و الرسالة الملعزة فيه ، و كان قد نبش مسبقاً قبر الطبيب بنجامين و جعل يده تبصم على الظرف و الرسالة في عدة مناطق منهما .. كي يوجه أصابع الاتهام إلى الطبيب الذي رحل بالفعل و لم يعد يهمه اتهامه بتهم كان ليتشرف بها بالفعل لو كان حياً .. و بذلك ينتقم الطبيب بنجامين بنفسه من تلك المنظومة الفاسدة التي عاثت فساداً في السلك الجنائي و قتلته حتى و هو في قبره .. هكذا صوب نوح خطأه الأول بتغيير تقرير وفاة جيمس المزيفة الذي أدى إلى مقتل الطبيب بنجامين بنفس الطريقة ، أي بتغيير تقرير وفاة جيمس الحقيقية الذي أدى إلى مقتل الرئيس ويلتون الضليع في جريمة قتل الطبيب بنجامين ..

انتهى نوح من روايته الحزينة و الدموع لا تتوقف عن الانهمار من عينيه كساقية و جسده يختلج ندماً و حزناً كعصفور ذبيح .. فتقدم منه فرانك و وضع يده على كتفه ثم ابتسم له ..

● فرانك : توقف عن البكاء يا نوح .. صحيح أنك ارتكبت خطأ فادحاً بقبول تلك الرشوة ، لكنك لست مسؤولاً أبداً عن مقتل الطبيب بنجامين ، فهو بإصراره على كشف مصير المليونير جيمس كان سيقول عاجلاً أم آجلاً .. لقد قتلته شجاعته لا خيانتك .. و أنا فخور بك للغاية لأنك اعترفت بخطئك و أظهرت ندمك الشديد بالانتقام ممن تورطوا ليس في مقتل الطبيب بنجامين فحسب بل في جرائم أخرى كثيرة قمت بنفسك بإلحاق

العقاب المناسب ببعض الجناة فيها .. عليك أن تتصالح مع نفسك و تؤمن بأنك أخطأت بالفعل لكنك صوبت خطأك بأفضل صورة ممكنة .. هيا امسح دموعك و لنعد إلى مكتب التحقيقات فقد تأخرنا كثيراً .. و تأكد أن ما قلته لي سيظل سراً بيننا إلى الأبد ..

○ نوح بإعجاب : كم أنت رائع يا سيدي .. و لأنني مؤمن بشرفك المهني و روعتك كإنسان منعك من دخول مكتب الرئيس ويلتون بالقوة و اعذرني على ذلك .. الصالحون و الشريفون أمثالك لا يستحقون الموت بشكل مجاني و عبثي و مؤلم بتلك الطريقة .. لقد فضلت أن أعترف لك على أن تصاب بأذى ..

● فرانك : أعرف ذلك يا نوح و أثمنه غالباً .. أنت أيضاً إنسان صالح و شريف ، ربما كان خوفك على سلامة عائلتك و رغبتك الجارفة بعلاج ابنتك هي نقطة ضعفك الوحيدة التي استغلها جيمس أحسن استخدام .. لكنك الآن حر تماماً و لا شيء سيضعفك و يلجمك عن تنفيذ القانون مهما كانت العواقب لتكون مثلاً جديداً عن صديقنا العظيم و المبدع بنجامين .. الذي مات شجاعاً بجسده ليولد كأسطورة إغريقية كالتى عشقها في حياته بأفكاره .. كأطلس العدالة المحنك .. الذي سيبقى مصيره مجهولاً كما هي الأساطير تماماً ، غامضة بلا تفسير .. فلا هو حي و لا هو ميت ..

وقف فرانك ونوح في صمت مهيب، كأن الزمن نفسه توقّف احتراماً لهيبة اللحظة.

كانت الشجرة العتيقة تنتصب أمامهما كشاهد على الأسرار المدفونة، جذوعها الملتفة تحتضن الهواء كأذرع أم قديمة تحرس طفلاً لا يعود. فوق التراب الذي خُضب بألم الحقيقة، تلاصقت أقدامهما في خشوع، وبجوار صخرة ضخمة رسم نوح عليها علامة صغيرة بيده المرتجفة، نقش لا تراه العين العابرة، لكنه ينطق للقلوب التي عرفت الحب والفقد:

(هنا... يرقد من لم ينحن)

ثبّتا الصليب في الأرض بخطوات بطيئة، رصينة، كأنهما يغرسان فيه جزءاً من قلوبهما.

لم تكن مجرد طقوس دفن، بل لوحة وداع، نُسجت من ألم الرجولة التي تأتي متأخرة أحياناً، لكنها لا تنكسر.

وفي تلك اللحظة، لم يريا التراب، ولا الصخرة، ولا الشجرة.

بل تراءت لهما صورته... الطبيب بنجامين.

واقفاً في مواجهة عاصفة من الظلام، جسداً نحيل محاط بجبال من الفساد، لكن عينيه بقيتا مشعتين، كأنهما تقولان:

(سماء العدالة ستبقى على كتفي)

وضعا كفيهما على الخشب المصلوب، صمتاً ثقیلاً تسلل من بين أصابعهما، لكنه حمل صلاة، لا تُقال، بل تُحس:

صلاة محبة، وندم، وامتنان لرجل أحب الحقيقة أكثر من راحته، أكثر من سلامه، أكثر من حياته نفسها.

ثم استدارا وغادرا ببطء...

لكن خطواتهما لم تكن خفيفة.

بل مثقلة بثقل الفقد، وثقل الذنب، وثقل كل كلمة لم تُقال، وكل دعم لم يُمنح في الوقت المناسب.

كانا يغادران التراب... لا الرجل.

يغادران الجسد... لا الذكرى.

فالروح التي عرفاها — النبيلة، الجسورة، الباذلة — أصبحت الآن وديعةً في قلوبهما، لا في القبر.

وهكذا، سارا مبتعدين...

ومعهما، كان الطبيب بنجامين يمشي، لا تحت التراب، بل حيًّا في خطوات
الندم، وفي ضمير كل مَنْ تأخر عن الوفاء، لكنه عاد ليبيكي بصدقٍ أخير.

العلم حقيقة الآن

في كهف مائتان ..

كاليفورنيا / لوس أنجلوس ..

بعد شهرين ..

الساعة 5 صباحاً ..

استفاق ديونيسوس على وقع الرعب، كأن قلبه نُزِع من صدره ثم أُعيد إليه وهو لا يزال يخفق بفزع.

كان الليل يتقهقر، والظلال ترتجف على الجدران، بينما تتناثر العرق البارد على جبينه كندى ثقيل سقط من كابوس ما بعد منتصف الليل.

حدّق حوله، كأن الغرفة قد تغيّرت، كأن المكان ذاته لم يعد مألوفاً رغم سكونه.

غرفته الفسيحة، بأثاثها المتقن وهدوئها المعتاد، بدت له فجأة غريبة، كما لو كانت جزءاً من حلم لم ينتهِ بعد.

جلس ببطء، وكأن ثقلًا خفيًا يشده إلى الفراش، مدّ يده المرتجفة إلى الكأس الموضوعة قرب سريره، وجرع الماء دفعةً واحدةً كما لو كان يحاول إطفاء حريق داخلي لا تراه العيون.

كان فمه جافاً كأرض عطشى، وداخله مضطرباً كبحر في مهب الريح.

نعم... إنه هو، الكابوس ذاته، يتكرّر من جديد.

كهفٌ مغمور بالمياه، أصواتٌ تتناهى إليه من أعماق الزمن، لا من باطن الأرض، تناديه بنداء مبهم، لكنه هذه المرّة... مفهوم.

(ماتابان... ماتابان... ماتابان ...)

الكلمة ارتجّت في صدره كصدى ضائع، وكأنها خرجت من قلب الكوكب
لا من فمه، لتستقر في ذهنه مثل نقشٍ لا يُمحى.

وفي الحلم، كان ينزلق — لا يمشي — بل يُقذف في مجرى حلزوني
ضيق، حلقة متكررة من السقوط، كأن العالم ابتلعه من قدميه وراح يدوّره
في لولب بلا نهاية...

وحين بلغ القاع المجهول، استيقظ، ونبضه يرتطم كجناحي طائرٍ مذبوح
يحاول التحليق في الفراغ.

جلس على حافة السرير، يمرر يديه على وجهه، يهزّ رأسه بقوة، لا لطرده
النعاس فقط، بل لطرده تلك الكلمة التي حفرت وجودها في داخله.

ماتابان... ما هي؟ شخص؟ مكان؟ لعنة؟ أم رسالة؟

نهض كمن خرج من كهف الحلم فعليًا، وفتح الستائر لتدخل أشعة الشمس
إلى الغرفة كفرقة إنقاذ تنتشله من التيه.

دفع الضوء لم يكن كافيًا لتبديد البرودة التي استقرت في قلبه.

ارتدى ثياب الرياضة، وبدأ بجولة من تمارين الإحماء. كان جسده يتحرك،
لكن عقله يلهث خلف صورة الكهف، خلف صدى الكلمة.

ركض على جهاز المشي، كأن الركض قد يبعده عنها، كأن السرعة تمحو
الظلال.

أخذ دوشًا سريعًا، وطلب من الشيف فرانشييسكو تأجيل الفطور إلى الثامنة،
في محاولة لتنظيم يومه رغم اضطراب داخله.

ثم خرج إلى الحديقة، حافي القدمين، كمن يبحث عن اتصال مباشر
بالأرض، بالحياة، بالبساطة.

جلس تحت شجرة وارفة، شجرة لا تعرف الأحلام ولا تفسّر الرموز،
واختار كرسيًا مريحًا كأن فيه راحةً أملًا بها أكثر مما هي فيه حقًا.

الغريب أن الأمس كان مشرقًا...

أنهى المهندس ستيف العمل على الأرخيل — حلمه الكبير — وبات
المشروع جاهزًا ليحمل بشرًا جديدًا إلى عالم صُمم بروح ديونيسوس.
فاطما أرسلت له رسالة من الفلبين، تشكره فيها بحرارة لا توصف، بعد
أن استعاد والدها حليم بصره بفضل زراعة القرنيتين التي تكفل بها.

في بوروندي، نديزي، زعيم قبيلة بيكينغا، بعث له برسالة امتنان بعد أن
قبل عرضه السخي.

وسيلينا... تلك الحساء السطحية الجشعة، انكشفت حقيقتها أخيرًا،
وغادرت حياته كظل زائل لم يترك أثرًا إلا خفة في قلبه.

كل شيء كان يسير على أكمل وجه، كما لو أن الكون أخيرًا صفّى ديونه
معه.

لكن لماذا يعود الكابوس؟ ولماذا الآن؟ ولماذا... ماتابان؟

جلس هناك، تحت الشجرة، يتأمل ظلال الأغصان وهي ترتعش على
العشب،

يتأمل الطمأنينة الخارجية والقلق الداخلي،

يحاول أن يفهم إن كانت روحه تلتقط إشارات من مستقبل لم يأت بعد،
أم أن الماضي نفسه عاد يفتح فمه ليلتهم نومه...

تناول ديونيسوس هاتفه بسرعة ولهفة تقطع أنفاسه، كأن نداء الحلم لا يقبل
تأجيلًا.

لم يكن الأمر مجرد فضول عابر، بل كان أشبه بنداء داخلي، قادم من نقطة غامضة في عمق روحه، نداءً يضغط على صدره، يهمس له : ابحث... قبل أن يفوت الأوان.

كتب الكلمة كما سمعها في الحلم، ماتابان، وضغط على زر البحث.
لم تمر سوى ثوانٍ، لكن الوقت بدا له دهرًا، حتى ظهرت النتيجة.

وما إن قرأ أولى السطور حتى شعر وكأن الدم في عروقه جمد فجأة، وكأن كيانه كله تجمد في لحظة، مسمّرًا أمام الشاشة :
ماتابان هو عبارة عن كهف يقع في أقصى جنوب شبه جزيرة ماني، على طرف اليايسة اليونانية، يُعرف في الأساطير القديمة بأنه بوابة العالم السفلي، البوابة التي تقود إلى مملكة الموتى التي يحكمها الإله هاديس...
ويُطلق عليه أيضًا : كهف هاديس.

شهق ديونيسوس بصوت مكتوم، وارتجف جسده كمن رأى شبحًا.
إنه الكهف ذاته... الكهف الذي انزلت فيه في الحلم، وسمعت فيه تلك الأصوات...
لم يكن هذا مجرد كابوس إذاً. لم يكن نتاج ضغط نفسي أو رغبة دفينية. لقد رأى مكانًا حقيقيًا ، مكانًا من لحمٍ وأساطير.

كان الأسطورة جاءت تزوره في نومه، لا لتقصّ عليه حكاية، بل لتدعوه للعب دور في رواية أكبر من حياته.

تابع القراءة بشغف مفعم بالخوف.
كل سطر جديد كان كجرعة كهرباء تسري في عموده الفقري :

من هذا الكهف دخل أورفيوس إلى مملكة الموتى ليعيد حبيبته يورديسي،
وهناك سار هيركليس في مغامرته المظلمة التي لا تنسى..."

فوق الكهف تمامًا، وعلى تلة مقابلة، لا تزال بقايا معبد قديم مكرّس لإله
البحر بوسيدون، شاهدة على عبادة الآلهة التي كانت تُجرى في محيط
الجحيم ذاته.

إن قلب الأسطورة ينبض في موطنه الأم، اليونان...
وما كان يبدو صدفة مرعبة، بات الآن جزءًا من قدر يُعاد تشكيله بعناية
مرعبة.

واصل القراءة، مذهولاً :

تحكي إحدى الروايات القديمة أن قراصنة اختطفوا الشاعر آريون أثناء
عودته من إيطاليا، فقفز في البحر، فألقته الدلافين وحملته إلى شواطئ
ماني... حيث يوجد اليوم تمثال برونزي له ممتطياً ظهر دولفين.

ديونيسوس حدّق طويلاً في تلك الجملة.

كأن البحر، الأرض، الأسطورة، وحتى الحيوانات... كلها كانت تتآمر
بصمت لترسم له طريقاً لا يعرف إلى أين يؤدي، لكنه بات متأكداً من
شيء واحد :

ماتابان ليست مجرد اسم.

إنها مفتاح.

مفتاح لشيء مدفون...

ربما في الأرض.

وربما في داخله.

ثم كانت الجملة الأخيرة كخنجر بارد يغرسه في عقله :

كان كهف ماتابان جافاً أيام الإغريق الأوائل... ولا يزال مجهولاً كيف
غُمر بالماء لاحقاً.

تراجع إلى الوراء على الكرسي، ونظر إلى السماء من خلال أوراق
الشجرة.

كهفٌ غُمر بالماء فجأة... تماماً كما رآه في الحلم.
إذن... ما يراه في نومه قد يكون ذا صلة بزمان لم يعد، أو بزمان قادم... لم
يبدأ بعد.

زفر ديونيسوس بعمق، كمن يتهيأ لحرب لا يعرف أطرافها بعد،
لكنّه فهم شيئاً واحداً بوضوح :
ماتابان... تناديه.
وهو سيجيب.

شرد في خياله لدقائق، كمن أُسقط من الزمن بين صحوٍ ونوم.
تلك الرؤيا لم تكن حلمًا عابراً. لا... لقد كانت أكثر وضوحاً من أن تُركن
في زاوية الأحلام المهملة.
مرتان رأى الكهف.

وفي الثانية، هتف له الحلم باسمه : ماتابان...
ثم يكتشف أن ذلك الاسم ليس نسيج خيال، بل حقيقة ماثلة على خريطة
وطنه، متربعة عند طرفه الجنوبي، كمارد نائم منذ قرون.

شعر بأن إله القدر لا يلوّح له من بعيد هذه المرة... بل يقبض على يده
بقوة، ويدفعه دفعاً نحو الباب المفتوح.
لا مفرّ من الدخول... بل لعل الدخول ذاته خلاصه.

كان الأمر أكبر من مجرد حلم، أو حتى مصادفة.
كان استدعاء... دعوة مقدسة مشقّة بلغة الأساطير.

وفجأة، ومثل برقٍ خاطف، عاد شريط الذكريات يتقاذف في ذهنه :
محاضرة البروفيسور جاك فورنييه في السوربون، عن الأساطير
الإغريقية...

المحاضرة التي كانت بداية كل شيء، بل بذرة تحوّله.
حينها كان رجلاً آخر...

رجلاً يصنع من ثروته سلماً للكبرياء، لا جسراً للضعفاء.
لكن تلك الليلة، مع الحادث الذي وقع فور خروجه من الجامعة، كانت
مفترقاً روحياً حقيقياً.

ومن رحم الصدمة، وُلدت النسخة الأخرى من ديونيسوس ، الذي قرر أن
يُحوّل الأرخبيل الذي اشتراه للتفاخر، إلى ملاذٍ للمحرومين، ومأوى
للمشردين.

تنهّد بعمق، وهو يربط بين رماد الماضي وشعلة الحاضر.
تلك الأصوات في الحلم... ما هي؟ من أين تأتي؟ ولماذا تناديه؟
لا تزال ترنّ في أعماقه، كهمسٍ بدائي صاعد من الجحيم، أو كنشيد ضائع
من حضارة مندثرة.

ارتقى إلى الخلف، وسند رأسه إلى كفيه، يغوص في بحر من التأمل
الثقيل.

بقي على حاله ساعةً كاملة، لم يتحرّك فيها سوى صدره المرتجف بأفكار
متزاحمة.

ثم فجأة، نهض كمن اتخذ قراره في محكمة القدر:

سيذهب.

سيُصغي من جديد لهمس العالم الآخر...

ويشدّ الرحال إلى موطنه، إلى اليونان، إلى كهف ماتابان تحديداً...

هناك حيث بدأ النسيج، وهناك ربما ينتظره خيط الحقيقة.

حين دقّت الساعة الثامنة، كان الشيف فرانشييسكو قد انتهى من إعداد
الطور كعادته.

جلس ديونيسوس إلى الطاولة، لكن جسده فقط هو الذي أكل، أما فكره فكان
في الكهف...

في الممرّ الحلزونى... في صدى ماتابان ... في عيون هاديس الغائرة.
أنهى طعامه بسرعة وغادر، كمن يخشى أن تهرب الفكرة قبل أن يمسك
بها.

في الحديقة، تحت ذات الشجرة الوارفة، انضم إليه هيكتور الذي بدا للتو
خارجاً من سباته.

كان المشهد صباحياً بامتياز : فنجان قهوة، ضوء شمس ناعم، طائر يغرد
بعيداً...

لكن ما سيُقال، لم يكن جزءاً من هذا الصفاء.

بصوت خفيض وعينين شاردتين، بدأ ديونيسوس يحكي له الحلم، بتفاصيله
الغريبة :

الكهف... الماء... الصوت... الكلمة... البحث... المفاجأة.

ثم أعلن نيته الصريحة :

(سأسافر إلى اليونان... سأزور الكهف بنفسى .. حين يناديك القدر
مرتين، لا يجوز أن تتجاهله الثالثة)

هيكتور لم يقاطعه...

لكن ملامحه افترشت دهشة واضحة، وارتسمت على وجهه علامات الصدمة كوشمٍ مفاجئ.

كأن العالم يتغير أمامه، وكأن ديونيسوس انسلّ من مساره القديم ليصبح رجلاً يتبع الحكايات بدلاً من أن يصنعها.

ثم، بنبرة حاسمة، أنهى ديونيسوس حديثه قائلاً :

● ديونيسوس : و الآن يا هيكتور عليك أن تحجز لنا على الفور تذاكر طيران إلى موطني اليونان غداً مع غرفة في أحد فنادق أثينا لنقدم على مغامرتنا الأخيرة باكتشاف سر ذلك الكهف قبل الالتقاء بطوقنا الفريد على الأرخبيل الذي جهز بالكامل كي يرتدي ذلك الطوق حول عنقه ليزدان به

○ هيكتور : كما تشاء بني .. لكن لا أخفيك سرّاً بأنني متردد كثيراً بخصوص هذه المغامرة فكل ما فيها مخيف و محير .. دون أن أنكر اتفاقي معك بالتأكيد بأن هذه الأحلام ليست مصادفة أبداً و بأنّ إله القدر يخبئ لك شيئاً هاماً هناك بالفعل ..

● ديونيسوس : تماماً ، و رغم هذه الأجواء المخيفة فإنني مغمور بالحماسة و الشوق حتى أذني .. إذ يراودني شعور بأن لهذه الأحلام علاقة بالأرخبيل و مغامراتنا السابقة على حد سواء فليست مصادفة أيضاً أن أقرأ عن محاضرة البروفيسور جاك في باريس حول أساطير الإغريق في نفس اليوم الذي راودني فيه الحلم الأول ، إنها مجموعة من الأحداث المترابطة التي تسمو عن كونها مجرد مصادفة..

○ هيكتور : الحق معك ، إذا سأرتب التجهيزات على الفور ..

● ديونيسوس : أما أنا فسأبحث أكثر في هادفي عن معلومات إضافية تخص الكهف كي أجهز خطواتي جيداً ..

اليونان / شبه جزيرة ماني ..

كهف ماتابان (هاديس) ..

الساعة 9 صباحاً ..

رسا اليخت الأبيض اللامع الذي استأجره ديونيسوس بثبات مقابل الجرف الصخري، تمامًا حيث تقع فتحة كهف ماتابان الأسطوري. كانت المياه أدناه ساكنة، كأنها تحبس أنفاسها بانتظار القادم من الأعماق. الشمس في كبد السماء، وقد سكبت ضوءها الذهبي على صفحة البحر، لكنه ظلّ غير قادر على اختراق غموض ذلك المكان الذي وصفته الأساطير بأنه بوابة إلى العالم السفلي.

كان ديونيسوس قد استعد لهذا اليوم كما يستعد الكهنة للطقوس الغامضة؛ ارتدى بزّة الغوص بعناية، ثبت أسطوانتي الأوكسجين على ظهره، وراجع في ذهنه كل التفاصيل. لم يكن الأمر مجرد مغامرة عادية، بل رحلة إلى قلب الأسطورة، إلى نداء تكرر مرتين في نومه بصوت خفي، آتٍ من أعماقٍ لا تُرى.

لوح لهيكتور مودّعًا بابتسامة مواربة، ثم همس :

(إذا تأخرت... فاعلم أنني وجدت ما كنت أبحث عنه.)

وقفز.

في لحظة اختفى تحت سطح الماء، كما تبتلع الأسطورة أبطالها. شقّ طريقه بأناة عبر الشعاب الصخرية نحو الكهف، تتقدّمه شعلة النهار المتسللة من الأعلى، حتى بلغ فم الكهف. هناك بدأ الظلام يتمدد ككائن حيّ، يبتلع الضوء على مهل. ضغط زر مصباحه اليدوي فاندفعت حزمة الضوء تخترق العتمة كرمح من الفضة، وهكذا بدأ الدخول.

كان الكهف يتلوى كأفعى قديمة، يمينًا ثم يسارًا، بلا نمط مفهوم، وكأن الجدران نفسها تغيّر مسارها بإرادتها. وعلى الرغم من يقظته الكاملة وحسه العالي كغوّاص متمرس، لم يجد شيئًا لافتًا : لا نقش، لا رمز، لا أثر لروح قديمة... فقط الصخور وهدير أعماق البحر.

مرّ ربع ساعة كأنها دهر، حتى وصل إلى نهاية الجوف... إلى جدار صخري صلب يسد الطريق تمامًا.

هناك، تجمّد.

لم يكن أمامه سوى حائط أبكم، لكنه كان يعرف... يعرف أنه رأى هذا المشهد من قبل.

في الحلم.

كل شيء مطابق: الصمت المطبق، الجدار المسدود، الانقطاع التام. لكن لا صوت، لا نداء، لا ارتعاش في الهواء. فهل انتهت المغامرة هنا ؟ كلا. شيء ما في أعماقه كان يصيح به : تابع... لا تستسلم.

اقترب من الجدار، ثم غاص ببطء نحو القاع، يفتّش بعينه وجوارحه، إلى أن أبصر شيئًا... ناتئ غريب الشكل تحت طبقة من الطين والرمل. أزاح ما فوقه من رمال بحذر، وكأنّه يكشف عن سرٍ عمره آلاف السنين.. شيئًا فشيئًا، بدأ شكلٌ مألوف يتكوّن : رجل ضخم مفتول العضلات يحمل كرة على كتفيه.

إنه أطلس... الإله الذي يحمل العالم فوق ظهره.

لم يكن مجرد نحت زخرفي... فقد كانت الكرة ناتئة، نابضة بشيء لا يفهم.

تردد ديونيسوس للحظة... ثم، كما لو دفعه صوت غامض في داخله،

ضغط على الكرة.

فغاصت.

وفي التو، ارتجّ الكهف رجفة هائلة، كأن الأرض تحركت تحت البحر.
وانشق تمثال أطلس نصفين، كما تنتشر السماء في أسطورة الخلق عن
الأرض ..

من بينهما، فُتحت هاوية... فتحة مظلمة عملاقة، راحت تسحب الماء
بعنف يشبه الابتلاع ، تشكّلت فيها دوامة هائلة جذبت كل شيء حولها.

حاول ديونيسوس المقاومة، لكنه كان كمن يحاول الهرب من قدره...
جُذب إلى الداخل، انزلق في ممرّ حلزوني، يتلوّى به نحو الأعماق بسرعة
مروعة، قلبه يقرع كطبل المعركة، صدره يضيق، وروحه تتمزق بين
الخوف والإثارة.

كان بالضبط كما في الحلم.

نفس الانزلاق. نفس الرعب. نفس الظلمة التي لا قاع لها.

ثم فجأة...

انفتح سقف آخر، وسقط منه إلى بحيرة جوفية في كهف ثانٍ أعظم وأفخم.
صعد نحو السطح يلهث، وجفنيه يرمشان ببطء وهو يحاول استيعاب
المشهد.

لقد دخل عالمًا آخر.

الكهف الجديد كان واسعًا، شاهقًا، جدرانه مطعمة برطوبة الزمن.

لكن ما سحره حقًا كانت تلك البوابة الحجرية العظيمة، الواقفة في صدر المكان كعرش مهيب، وقد نُحتت عليها ثلاث عشرة هيئة لآلهة الإغريق، بملامح دقيقة مذهشة، تنظر إليه كأنها تعرفه من قبل.

سبح نحو اليباسة، وخرج يترنح كمولود جديد.

اقترب من البوابة، يمد يده بوجل يتحسس الملامح، التفاصيل، الحروف المطموسة.

لكن لم يكن هنالك شيء واضح... سوى السؤال الكبير:

ما الذي ينتظره خلف هذه البوابة ؟

لفت انتباهه ثانيةً على الحائط بجوارها مجسم للإله أطلس مشابه تماماً لما رآه على بوابة الكهف العلوي حاملاً الكرة على كتفيه ..
اقترب منه بلهفة و ضغط الكرة مجدداً و هنا ارتجت جدران الكهف كلها و شعر بأنه سيسقط على رأسه ..

ثم انفتحت البوابة الضخمة فأغشى بصره على الفور ضوء ساطع للغاية ..
حجب عينيه بيديه للحظات ثم بدأ يعتاد على الضوء تدريجياً ليفاجأ أمامه
بآخر شيء ممكن أن يتخيل وجوده في أعماق الأرض ..
كان هنالك كهف ثالث لكن أكبر بكثير على نحو مذهل ..

وقف ديونيسوس في موضعه كأن الأرض قد تشبثت بقدميه، والأنفاس حُبست في رئتيه، غير مصدّق لما تراه عيناه... مشهد أقرب إلى رؤيا نُسجت بخيوط من الحلم والأسطورة، لكنه يقف فيه الآن بكامل جسده وحواسه.

لقد فُتحت بوابة المجهول، لا على سرداب مظلم كما توقع، بل على جنة أرضية، مخبوءة تحت طبقات التاريخ والزمن. الضوء الفسفوري المنبعث من السقف الكهفي انتشر كأثير سماوي يلامس كل شيء بحنان. الأشجار الباسقة تلامس الغيم المتخيل، و الطيور الملونة تُغرّد كأنها تُرحب بزائر

غريب طال انتظاره. وكانت الحيوانات تتجول بحرية كأن لا خوف عرفته هذه الأرض يومًا، في مشهد فطري لم تطله يد البشر بعد.

شق ديونيسوس طريقه بدهشة الأطفال عبر الممر الحجري، وكل خطوة كانت بمثابة عبور نحو سرٍّ أعمق. لم يكن خائفًا، بل مأخوذًا، كمن عاد إلى بيتٍ لم يزره من قبل، لكنه يشعر أنه يعرفه منذ الأزل.

وعند تلة في منتصف الكهف ... وقفت الحقيقة تنتظره.

سبعة منازل كبيرة كأنها نُحتت من خيال نقي، ومعبد شامخ تزينه نقوش إغريقية تقطر بالجلال، وأناس... نعم، أناس! رجال ونساء لم يكن وجودهم متوقعًا قط، بثياب إغريقية تقليدية، كأنهم خرجوا للتو من صفحات كتاب أساطير قديم.

اقتربت العيون منه، فضولها واضح، دهشتها أكثر. لم يكن ظهوره في ملابس الغوص، كمن خرج للتو من رحم البحر، مألوفًا لهم. تقدّم منه أحد الرجال، كان مهيب الطلّة، بعينين حكيمتين، وتجاوّد على الجبهة رسمت خريطة عمر طويل. تحدّث بلهجة يونانية قديمة ولكن مفهومة :

○ الرجل : من أنت ؟ كيف وصلت إلى هنا ؟ وما الذي تريده ؟

ارتبك ديونيسوس للحظة، كما لو صحا من حلم لم يستعد فيه الإجابة.

كيف يشرح لهم أن القدر أرسله ؟

أنّ كابوسًا مائيًا كان مفتاحًا لباب تحت الأرض ؟

أنّه تبع نداءً لا يفهمه بعد ؟

أنّ أطلّس أفسح له الطريق ؟

أنّ شيئًا ما... في روحه... أخبره أن هذا المكان يخصه، بشكل أو بآخر؟

ابتلع ريقه، تراجع خطوة، ثم قال بصوتٍ أقرب إلى همس :

● ديونيسوس : أدعى ديونيسوس غالانيس أمريكي من أصل يوناني ..
لقد شاهدت الكهف العلوي أو ما يسمى كهف ماتابان في منامي مرتين
فتملكني الفضول أن استكشفه بنفسي و أرى السر الكامن خلفه .. لذا أتيت
من أمريكا إلى اليونان لفحص الكهف بأمر العين .. ثم غصت في مياهه
لأكتشف في نهايته وجود بوابة حجرية في القاع عليها نحت للإله
الإغريقي أطلس قادتني إلى كهف آخر ذي بوابة ضخمة تمكنت من فتحها
بنفس الطريقة لأفاجأ بهذا الكهف الثالث الشاسع و بكم سيداتي و سادتي ..
المدهش في الحكاية أن ما مررت به هنا سبق لي و أن رأيته بحذافيره
في أحلامي على نحوٍ غريب و غير مفسر ..

نظر الأشخاص إلى بعضهم بنظرات غريبة ملؤها الدهش ثم تقدمت منه
إحدى النساء و ابتسمت له ..

○ المرأة : أهلاً بك سيد ديونيسوس .. لقد وصلت إلى مكان لم يسبق لأحدٍ
غيرك أن وصله منذ آلاف السنين .. مرحباً بك في كهف الأوليمب داخل
عالم الأموات .. لقد كنا بانتظارك طوال هذه الفترة ..

جمد ديونيسوس في مكانه مدهوشاً .. عالم الأموات !! و كهف الأوليمب !!
ما معنى ذلك ؟ و ما علاقته بجبل الأوليمب الشهير و آلهته المعروفة ..؟ و
الأهم من كل ذلك ، ما معنى أنهم بانتظاره ؟

● ديونيسوس : كهف الأوليمب ! أي كجبل الأوليمب موطن الآلهة ؟!

○ المرأة : بالضبط .. لكن ليس موطن الآلهة كما يشاع خطأً عند البشر ..
بل موطن أناس بسطاء من عليهم إله القدر بهبات عظيمة متنوعة لمساعدة
البشر الآخرين .. لكن الناس بسبب ظروف خاصة حرفوا حقيقتهم و
حولوهم إلى آلهة و أساطير نسجت حولها الكثير من القصص المبتدعة ..
و هؤلاء الناس البسطاء هم نحن سيد ديونيسوس ..

نظر إليها ديونيسوس مصعوقاً و كأن زيوس رماه بإحدى صواعقه

الشهيرة .. يكاد لا يستوعب أو يصدق ما تقوله ..

● ديونيسوس : أنتم آلهة الأوليمب ؟!

○ المرأة : بالفعل .. كما يحلو للناس أن يدعوننا .. لكننا كما أخبرتك لسنا
بآلهة ، فهناك إله وحيد خالق للكون هو إله القدر الذي يحكم حياتنا و
مصائرنا .. أنا أثينا سيد ديونيسوس و منحني إله القدر هبة الحكمة كما
منحها للنبي لقمان من بعدي .. و هؤلاء هم :

✽ زيوس قائدنا و أكبرنا سناً و منحه إله القدر هبة التحكم بالمناخ و
الأعاصير كما وهبها بعده للنبي سليمان ..

✽ هيسيا منحها إله القدر هبة تصميم المنازل و تأثيثها ..

✽ بوزيدون و منحه إله القدر هبة التحكم بالبحر و أحواله و استشعار
الظواهر الطبيعية الأرضية كالزلازل و البراكين ..

✽ هيديس منحها إله القدر هبة التحكم بمصير البشر و نفهم إلى هذا العالم
السفلي أو عالم الموتى الذي يحكمه ..

✽ ديميتر منحها إله القدر هبة التماهي مع الطبيعة والنبات و حراثة
الأرض و رعاية الحيوانات ..

✽ أفروديت منحها إله القدر هبة الجمال الساحر و ربط القلوب ببعضها
بالحب و إتمام الزواج ..

✽ أبولو منحها إله القدر هبة تعلّم الموسيقى و الطب بالتحكم بصحة البشر
و شفائهم مع التحكم بالنور ..

✽ أريس منحها إله القدر هبة فنون الحرب و القتال و الانتصار في جميع
معاركه ..

✽ هيفيستوس منحها إله القدر هبة التحكم بالنار ..

✽ ديونيسوس (باخوس) منحها إله القدر هبة نشر البهجة و الاحتفال و هو
خبير باللغات كما أنه يعشق النبيذ بشدة.. إنه كما تلاحظ سعيد و مندهش

من تشابه إسميكما ..

✽ أياكوس منحه إله القدر هبة العدل ..

✽ هيرميس منحه إله القدر هبة فنون التجارة ..

● ديونيسوس : مذهل حقاً .. أنتم كالسيد المسيح و تلامذته الاثني عشر ..
زيوس و زملاؤه الاثنا عشر أيضاً ! تشرفت بمعرفتكم جميعاً ..

لكن لماذا خصكم إله القدر بهذه الهبات ؟

○ أثينا : لأننا كما شبهتنا للتو سيد ديونيسوس أنبياء كغيرنا من الأنبياء
المشهورين الذين أرسلهم إله القدر لهداية الناس و مساعدتهم في حياتهم مع
مهمة تعريفهم به ، فخصّ كل منا بما يشبه المعجزات المميزة له .. و قد
جمعنا الإله عبر قائدنا زيوس من أرجاء اليونان كلها و أرسلنا إلى شعب
الإغريق لهدايتهم ، عشنا لعقود طويلة على قمة جبل الأوليمب حيث كان
الناس يصعدون إلينا لقضاء حوائجهم ..

● ديونيسوس : و كيف تحولتم إلى آلهة عند البشر إذا ؟

دخل زيوس على خط الحوار ثانية ..

○ زيوس : إنها حكاية طويلة سيد ديونيسوس .. تعود لآلاف السنين ..
عندما قدر إله القدر بحكمته أن يرسل طوفاناً عظيماً إلى الأرض حصد
البشر و الحجر أو كما يعرف اليوم عند البشر بطوفان نوح .. لقد أوحى
إليّ إله القدر بحدوث ذلك الطوفان فقمنا بنصح البشر باللجوء إلى قمم
الجبال لاتقاء الطوفان ، أما نحن فقررنا قبول دعوة هاديس ملك العالم
السفلي باللجوء إليه هنا حيث يعجز الطوفان عن الوصول إلينا و قد قامت
هيسيا بهندسة هذا الكهف قبيل الطوفان .. ثم دخلنا البوابة العلوية جميعاً
باستثناء صديقنا أطلس الذي منحه إله القدر هبة تحمل المسؤولية و الصبر
و الثبات ، فبقي في الأعلى و أغلق البوابة خلفنا ثم شرع بزيارة القرى و
المدن لتحذير أهلها من الطوفان حتى قضى فيه للأسف كما أوحى الإله
إليّ و هو يساعد الآخرين متحملاً المسؤولية بمنتهى الرضا و القناعة .. و
تكريماً لشجاعته و إنسانيته بقراره النبيل أن يجعل من نفسه قرباناً لحمايتنا

و نصح البشر في الأعلى فقد وضعنا مجسمه على البوابة العلوية و السفلية أثناء تشييد هذا الكهف كما رأيت ليكون هو بنفسه طريقة فتحهما.. ثم عشنا هنا لقرون كما أمرني الإله أن أفعل و حرّم علينا مغادرة هذا الكهف (باستثناء ديونيسوس كرسول منا يستطلع أوضاع البشر في الأعلى) حتى يأتي يوم يزورنا فيه شخص يحمل اسم أحدنا و هو أنت كما يبدو سيد ديونيسوس ، لذلك قالت أثينا منذ قليل أننا ننتظر ك منذ مدة طويلة .. بالفعل حدث الطوفان الهائل بعدها و لم ينج سوى قلة من الناس في الأعلى ..

تناقلت الأجيال اللاحقة قصصنا القديمة و حوروها كما أضافوا إليها أحداثاً و شخصيات و مخلوقات جديدة كهيرا مثلاً التي جعلوها زوجتي علماً أننا جميعاً لم نتزوج و نذرنا أنفسنا لخدمة الإله و البشر ، كما اختلقوا أساطير غريبة عن طريقة نشوئنا اعتمدوا في بعضها على كلامنا الحقيقي لأجدادهم مما يفسر ارتباط كثير من هذه الأساطير بالأديان الأخرى و العلوم الكونية ..

ابتسم ديونيسوس و هو يتذكر محاضرة البروفيسور جاك فورنييه في باريس .. لقد كان على حق بلا شك .. في حين تابع زيوس كلامه ..

○ زيوس : و بسبب هباتنا الفريدة و دمار الطوفان الهائل اعتقد الناس بأننا آلهة و بأن ما حدث كان بسبب غضبنا عليهم و لم يتبق من حقيقتنا شيء سوى موطننا الأول على جبل الأوليمب .. في الحقيقة هذا حال جميع الأساطير حول العالم و التي تعود جذورها إلى شخصيات و أحداث حقيقية لزمنا ما قبل الطوفان .. قام البشر بعده بتحويلها أيضاً و اختلاق تفاصيل و شخصيات جديدة عليها لتصبح على ما هي عليه اليوم ..

فالأسطورة تتسع مع مرور الزمن كشباك عنكبوت يحيكها باتقان و سرعة فيقع في شباك عشقها البشر الفضوليون الذين يرغبون في تفسير الكون من حولهم بطريقة ما ثم يؤمنون بها كحقيقة تريحهم نفسياً ..

● ديونيسوس : قصة غريبة و أسطورية بحد ذاتها .. إنكم أساطير حقيقية سيداتي و سادتي شئتم أم أبيتم !! ..

○ أثينا : و من الحكمة أن نبقي مجرد أساطير .. لذا عليك أن تعدنا أن تبقى حقيقتنا و كهفنا هذا سراً بيننا سيد ديونيسوس ..

● ديونيسوس : بالطبع .. سأخرج من هنا كما دخلت لا أعرف شيئاً عنكم

○ أريس محذراً : يفضل ذلك .. وإلا اندلعت الحرب بيننا و بين البشر ..
وصدقني سيكونون هم الطرف الخاسر فيها .. فأنا لم أخسر أي حرب في حياتي و لا تنس أيضاً هباتنا الفريدة و أن الإله في صفنا سيد ديونيسوس

● ديونيسوس : بالطبع .. لا يوجد إنسان عاقل يرغب في مقارعة أنبياء أمثالكم ..

○ ديونيسوس (باخوس) : هذه قصتنا سيد ديونيسوس .. فما هي قصتك أنت .. أشعر أن وراء الأكمة ما وراءها !

● ديونيسوس مبتسماً : صدقت .. أنا ملياردير ثري للغاية و قد اشتريت مؤخراً أرخبيل جزر في المحيط الأطلسي و جهزته للعيش على أكمل وجه ثم قمت برحلات عبر قارات العالم المأهولة اخترت فيها من كل قارة أشخاصاً معينين مشردين أو محتاجين و عرضت عليهم الانتقال للعيش في الأرخبيل فوافقوا بسعادة .. و خلال الأيام القادمة سأساعدكم على الانتقال إليه ليصبح حلمي حقيقةً كما أصبح حلمي بهذا الكهف و لقاءكم واقعاً أيضاً هذا اليوم ..

○ أفروديت : أنت إنسان نبيل و مذهل سيد ديونيسوس .. لقد منحك إله القدر هبةً عظيمةً بدورك .. وهي القلب الكبير لمساعدة المحتاجين ..

● ديونيسوس : و أنا شاكر له بشدة على هذه الهبة و ما آمله في المستقبل أن أساعد أكبر قدر من المحرومين لتحسين حياتهم .. فالأرض بشكل مأساوي تعج بهم ، لكن للأسف الشديد فالأغنياء و المقتدرون لا يكثرثون لحالهم .. لقد كنت مثلهم حتى وقت قريب لكنني تغيرت جذرياً بعد حادثة وقعت لي جعلتني أبصر الحياة على حقيقتها فأرى المحرومين في قاع المجتمع و أساعدكم مما منحني السعادة الحقيقية لأول مرة في حياتي .. و أتمنى من صميم قلبي أن ينهج الأغنياء أمثالي الدرب نفسها ..

○ أياكوس : لحفيدنا الفيلسوف أفلاطون سيد ديونيسوس قولان معبران للغاية .. الأول :

((أكبر انتصارات الإنسان و أنبلها هو الانتصار على

النفس بتغييرها نحو الأفضل))

أي كتجربتك الشخصية بالضبط .. و القول الثاني :

((العمل الجيد يمنحنا القوة في الحياة و يشجع من حولنا

على فعل المثل))

و كن على ثقة أن ما فعلته بنفسك بخصوص الأرخييل سيكون بذرة سينبت منها بيدر من المساعدة و الإنسانية ..

● ديونيسوس بدهشة : و كيف اطلعت على أقوال فلاسفة الإغريق سيد ديونيسوس و أنتم لم تغادروا هذا الكهف من قبل كما شرح لي السيد زيوس منذ قليل ؟

○ هيسيا : تذكر أيضاً ما قاله لك زيوس ، سمح الله لديونيسوس فقط أن يصعد للأعلى مجدداً ، فكان يقوم بزيارات كل فترة يتعلم فيها اللغات الجديدة بهبته التي خصه بها الإله و يطلع على الحضارات و الثقافات المتلاحقة ثم ينقلها إلينا ..

● ديونيسوس : لكن الأمر العجيب الذي يحيرني هو تمكنكم من العيش لقرون كاملة ؟

○ بوسيدون : هذه معجزة الإله سيد ديونيسوس ، فهو قادر على كل شيء كما تعلم .. لكنني أعتقد أن عمق هذا الكهف الكبير و طبيعته ذو علاقة بذلك بشكل أو بآخر .. تذكر أن أبانا آدم عاش ألف سنة ، كذلك النبي نوح عاش **950** سنة .. فمتوسط أعمارنا (نحن سكان الأرض الأوائل) كان كبيراً في بدايات البشرية ليتقلص لاحقاً مع مرور الزمن ..

○ أياكوس : بالعودة إلى حلمك الكبير سيد ديونيسوس بمساعدة المحتاجين في العالم ، فأنا بهبتي على إحقاق العدل أرى انكفاء الأغنياء عن مساعدة

الفقراء أمر ظالم و معيب بشدة .. إذ يتوجب على الجميع مساعدتك في مسعاك الإنساني و النبيل .. حتى نحن لو كان بإمكاننا مساعدتك لفعلنا ..

صمت ديونيسوس للحظات ثم ابتسم بغموض ..

● ديونيسوس : ربما بإمكانكم مساعدتي بالفعل !

○ أبولو بدهشة : كيف ؟

● ديونيسوس : لقد انتهى أمر الله لكم بالبقاء في هذا الكهف لقرون طويلة بمجيئي اليوم كتحقيق للنبوءة فأنا أحمل اسم أحدكم بالفعل ، أليس صحيحاً ؟!

○ هيفيستوس : بالطبع ، و بعد ؟

● ديونيسوس : لذا يمكنكم السفر معي إلى الأرخبيل و العيش على جزيرة منه بأسماء مستعارة .. لن تختلطوا هناك مع أحد يشتبه بحقيقتكم باستثناء بعض المشردين الذين سيقدرون هباتكم كل التقدير و يثمنون مساعدتكم لهم على نحو مؤكد ..

○ أفروديت مبتسمة : هذا عرض مغرٍ سيد ديونيسوس ، يمكننا عندها قضاء حوائج الناس مجدداً و العودة إلى جذورنا الأصلية ..

● ديونيسوس : بالطبع .. سأطلق على الأرخبيل اسم (أرخبيل الأوليمب) و ستكونون أنتم قادته و حكامه .. فتستخدمون هباتكم لإعمارهم .. إضافةً إلى ذلك يمكنكم العودة إلى هنا متى رغبتم في حال لم تتأقلموا مع الحياة هناك ..

نظر الجميع إلى القائد زيوس أكبرهم سناً بانتظار رأيه الحاسم ..

○ زيوس : أظنّ أنّ لا ضير في ذلك ، فهذه غاية خلقنا بالأساس .. مساعدة المحتاجين و إعمار الأرض .. لقد مللنا بالفعل من العيش في هذا الكهف الضيق على رحابته لقرون طويلة دون إحداث أي تغيير في العالم

● ديونيسوس بسعادة : رائع .. رائع .. و سأجعل من جزيرتكم مقراً لخطتي القادمة الكبرى بالترويج الإعلامي الواسع لأرخبيلي الجديد و ما يمثلته لتشجيع الأثرياء على سلوك الدرب التي هداني الله إليها ، فتكونوا أنتم مدراءه الحقيقيين و أستفيد بذلك من هباتكم المختلفة لنشر فلسفتي الجديدة التي تسعدني و تسعدكم على حد سواء ..

○ أئينا : قرار بمنتهى الحكمة سيد ديونيسوس ، و سنكون بمنتهى السعادة و الرضا خير عونٍ لك في هذا المسعى النبيل ..

● ديونيسوس : سأعود الآن إلى بلادي و أشتري لكم بعض الثياب الجديدة المناسبة ثم أعود بيختي الكبير و الحديث لننتقل جميعاً إلى الأرخبيل .. عليكم أنتم بدوركم اختيار حكاية أخرى بخصوص ماضيكم مع أسماء جديدة كي لا تثيروا الشبهات .. كما أنني سأبدأ بتجهيز جزيرتكم الخاصة للعيش عليها من بناء المنازل و تحويل الأرض الصخرية إلى ارض زراعية و غيرها .. من ثم أعود إليكم متى انتهيت من تجهيزها ..

○ هيرميس مبتسماً : سنكون بانتظارك بفارغ الصبر ..

● ديونيسوس بحبور طاغ : عظيم .. إذاً سأرحل الآن فقد تأخرت كثيراً على مساعدي هيكتور و لا بد أنه في ذروة القلق عليّ .. تشرفت بمعرفتكم أيها السيدات و السادة العظماء .. إنها أكبر مفاجأة في حياتي أن ألتقي بأنبياء وطني الأم .. لكنها على خلاف الكابوس الذي راودني مرتين هي مفاجأة سارة بكل تأكيد ..

ابتسم الجميع و انحنوا بتواضع ..

○ هاديس : تعال معي لأدلك إلى البوابة الثانية للكهف التي تُفتح على الجهة الأخرى من شبه جزيرة ماني ..

مضى ديونيسوس خلف هاديس في ممرات ملتوية ضيقة و هاديس ينير طريقهما بمشعل ..

● ديونيسوس : ما الغاية من هذا العالم السفلي سيد هاديس ؟ ..

نظر إليه هاديس بعينه الوحيدة كون عينه الأخرى مصابة على ما يبدو
بجرح قديم و بنظرته الثاقبة و ملامحه الصارمة التي تتناسب بشكل مثالي
مع هبته كحارس لعالم الأموات ..

○ هاديس : هنا نال المجرمون عقابهم في عهد ما قبل الطوفان .. فكل
إنسان اقترف معصية كبيرة و لم يتب كان يرمى به من البوابة العلوية إليّ
في الأسفل ليلقى حتفه ثم أقوم بدفنه في الكهف الواسع .. و قد بقيت هذه
الحقيقة كأسطورة بعد الطوفان تناقلها البشر عبر الأجيال مع إضافة
لمساتهم الخاصة إليها كوجود الكلب العملاق ثلاثي الرؤوس الذي يحرس
المكان و غيره ..

● ديونيسوس : و هل الكهف يتسع لكل هؤلاء البشر المخطئين ؟ ..

○ هاديس : في ذلك الزمن كان تعداد البشر لا يزال قليلاً جداً .. فكل
سكان اليونان لم يتجاوزوا **10** آلاف شخص و عدد قليل منهم ارتكب
المعاصي و عدد أقل لم يتب عنها بسبب الخوف من هذا المصير ..

وصلاً أخيراً إلى البوابة الأخيرة، التي بدت كخاتمة ملحمة لحكاية بدأت
بكابوس مائي وانتهت بين جدران أسطورة حيّة. ضغط هاديس، بصمت
يشبه النبوءة، على كرة حجرية أخرى لمجسم ثالث للآله أطلس، فاهتزت
الجدران من حولهما كما لو كانت تتنفس، ثم انفتحت البوابة ببطء، كأنها
تنتأب بعد سبات قرون، لتُطل مباشرةً على البحر المتوسط بأفقه
السرمدى المهيّب.

استدار ديونيسوس نحو هاديس، الذي ظل واقفاً عند العتبة الأخيرة،
ملامحه مشعّة بتلك الهيبة التي لا تنتمي للعالم البشري. تبادلوا نظرة قصيرة
كانت أثقل من ألف كلمة، ثم ودّعه بإيماءة شكر مختلطة بالذهول.

قفز ديونيسوس في المياه الزرقاء كما لو أنه يولد من جديد... لم تكن قفزة
نجاة، بل قفزة عودة من الموت. ومن الأعماق، راح يسبح صوب الجهة
الأخرى حيث يرسو يخته، وهو يبتسم في سره بدهشة طفل عاد من
مغامرة في صفحات كتاب مقدس.

(أنا عائد من العالم السفلي، حرفيًا...!)

قالها في داخله كمن يواجه حقيقة أغرب من الخيال.

عندما صعد أخيرًا إلى سطح الماء، كان وجهه يطلّ على العالم العادي من جديد، فصرخ به هيكتور من سطح اليخت، والقلق يطلّ من كل مسام صوت ه:

○ هيكتور : كنت على بُعد دقائق من الاتصال بخفر السواحل يا بني ! أين اختفيت طوال هذه الثلاث ساعات ؟! ظننتك غارقًا أو ... أسوأ !

صعد ديونيسوس إلى سطح المركب، جسده يقطر ماءً، وعيناه تبرقان ببريقٍ مختلف، كأنهما عينا شخص شهد ولادة الأرض من رحم الزمن. خلع ملابس الغوص بهدوء، وأخذ يجفف جسده بمنشفة وهو يبتسم ابتسامة من يرى المستقبل بعين اليقين.

● ديونيسوس بابتسامة خفيفة : لن تصدّق يا هيكتور ما رأيته هناك... أمسك أعصابك، لأنّ ما سأقوله قد يبدو كحكاية اخترعتها روح شاعر نائم في حانة يونانية قديمة.

جلسا في مؤخرة اليخت، والشمس تغرب خلفهما كأنها تعلن نهاية فصل وبداية آخر. وراح ديونيسوس يسرد، بصوتٍ خافت لكن مشحون، مجريات ما مرّ به في عمق الأرض، في حضن أطلس، وتحت نظر هاديس، وبين صدى أصواتٍ خُيّل إليه أنها أنشودة خالدة من زمن الآلهة.

أما هيكتور، فظلّ صامتًا في أغلب الوقت، يحملق في صديقه بنظرات ممتزجة بين الشك والذهول، وكأنّه يقول في سره :

(إما أن ديونيسوس اكتشف عالمًا طمره التاريخ، أو أنه ارتطم بشيء صلب هناك أفقده صوابه !)

لكن شيئاً في عيني ديونيسوس... شيء لم يستطع إنكاره... صدقٌ غريبٌ
يشبه الحقيقة التي لا تحتاج إلى براهين.

المدينة الفاخرة ..

ارقد يا أطلسي بسلام ..

كاليفورنيا / لوس أنجلوس ..

بعد عدة أيام ..

وصل ديونيسوس إلى منزله الفخم في كاليفورنيا برفقة هيكتور، عائدين من رحلة كان من الممكن أن تُدَوَّن على ألواح حجرية وتُعلَّق على جدران معبدٍ في دلفي لشدة غرابتها وغموضها. طوال الرحلة، بقي هيكتور يتأرجح بين التصديق والشك، فكلمات ديونيسوس عن كهف ماتابان والبوابات السرية والآلهة المختبئة في قاع الأرض كانت تلامس حدود الخيال الجامح، بل وتخرقها.

لكن شيئاً فشيئاً، بدأت بوصلة الشك تهتز أمام مؤشرات واقعية... فديونيسوس بدا طبيعياً تماماً، مفعماً بطاقة جديدة، وكأنَّ شيئاً ما فيه قد تبدَّل. كان أكثر هدوءاً، أعمق نظرةً، وأصدق نبوة. بل إنَّ سعادته المفاجئة التي كانت تتسرَّب من عينيه دون استئذان، أقنعت هيكتور بأنَّ ما جرى لصديقه، وإن لم يكن قابلاً للتفسير بعد، فهو حقيقي بالتأكيد.

وقد كانت خطواته التالية، أي اصطحاب هيكتور إلى أسواق لوس أنجلوس لشراء ملابس جديدة وفق مقاسات معيَّنة بدقَّة غريبة، مع أحذية جلدية عالية وقبعات ذات طراز قديم، خطوة أخرى أربكت هيكتور. و أقنعتة أكثر بصدق روايته .

في تلك الأثناء، كانت الولايات المتحدة تغلي بقصة من نوع آخر... قصة أشبه برواية أدبية تشق طريقها إلى الواقع بقلم كاتب مهووس بالأساطير. أطلس العدالة .. قاتل متسلسل حير رجال الشرطة و المحققين بجرائمه الكاملة دون أن يترك أي دليل خلفه سوى لقبه .. جرائم تشترك بشيئين هامين :

✽ الأول .. أن جميع الضحايا مرتبطون بجرائم سابقة باردة لم تحل كمشتبه بهم فوق العادة فيها .. باستثناء رئيس مكتب تحقيقات نيويورك الذي قتل بتهمة تورطه في الفساد حسب مزاعم القاتل المتسلسل ..

✽ الثاني .. أنه لم يعثر على أية أدلة في مسرح الجرائم باستثناء رسائل غامضة ملغزة .. يستخدم القاتل فيها شخصيات و أساطير إغريقية ..

و طلبت الشرطة التي نشرت الرسائل في وسائل الإعلام من المواطنين أمرين آخرين :

= الأول : أن يتواصل معهم أي شخص يعرف أحداً له نفس نمط الخط أو أسلوب الكتابة أو يعشق الأساطير الإغريقية بشدة أو يلقب نفسه بأطلس العدالة ..

= الثاني : عمت الشرطة صورة الطبيب المختفي بنجامين على الناس كمشتبه به أول في الجرائم و ناشدت المواطنين تزويدها بأي معلومات هامة عنه ، كما رصدت مكافأة مالية ضخمة لمن يدلها إلى مكانه ..

وصلت أخبار القاتل المتسلسل بالطبع إلى ديونيسوس فهي تحتل شاشات الإعلام ، مواقع التواصل الاجتماعي و شاشات الدعاية في الساحات و المراكز التجارية .. استحوذت القصة مباشرةً على كامل اهتمامه لارتباطها العجيب بالأساطير الإغريقية التي يعشقها بدوره كما أعجب للغاية بذلك الشخص الغامض الذي يلقب نفسه (أطلس العدالة) و الذي ذكره على الفور بالنبى أطلس الذي ضحى بنفسه لحماية زملائه الأنبياء بإغلاق البوابة خلفهم ثم المرور على الناس لتحذيرهم من الفيضان ، إنهما يتشابهان في نواح كثيرة خاصةً بتحملهم للمسؤولية و رفع أعباء المجتمع فوق أكتافهم و يرأوده شعور غامض قوي بأنه بريء و لقصته خلفيات كثيرة لا يعرفها أحد بعد ..

لكن رغم شغفه بقصة أطلس العدالة ، عاد ذهنه يجذب من جديد إلى مكان أكثر عمقا...

إلى الكهف.

إلى الأساطير التي لا تزال تنتظره تحت الأرض.

إلى تلك البوابة التي فتحت الضوء على سرٍّ لم يكتمل بعد.

إلى أنبياء الإغريق، ورسالة القدر التي لم تُكشف أوراقها جميعاً.

لذا بعد شهر من زيارته لبلده الأم اليونان و بعد انتهاء تجهيز جزيرة أنبياء الإغريق كي تستقبلهم ، أبحر مجدداً صحبة هيكتور في أكبر و أحدث يخت يملكه باتجاه شبه جزيرة ماني حاملاً معه كل ما اشتراه لأنبياء الأوليمب من بلاده ..

بعد مرور شهرٍ كامل على زيارته المصيرية إلى كهف ماتابان، وبعد أن أتم المهندسون بناء الجزيرة الخاصة التي أرادها مأوى لأنبياء الإغريق، عاد ديونيسوس ليُكمل ما بدأه، مدفوعاً بنداء خفي لا يهدأ، كأنّ خيوط القدر تشدّه من قلبه نحو مصيرٍ مكتوب قبل ولادته بقرون.

استقلّ مع هيكتور أكبر يختٍ في مجموعته، أحدثها وأفخمها، مجهّزاً بكل وسائل الراحة والتقنيات البحرية المتقدمة. كانت الشمس تمسح المياه بقبلة ذهبية حين أبحرا من كاليفورنيا، واليخت يشقّ طريقه مثل سهمٍ أبيض وسط زرقة المحيط الهادئ، ثم عبر قناة بنما التي تفصل العالمين، ومنها إلى خليج المكسيك فالمحيط الأطلسي، قبل أن يُدركا سكينة البحر الأبيض المتوسط ويبلغا أخيراً تخوم المياه الإقليمية لليونان، الموطن الأم، نقطة البدء والختام.

من هناك، وجّه ديونيسوس دفّة الرحلة مباشرةً إلى شبه جزيرة ماني، متتبعاً توجيهات نظام الـ **GPS** حتى بلغ مدخل كهف ماتابان ذاته، وكأنّ الزمن قد التفتّ حول نفسه وأعادته إلى لحظة لم تغادره.

ارتدى زي الغوص، وتبادل نظرة وداع مع هيكتور، طلب منه أن يلتفتّ باليخت إلى الجهة الأخرى من شبه الجزيرة حيث ستُفتح البوابة الثالثة، و حدد له الموقع بدقّة على الخريطة، ثم قفز في الماء كمن يعود إلى قدرٍ مختوم بختمٍ إلهي.

شق ديونيسوس طريقه في ظلمة الكهف المائية وقد حفظ ملامحه عن ظهر قلب. وصل إلى القاع، إلى تمثال أطلس الساكن تحت الأعماق، وضغط الكرة فوق كتفيه للمرة الثانية في حياته ، فتزلزلت الأرض مجددًا، وانشقت عن فم حجري ابتلعه كما تبتلع الأسطورة أبطالها.

انزلق في النفق الحلزوني كما في التجربة الأولى ، ثم هوى إلى الكهف الثاني حيث المياه تستقبله كرحمٍ آخر، وخرج نحو البوابة الضخمة، ضغط كرة أطلس الثانية، فانفتحت أبواب النور، وكأنه يدخل إلى الجنة التي نسجها العقل الإغريقي من المجاز والدهشة.

على الطريق المرصوف بالحجارة، وبين الأشجار الاستوائية العملاقة، تقدّم نحو التلة، وهناك كانت ديميتّر، آلهة الزرع والنماء، تنتثر حبات القمح من كفيها وتطعم الدجاج والإوز، وابتسامتها مزيج من أمومة وحكمة. وما إن رأت ديونيسوس حتى نادى بصوتٍ ملأ أرجاء الكهف:

○ ديميتّر مبتسمة : لقد عاد حامل الوعد !

تجمّع الجميع على قمة التلة، وألقى ديونيسوس تحية المحبة واللقاء، ثم أخبرهم بهدوء أن الوقت قد حان... لقد جهّز لهم العالم مكانًا جديدًا، جزيرة خُصّصت لهم، خارج هذا الكهف، خارج هذا الزمن، وعليهم أن يخرجوا أخيرًا إلى النور.

وقبل الرحيل، رفعت ديميتّر ذراعيها إلى السماء المغطاة بالصخور، وتلقّظت بكلماتٍ عتيقة بلغةٍ لا يعرفها إلا من عبّر الزمان، كلماتٍ خفقت في الهواء مثل صلوات منسيّة. نظر إليها ديونيسوس بدهشة، حتى همست إليه أثينا، ربة الحكمة، مبتسمة:

● أثينا : إنها تبارك الأرض والحيوان، كي تستمر الحياة في غيابنا... فلا شيء يُهمّل حين تحكم الآلهة.

أحنى رأسه احترامًا، ثم انطلق الجمع بقيادة هاديس نحو البوابة الثالثة. عند تمثال أطلس الأخير، ضغط هاديس على الكرة، ففتحت البوابة كأنها باب

النجاة المنتظر. وخلفها... كان البحر الأزرق يمتدّ حتى الأفق، واليخت الرابض بهيبته الفاخرة كأنه مشهد من حلم حضاريّ.

نزلوا نحو الشاطئ، وقد أخذت أقدامهم تلتمس الرمل للمرة الأولى منذ قرون. ركبوا اليخت تباعاً، تملأ أعينهم الدهشة، وتنهل أرواحهم من زخم التكنولوجيا التي لم يروها إلا عبر حكايات باخوس.

عرّفهم ديونيسوس على هيكتور، الذي لم يُصدّق ما يرى، فسقطت آخر قطرات شكه كما تسقط أوراق الخريف عن شجرة الفهم. قدّم لهم ملابس حديثة اختارها بعناية، وما إن بدّلوا أثوابهم حتى غدوا كأنهم أبناء العصر، تلمع في عيونهم روعة الاكتشاف، وفي ملامحهم دهشة الولادة الثانية.

كانوا... أخيراً... أحراراً.

بعد سفر مرهق لأيام طويلة وصل اليخت إلى وجهته الأخيرة ليرسو على أكبر جزر الأرخبيل حيث انتصبت في مركزها محطة كهرباء مصغرة ، محطة اتصال ، محطة وقود ، عيادة طبية شاملة و مول تجاري .. أبدى الجميع إعجابهم بفخامة التصميم و جودة المحتوى ..

ثم انتقل ديونيسوس بعدها مستعيناً بخريطة المهندس ستيف إلى ثاني أكبر جزر الأرخبيل التي بنيت عليها منازل أنبياء الإغريق و المقر الرئيسي لعملهم القادم في الترويج لمشروعه الخيري الجديد (مشروع أطلس) ..

● ديونيسوس : مرحباً بكم في جزيرتكم الخاصة يا أنبياء الإغريق ..

○ بوسيدون مندهشاً : إنها جزيرة صغيرة للغاية !!

● ديونيسوس : أعلم ذلك .. لكن هذا هو المتاح لي تبعاً لثروتي سيد بوسيدون .. كنت أتمنى بلا شك أن أشتري أرضاً كبيرة بحجم دولة لأنقل إليها جميع المتشردين في العالم .. لكن لا إمكانية لفعل ذلك بالطبع ..

○ بوسيدون مبتسماً : هل تعرف ما الذي يوجد تحت هذه الجزيرة سيد

ديونيسوس ؟

● ديونيسوس بدهشة : أبداً !!

○ زيوس : منذ آلاف السنين كانت توجد هنا قارة كاملة سميت قارة
أطلس (أطلنتيس) التي غمرتها المياه عقب الطوفان فغرقت و لم يبق
منها سوى قمم جبالها التي شكلت جزر المحيط الأطلسي .. لا بد و أنك
سمعت عن قصتها من قبل ؟

● ديونيسوس : بالطبع ، لكنني اعتقدت أنها أسطورة ..

○ أثينا مبتسمة : و كنت تعتقد أننا أنفسنا أساطير قبل أيام سيد ديونيسوس
.. لا دخان بلا نار ، و لا مطر بلا غيوم .. فكل الاساطير في العالم تعود
لجذور حقيقية كما رأيت بنفسك ..

هزّ ديونيسوس رأسه موافقاً ..

● ديونيسوس : أنت محقة سيدتي .. هذه هي منازلكم على كل حال و
يمكنكم توزيع أنفسكم عليها كما تشاؤون ، أما هذا البناء الكبير فهو مقركم
الجديد لإدارة شؤون (منظمة أطلس) الخيرية لدعم المتشردين و
المحتاجين ، حيث ستقوم بأوسع حملة إعلامية لتشجيع الأثرياء على كفالة
الفقراء و مساعدتهم .. سيقوم مساعدي هيكتور بشرح مهامكم الجديدة
بالتفصيل للاستفادة بأقصى شكل من هباتكم الفريدة ، خاصة شخصية
زيوس القيادية و حكمة أثينا ، إضافةً إلى عدل أياكوس .. أما البقية
فسنستفيد من هباتهم في إدارة شؤون الأرخييل ..

أرخبيل المشردين (الأوليمب) ..

بعدها بأسبوعين ..

اجتمع ديونيسوس و هيكتر مع أنبياء الأوليمب ثانيةً رفقة طوقه الفريد الذي وصل أخيراً إلى أرضه الجديدة و المكون من :

✽ الشاب الفرنسي فرانسوا صاحب القلب الكبير ..

✽ الشاب المكسيكي أنطونيو و والدته أليخاندرا ..

✽ الطفل البرازيلي الموهوب تياغو الذي أتى من مدينة ميونخ الألمانية و التقى على الأرخبيل بوالدته بيتريز و أخوته الثلاثة ..

✽ السيد الأسترالي فيردي .. الموسيقي البارع .. بصحبة كلبه بين و يانغ ..

✽ الفتاة الفلبينية فاطيما بصحبة والدها رحيم و أخيها محمد ..

✽ قبيلة بيكينغا يترأسها زعيمهم نديزي ..

تمّ التعارف أخيراً تحت سماء الأرخبيل الجديدة، فوق أرض لم تطأها خطيئة ولا عبرت بها رصاصة. وقف ديونيسوس في قلب جمعه الفريد، يُعرّف الجميع على بعضهم البعض، الى يمينه باخوس بصوته الواثق بلغاتهم المتعددة، يترجم، ويشرح، ويصل بين أرواح متباعدة كانت تنتمي لعوالم شديدة التناقض. لكلّ منهم حكاية، ولكلّ حكاية جرح، ومع كلّ جرح... إله صغير وُلد في أعماق الألم.

كان يتحدث عنهم بحبّ، كمن يتلو أساطير خالدة من كتاب مقدس. لم يكتفِ بتقديم أسمائهم، بل ذكر أوطانهم الأم التي جاؤوا منها مثل نجوم ساقطة من مجرّات منسية، وسرد لمحات من مآسيهم، من جوع ونوم على الأرصفة، من نظرات احتقار وخوف، من ليالٍ باردة لم يكن فيها غير السماء غطاءً.

وختم تقديمه بالإعلان أن أنبياء الأوليمب، أولئك الخارجون من الكهف الأسطوري، سيكونون القادة والحكماء، يسترشد بهم الجميع ويؤخذ بكلامهم ككلمات نورانية، لا عن سلطة مفروضة بل عن حكمة مجربة، عن ألف عام من العزلة، وألف عام من الانتظار.

وفي لحظة، بدا أن الأرخبيل يتنفس، وكأن الأرض نفسها خفت وزنها. انفجرت الفرحة من وجوه سكّانه الجدد، طوقه البشريّ الذي جمعه من زوايا الأرض المنكوبة، يركضون كأطفال خرجوا تَوّاً من رحم السماء، يقفزون في الحقول، يضحكون قرب شواطئ المحيط، ينامون في منازلهم الجديدة وكأنهم دخلوا حكاية لا تجرؤ الأحلام على صياغتها.

كانت البيوت فخمة، مُجهّزة بكلّ وسائل الراحة، لكنها لم تكن القصر، بل القلب الذي أعاد لهم المعنى. صار لكلّ فرد غرفة، وكرامة، واسم ينادى به لا رقمًا في سجل. وهنا، أدرك ديونيسوس أن هذه الجزيرة ليست سوى المدينة الفاضلة التي حلم بها أفلاطون، قد خرجت من صمت الكتب وتحجّرت على أرض الواقع. بل أجمل... لأن سكّانها ليسوا نظريين ولا نبلاء من الخيال، بل أبطال من لحم ودم، أنبياء صغار نجوا من نار الحياة، وها هم يعيشون الحلم، لا يدينون لأحد إلا للقدر، ولا يسجدون إلا للحب.

كان ديونيسوس يراقبهم من أعلى التلّة، وقد جفّ الدمع في عينيه من كثرة ما فاض قلبه. كيف تحوّل في أشهر معدودات من رجل يشتري الجزر ليُظهر ثرائه أمام الفقراء، إلى رسول يشتري لهم حياة؟ كيف تحوّل طموحه من الواجهة إلى الكرامة؟ ومن تكديس المتع إلى تحرير الإنسان؟ وهناك، حيث تداعب الشمس صفحة الماء، تمتم لنفسه :

(يا لإله القدر... ما أعظمك.)

لقد غيّر كلّ شيء في غمضة عين، قلب الموازين، هزّ العالم من أطرافه، أعاد رسم المصير كما يشاء، وتركنا نحن نلهث وراء حكمته ونحن نظن أننا نكتبها بأنفسنا.

ولأول مرة، لم يُرد ديونيسوس شيئاً لنفسه. لقد نال ما يفوق أي حلم... أن يرى وجوههم تضحك.

خلال الأشهر التالية ..

تحول الأرخبيل الجديد في غضون أسابيع إلى أسطورة حية. انتشرت أخباره على صفحات الجرائد العالمية كالنار في هشيم الفضول، وتسابقت قنوات التلفزة لاقتناص لقاء مع الرجل الذي أزاح الغبار عن إنسانية هذا العالم. غدا اسم ديونيسوس يتردد في مجالس العظماء، يُهمس به في كواليس الأمم المتحدة، وتُنسج حوله الحكايات في المدارس والجامعات، كما لو أن أفروديت خرجت من البحر مجدداً، لا بالجمال هذه المرة، بل بالرافة والكرامة.

لم يكن ديونيسوس يعير كل تلك الضوضاء المجتمعية كبير اهتمام، فقد كانت عيناه معلقتين بأفق أكثر صفاءً. كان يقضي ساعات النهار والليل بين الرسائل، والتقارير، وخطط التوسعة، وهمّه الأسمى أن يعيد خلق العالم على هيئة جزره، جزيرة بعد جزيرة. من آسيا إلى إفريقيا، من القطب حتى خط الاستواء، راح ينتقي المشردين، كما ينتقي شاعرٌ مفرداته الأخيرة، ليُنقذ أرواحاً فقدت أسماءها وعناوينها.

وما أثار دهشته البهية، هو أن العدوى قد تفشت فعلاً، ولكن ليست عدوى الخوف أو الوباء، بل عدوى الرحمة. لقد أصاب أثرياء العالم بفيروس عجيب، شبيه بتلك الفيروسات التي تعبر القارات بلا استئذان، لكن هذا الفيروس كان نادراً، سرّياً، طيباً... وكأنّ العالم قد تنفّس إنسانيته مرةً أخرى.

بات الشعور بالفقراء موضة راقية، والكرم عادة مستحبة، والمشاركة عنوان فخر لا عار. تبرّعات بالملايين تنهال على حسابات الأرخبيل من كل صوب، يُرسلها أثرياء اعتادوا أن يُذكروا في لوائح "فوربس" لا في مداخل خيام اللاجئين. كل واحد منهم كان يرى في ديونيسوس مرآة لم يكن يجرؤ على النظر فيها من قبل. وها هو الآن يقودهم إلى الضوء.

وفي خضم هذا النشوة الكونية... وقع شيءٌ غير متوقع.

في ظهيرة هادئة من ظهيرات الأرخبيل، بينما كانت الشمس تُلقي ظلالها الخفيفة على سطح المكتب الزجاجي في غرفة ديونيسوس الخاصة، وصل بريد إلكتروني يحمل عنواناً غريباً:

إلى الذي حمل الأقدار على كتفيه...

فتح الرسالة بهدوء، متوقعًا طلبًا جديدًا للتبرع أو ربما دعوة لمؤتمر إنساني، لكنه فوجئ بشيء آخر... لا توقيع، لا جهة مرسله، فقط سطور شعرية كُتبت بلغة رمزية غامضة، تكاد تلامس نغمة الأساطير:

إلى أسطورة إغريقية حقيقية

حملت هموم المشردين

في عهدٍ جديدٍ للبشرية

يصوب اختلال الموازين

إنسان نبيل جاد بماله

و لم يكن كغيره بخيلاً

شيم تشرح عن كماله

لم أر له في الدنيا مثيلاً

لذا بمنتهى الرضا والسعادة

أمنحه كامل مالي

فرفع الكرة فوق كتفي عادة

وهكذا سيبقى على الدوام حالي

لا تخف لست بحصان طروادة

أخفي خنجراً في ظل خيالي

كم أرغب في لقاءك يوماً

لنحمل الكرة على أربعة أكتاف

إذ نحمل في قلبينا حتماً

أن يسود العدل والإنصاف

أطلس العدالة

وما إن انقضت سويغات من قراءته للرسالة الغامضة، حتى تلقى إشعاراً
بنكياً عاجلاً، فهرع إلى حاسوبه، ليفتح نافذة التحويلات المالية... وهناك
اتسعت عيناه دهشةً وعجباً.

مليون دولار.

تحويل مباشر، بلا وسيط، إلى حسابه الخاص بمؤسسة الأرخبيل.

لكن اسم المرسل؟

لم يكن سوى : أطلس العدالة ..

حرق في الاسم للحظات طويلة كما لو كان ينظر إلى طيفٍ مألوف ظهر له
من بعد حياة. تذكر في لحظة واحدة كل ما قرأه عن هذا الشبح
الأسطوري، القاتل الذي لا يقتل إلا من تواطأ مع الظلم، والذي لا يترك
خلفه إلا رسائل مستوحاة من الأساطير اليونانية القديمة، منقوشة بالحكمة

والنار.

لكنّ هذه المرة، لم يترك أطلس العدالة أنثراً دموياً... بل تبرعاً ساطعاً، أكبر من أي دعم تلقاه الأرخبيل حتى اللحظة.

غير أن الأهمّ من الرقم، هو ما بين السطور.

(أنا لا أمنحك الفائض، بل الكلّ.)

هكذا قال أطلس العدالة في قصيدته.

فالقيمة الحقيقية للعتاء، كما يدرك ديونيسوس جيداً، لا تقاس بالمقدار، بل بنسبة التضحية.

من يعطي ما لا يحتاج، يعطي القليل... أما من يمنح روحه، فقد أعطى كل شيء.

شعر ديونيسوس بشيء عميق يتحرك داخله... مزيجٌ من الانبهار والامتنان، ومن التشوق الحارّ للقائه وجهًا لوجه.

أخذته الحماس، فجلس فوراً إلى مكتبه، وكتب بريداً إلكترونياً خاصاً:
(إلى أطلس العدالة :

لا كلمات تكفي لشكري. ليس فقط على تبرعك الذي سيسهم في إنقاذ عشرات الأرواح، بل على ما تمثّله.

أنت أكثر من مجرد مانح.

أنت رمز. صوتٌ قديمٌ عاد ليهتف في زمنٍ نسي الإنصاف.

يشرفني، بل يسعدني من القلب، أن أدعوك إلى منزلي في لوس أنجلوس يوم الجمعة المقبل صباحاً.

لك في هذا البيت مكان يليق بك، ولك في قلبي احترام لا يُقاس.

ديونيسوس ..)

لم تمضِ دقائق طويلة حتى ورد الرد، وجاء كأنه ختم على رسالة من
القدر :

(سأكون هناك.

في الوقت المحدد.

فبعض الوجوه... لا تليق بها المراسلات.

إلى الجمعة،

أطلس العدالة.)

أغلق ديونيسوس الحاسوب بيد ترتجف قليلاً، ثم نهض وسار إلى نافذته
المطلّة على المحيط.

هناك، تحت ضوء شمس الغروب، تأرجحت الأمواج كأنها تخط سطور
أسطورة جديدة...

أسطورة لقاء بين رجلين، لا يشبهان سائر الناس.

رجل بنى جزيرة من الرحمة،

وآخر... هدم قلاع الظلم كي يزرع بذور العدالة.

وما بينهما، خيط غير مرئي من القدر، يشدّ الأيام نحو الجمعة القادمة..

ها هي الجمعة قد أشرقت، وها هو اليوم المنتظر يطلّ برأسه، يتهدى على
إيقاع النور والقدر.

كانت الشمس قد ارتفعت قليلاً، ونسيم كاليفورنيا يتسلل بين أغصان
الصفصاف العجوز، يهمس للأرض برحيق الحياة. جلس ديونيسوس
وهيكتور كعادتهما في ركن الحديقة الغربي، تحت شجرتهما الأثيرة،
يحتسيان القهوة ببطء، كأن الزمن كله ملكٌ لهما. وكانا يتحدثان بعفوية
وامتنان عن براعة أنبياء الأوليمب، وعن مشاريعهم التي بدأت تحوّل
الأرخبيل إلى حاضنة فريدة للبشرية المرهقة.

وفجأة، تقطّع هدوء الصباح بصوت أبواق سيارة تقف عند بوابة القصر،

ثم تلا ذلك صوت خافت لحوار بين الحارس وشخصٍ ما.

التفت هيكتور وقال :

● ديونيسوس : لعلّه هو...

ولم تمضِ سوى لحظات، حتى وصل الحارس يسير بخطى هادئة وأبلغ بصوته الرزين :

○ الحارس : سيدي، شخص يدعو نفسه أطلس العدالة... ينتظر عند البوابة.

لم يتردد ديونيسوس لحظة. قال بحزم مشوب بالحماسة :

● ديونيسوس : دعه يدخل حالاً، ورافقه إلينا.

بعد دقائق، ظهر الشاب.

ترجل من السيارة التي غادرت في الحال، وبدأ عليه الوقار رغم شبابه، كأنّ أثقال العالم تمشي خلفه. عيناه لامعتان، لكنهما عميقتان كهواية. ملامحه لا تُشبه أحداً، بل كأنها مرآة لأناس كثيرين... أولئك الذين لم يُنصفهم أحد.

سار خلف الحارس في ممرات الحديقة الحجرية، متأملاً الورود الغارقة في أشعة الشمس، وزقزقات العصافير كأنها ترحّب بضيف القدر. وما هي إلا لحظات حتى وصل إلى الطاولة الرخامية حيث يجلس شاب بني الشعر في أواخر العشرينات يبدو عليه الصفاء، وإلى جواره رجل كهل أسمر البشرة، وقور، ذو لحية قصيرة بيضاء وابتسامة ناعمة.

قال الحارس وهو يشير بكل احترام :

○ الحارس : سيدي، هذا هو السيد ديونيسوس... وهذا السيد إلى جواره هو مساعده، هيكتور.

تجمد الشاب القادم للحظة، حدّق بدهشة في الشاب .

ديونيسوس هو شاب بهذا العمر ؟!

كأن اسمه طعن به فجأة في عمق ظنه.

كيف لشاب بهذا العمر أن يملك كل هذا المجد؟

كيف له أن يبني أرخبيلًا من الأمل، وأن يجذب الأنبياء من كهوف الزمن؟

لكن ديونيسوس لم يترك مجالًا للارتباك.

نهض من مكانه بابتسامة صادقة، ومشى نحو الشاب بخطوات واثقة، ثم صافحه بحرارة كمن يعرفه منذ زمن، رغم أنه يلقاه لأول مرة. وقال بصوته الهادئ العميق :

● ديونيسوس : أهلاً بأطلس العدالة المحترم في منزله الثاني ..

○ الشاب : أهلاً بكما سيد ديونيسوس و سيد هيكتور .. يمكنكما مناداتي باسمي الحقيقي .. أدعى نوح ..

● ديونيسوس : تفضل بالجلوس سيد نوح .. لا أخفيك سرّاً أنني متفاجئ من قدومك إلى هنا بينما أنت مطلوب من قبل الشرطة في كافة أرجاء البلاد .. هل تثق بي لهذه الدرجة ؟

○ نوح مبتسماً : و لماذا ستسلمني إلى الشرطة سيدي .. هل يطمع ملياردير مثلك بالجائزة المتواضعة التي رصدت مقابل إلقاء القبض عليّ .. كما أن شاباً بأخلاقك العالية التي تشهد عليها مساعدتك للمشردين و المحرومين تسمو بك عن فعل ذلك كما أوّمن بشدة .. أنت سيدي تشبه النبي نوح الذي حمل على سفينة النجاة أزواجاً من كل شيء إلى شاطئ الأمان و نجاهم من الطوفان .. و أنت حملت بقلبك الكبير أشخاصاً من

كافة بقاع العالم إلى أرخبيلك الشهير لتنجيهم من طوفان البؤس و التشرد و الحاجة ..

ابتسم ديونيسوس بتواضع من دعاية نوح عن الجائزة و مديحه المميز الذي استلهمه من اسمه على ما يبدو ..

● ديونيسوس : لكن هذا ليس عادلاً سيد نوح ! ..

○ نوح بدهشة : لم أفهمك سيد ديونيسوس !

● ديونيسوس : أنت تعرف قصتي كلها ، أما انا فأجهل قصتك تماماً باستثناء الجزء الذي روته الشرطة و الذي أشك في كثير من تفاصيله ..

○ نوح : سأخبرك قصتي إن شئت سيدي لكن ..

● ديونيسوس : لكن ماذا ؟ ..

نظر نوح إلى هيكتور و كأنه يعبر عن عدم ثقته بالحديث أمامه ..

● ديونيسوس : لا تقلق سيد نوح .. يمكنك الوثوق بالسيد هيكتور كثقتك بي .. إنه ليس مساعدي فحسب بل مرشدي و بمنزلة أبي الراحل .. لكن قبل كل شيء .. ما الذي تفضل شربه ؟

○ نوح : فنجان قهوة سيكون ممتازاً .. أريد أن أصحو قليلاً إذ لم أنم طوال الليل ..

مع روائح القهوة العبقة في الأجواء ، شرع نوح يروي قصته كمن يفتح صفحةً طويت طويلاً تحت رماد الزمن، بينما ديونيسوس و هيكتور ينصتان بعيون معلقة بين الدهشة والانبهار، كأنهما يستمعان لوشي نزل من جبل الأسطورة لا من فم رجل. كانت كلماته كأنها خيوط ضوء تنسج ملحمة خفية، بطلها طبيب اسمه بنجامين، وقف وحيداً في وجه العفن المتجذر في قلب السلطة، طبيب لم يشهر سلاحاً ولا رفع صوتاً، بل اكتفى بضمير لا يقبل المساومة، وبقلب نقيٍّ كأنما صيغ من جوهر العدالة.

كل مشهد من روايته بدا كأنه مقتطع من ملحمة قديمة، لا من واقعنا الباهت؛ من قصة مليونير غارق في الظلال إلى تزوير موت يخلف حياة، ثم إلى اختفاء رجل لم يترك خلفه سوى عبق نراهته وصرخته الصامتة في وجه عالم أعمى.

ديونيسوس لم يكن يسمع فقط، بل كان يعيش بين الكلمات، يرى بنجامين في هيئة نبيّ يحمل جراح المدينة فوق كتفيه كأطلس، ويركض في دهاليز الظلم ليطفئ ناراً لم يشعلها. وكلما ازدادت القصة توغلاً في التفاصيل، كان القلب يزداد قناعةً بأن هذا الطبيب لا ينتمي إلى زمانه، بل جاء ليذكر الناس بشيء اندثر من قلوبهم: الشرف حين يكون عبادة، والرحمة حين تصير عقيدة.

حين أسدل نوح ستار الرواية، لم يكن في الأجواء سوى صمت ثقيل، مهيب، كأن الأرواح الثلاثة تنحني أمام رجل لم يطلب مجداً، ولم ينتظر عرفاناً. لقد صار بنجامين في ذهن ديونيسوس رمزاً، لا شخصاً. صورة تضيء مشروعه، وتمنحه بعداً لم يكن يحلم به.

في تلك اللحظة، تغير كل شيء.

لم تعد الجزيرة ملاذاً للفقراء فقط، بل أصبحت حلماً لأنبياء مجهولين، عاشوا بيننا، وعوقبوا لأنهم كانوا أنقياء أكثر مما تحتل المدينة.

وبين جدران الحديقة، حيث تختلط رائحة القهوة بنبض الأرض، ولدت عزيمة جديدة في نفس ديونيسوس... عزيمة تشبه الإيمان، بل تفوقه:

أن يُخلد اسم الطبيب بنجامين كما تُخلد الأساطير،

وأن يجعل من الأرخبيل أرضاً لا تُصلب فيها الأرواح النزيهة مرتين.

● ديونيسوس : أنت شخص عظيم سيد نوح .. كي تعترف بخطئك أمامنا الذي صوبته بإبداع بعملياتك المتلاحقة التي عاقبت فيها الجناة الظالمين بما يستحقونه .. كذلك فإن هذا الطبيب بنجامين رحمة الله عليه أسطورة حقيقية و يحق لك بالفعل أن تلقبه بأطلس العدالة .. إنه يشبه النبي الإغريقي أطلس تماماً بتحمل المسؤوليات بصبر و ثبات دون التفات للعواقب و التبعات و إن كلفته حياته ..

○ نوح : النبي أطلس !؟

● ديونيسوس مرتبكاً قليلاً : أقصد الإله أطلس بالطبع .. لكنّ هناك سؤال هام يجتاحني بفضول سيد نوح ..

○ نوح : و ما هو ؟

● ديونيسوس : لماذا رغبت بلقائي و قص حكايتك عليّ و أنت مطلوب للشرطة .. ما الذي يدفعك لهذه المخاطرة الكبيرة سيد نوح ؟ ..

○ نوح : هنالك سببان لذلك سيد ديونيسوس .. الأول ، أنني من أشد المعجبين بك و بتوجهاتك الإنسانية و من الشرف العظيم لي أن ألتقيك .. أما الثاني فإنّ لي طلباً من حضرتك إن تكرمت عليّ بقبوله ..

● ديونيسوس : الشرف لي بلقائك أيضاً سيد نوح .. بالطبع اطلب ما تشاء

○ نوح : إن بقاء الطبيب بنجامين مدفوناً في ذلك المكان النائي دون شهادة و لا ضريح أو ورود على قبره يحز في قلبي للغاية .. فهو لا يستحق هذا المصير على الإطلاق .. إن أمثاله يقام له تمثال و ضريح يليق به بشهادة تحمل اسمه العظيم ليتذكره الناس على الدوام و يضعوا الزهور على قبره ..

● ديونيسوس : بالطبع هذا أقل ما يمكننا تقديمه لهذا الشجاع بعد موته ..

○ نوح : و أنا لا أستطيع فعل ذلك في بلدنا هنا ، لأن الطبيب للأسف مطلوب من الشرطة .. كما أنني أرغب بأن يبقى موته غامضاً كأسطورة .. فلا هو حي و لا هو ميت بالنسبة للناس ..

● ديونيسوس : أفهمك تماماً .. ثمّ ؟

○ نوح : لقد لفت انتباهي أنك دعوت مشروعك الخيري الجديد (مشروع أطلس) كذلك الأمر فإنّ أرخبيلك الذي أطلقت عليه اسم (أرخبيل الأوليمب) على غرار جبل الأوليمب مقر آلهة الإغريق هو من بقايا قارة أطلس في المحيط الأطلسي .. و كما تلاحظ سيد ديونيسوس فإنّ كل ذلك مرتبط بأسطورة أطلس الشهيرة على نحو مذهل .. لذا عندما سمعت بقصتك الكاملة راودني إحساس غريب بأن الطبيب بنجامين بلقبه أطلس

العدالة مرتبط روحياً بطريقة ما بأرخبيلك .. إذ أن تزامن ظهورك على الإعلام بتوجهك الإنساني مع اختفاء الطبيب ثم موته يسمو عن كونه مجرد صدفة ..

● ديونيسوس : هذا منطقي .. و كيف يمكنني خدمتك ؟

○ نوح : أرغب بشدة - إن استطعت حضرتك - أن تنقل رفاته الطاهرة إلى إحدى جزر أرخبيلك الخاصة و تقيم له ضريحاً يليق به هناك يحمل اسمه الحقيقي (بنجامين تومبسون) ، و لقبه (أطلس العدالة) مع قصة موته .. أريد على الأقل من أولئك المشردين و المحرومين البسطاء على أرخبيلك ، الأنقياء كالثلج و الذين يسكن الله في ضلوعهم أن يتذكروا أسطوره على الدوام .. و يخلدوا ذكراه بوردة صغيرة على قبره كل حين .. فبذلك يعيش الطبيب بنجامين إلى الأبد حياً في قلوبهم ..

● ديونيسوس مبتسماً : هذا ليس طلب منك سيد نوح .. بل واجب عليّ يشرفني بشدة و يمنحني سعادة لا توصف .. اعتبر ذلك منجزاً .. سأسافر معك إلى نيويورك و أسترده رفاة الطبيب ثم أنقلها بيختي إلى أرخبيل المشردين لأبني له أروع ضريح يليق بشجاعته .. ليس ذلك فحسب بل سأكلف أحد النحاتين بنحت تمثال له و هو يحمل كرة فوق كتفيه تحمل شعار ميزان العدالة تخليداً لشرفه المهني العظيم .. و بذلك سأكرم عظيمين في نفس الوقت : الطبيب بنجامين أطلس العدالة و الإله أطلس الجبار الذي حمل هموم الكرة الأرضية فوق كتفيه ..

○ نوح بسعادة لا توصف : صحيح سيدي ؟

● ديونيسوس : بالطبع سيد نوح .. اليوم أنت بضيافتي و غداً صباحاً سنسافر ثلاثتنا برحلة طويلة من أقصى الغرب في كاليفورنيا إلى أقصى الشرق في نيويورك لاستلام رفات الطبيب ثم سنعيدها معنا ..

○ نوح : أشكرك جزيل الشكر أيها السيد النبيل ..

● ديونيسوس : أنا من يشكرك سيد نوح على أربعة أشياء ..

انتقامك للطبيب بنجامين ...

ثم تفتك بي و قدومك إلى منزلي رغم كونك مطلوباً فوق العادة في كافة أرجاء البلاد ..

و بعدها تبرعك بكامل المال الذي تمت رشوتك به لأعمالي الخيرية و بذلك تكون قد طهرته تماماً و كفرت عن خطئك بأجمل صورة ممكنة ..

و أخيراً تشريف أرخبيلي باحتواء رفات هذ الطبيب العظيم فيها ..

و متى انتهيت من بناء الضريح و التمثال سأدعوك أنت و المحقق فرانك إلى الجزيرة لرؤيته بنفسك و وضع باقة ورود عليه .. كما أن هناك شيء آخر ..

○ نوح : ما هو ؟ ..

● ديونيسوس : سأتكفل بنفسي بجميع تكاليف علاج ابنتك ميشيل من مرضها ..

نظر إليه نوح بذهول غير مصدقٍ لما يسمعه .. أي قديس حقيقي يجلس أمامه !!

أرخبيل المشردين (الأوليمب) ..

بعد 3 أشهر ..

انتهى ديونيسوس من بناء الضريح كما وعد، وكان وفياً لكلمته كمن ينفذ نذراً فُطع في حضرة الخلود. نُقلت رفات الطبيب بنجامين إلى مثواها الأخير في قلب الجزيرة، تحت ظل شجرة زيتون قديمة، وعلى تلة تطلّ على المحيط، تماماً كما تخيلها ديونيسوس في مناجاته الطويلة مع إله القدر.

وصل نوح وفرانك إلى الأرخبيل بدعوة من ديونيسوس، وما إن وطأت أقدامهما الجزيرة حتى غمرتهما الدهشة أمام فردوس لم تصنعه الطبيعة

وحدها، بل أعيد تشكيله بيد ديميتير، وأنفاس أثينا، وهمسات أبولو. كانت الأرواح هناك خفيفة، طيبة، كأنها تحرّرت من سلاسل المدن القديمة.. واندثرت كل آثار العالم القاسي في بسمّة طفل أو لمسة حب على كتف مسنّ.

ساروا خلف ديونيسوس بين الممرات الحجرية، يرافقه هدير البحر، حتى وصلوا إلى الضريح. هناك، ارتفع تمثال أطلس في عظمة مهيبّة، يحمل فوق كتفيه كرة حجرية منحوتة بعناية، نقش عليها ميزان العدالة بكفتيه المتساويتين.. ميزان لا يميل إلا للحقيقة، مهما طال الانتظار. تحتهما نُحتت العبارة الخالدة:

(العين بالعين، والظلم بالعقاب.)

كان الضريح أكثر من مقبرة. كان بيانًا، إعلانًا مقدّسًا بأن العدالة، وإن تأخرت، لا تموت.. بل تعود من الرماد بقوة الإله.

لم تكن أسطورة بنجامين إلا تكرارًا حديثًا لأساطير خالدة. وحده الإله الذي لا اسم له، الذي يدير خيوط المصائر، قرر أن تكتب نهايات أخرى لمن يظنون أنفسهم فوق القانون. وها هو الطبيب النزيه يعود من الظلال، لا بجسده بل بفكرته، بوصيته التي لا تكتب على الورق، بل تُحفر في ذاكرة الشعوب.

كما فتح جيمس صندوق باندورا بجريمة واحدة فأطلق شرورًا دمرت عالمه، فتح ديونيسوس صندوقه الخاص بحادث سير على أطراف باريس، ليشهد شرور العالم: البؤس، الجوع، التشرد.. لكنه أخرج معه الأمل أيضًا، ذلك الطيف الذي لا يموت، الذي صار واقعًا ملموسًا على جزر الأرخبيل. من جزيرة إلى أخرى، تتكرر المعجزة: يُنتشل المهملون من حضيض المدن، ويُعيدون اكتشاف كرامتهم تحت سماءٍ جديدةٍ ورايةٍ مختلفة.. راية العدالة.

أمام الضريح، اصطفّ ديونيسوس وهيكتور ونوح وفرانك، ومن خلفهم أنبياء الأوليمب، أولئك الذين تخلّوا عن خلودهم في كهوف العزلة ليكونوا فنانين من أجل حياة الآخرين، وخلفهم الطوق المتنامي من الأرواح الجديدة

التي التحقت بجزيرة الحلم.

وضع الجميع باقات من الورود على الضريح، فيما الريح تهب من جهة المحيط كأنها تسري بنشيدٍ قديم، أزليّ، لا لغة له سوى الرهبة.

نُقشت الكلمات الأخيرة على قاعدة التمثال :

أطلس .. وسماء العدالة فوق كتفيه

يتحمل مسؤولياته بشجاعة

حتى الرمق الأخير.

لا عزاء للظلم بعد اليوم. فقد تخلّدت روح بنجامين كما خُلدت أسطورة النبي أطلس من قبله.

انتهت المهمة.

فلتنزل يا أطلس العدالة الكرة عن كتفيه ..

ولترقد بسلام في ضريحك، الذي يليق بعظمتك.

فقد أصبح لأطلس دينٌ في بلاد المشردين.



لأطلس دين في بلاد المشردين ..

محتوى الكتاب :

- أطلس و على كتفيه سماء العدالة
- حلم قصير ، أرخبيل و أساطير ..
- نهاية شجاع .. و ولادة أسطورة
- إله القدر يفتح صندوق باندورا
- فاييتون الأرعن
- العذراء المريضة و المسيح الطبيب
- إيكو الحوريّة يحل القضية
- ثروة من الشغف ..
- بروميثيوس سارق النار لأجل الأخيار
- سيمفونية الحياة
- عقدة أوديب و العشق الغريب
- استنزاف الحياة من أجل الحياة
- غيرة بيغماليون ..
- طفل يحتضر بين نسر و مصوّر (أوبنتو)
- الانتقام الأخير .. و انكشاف المصير ..
- الحلم حقيقة الآن في كهف ماتابان
- المدينة الفاضلة .. ارقد يا أطلس بسلام ..

